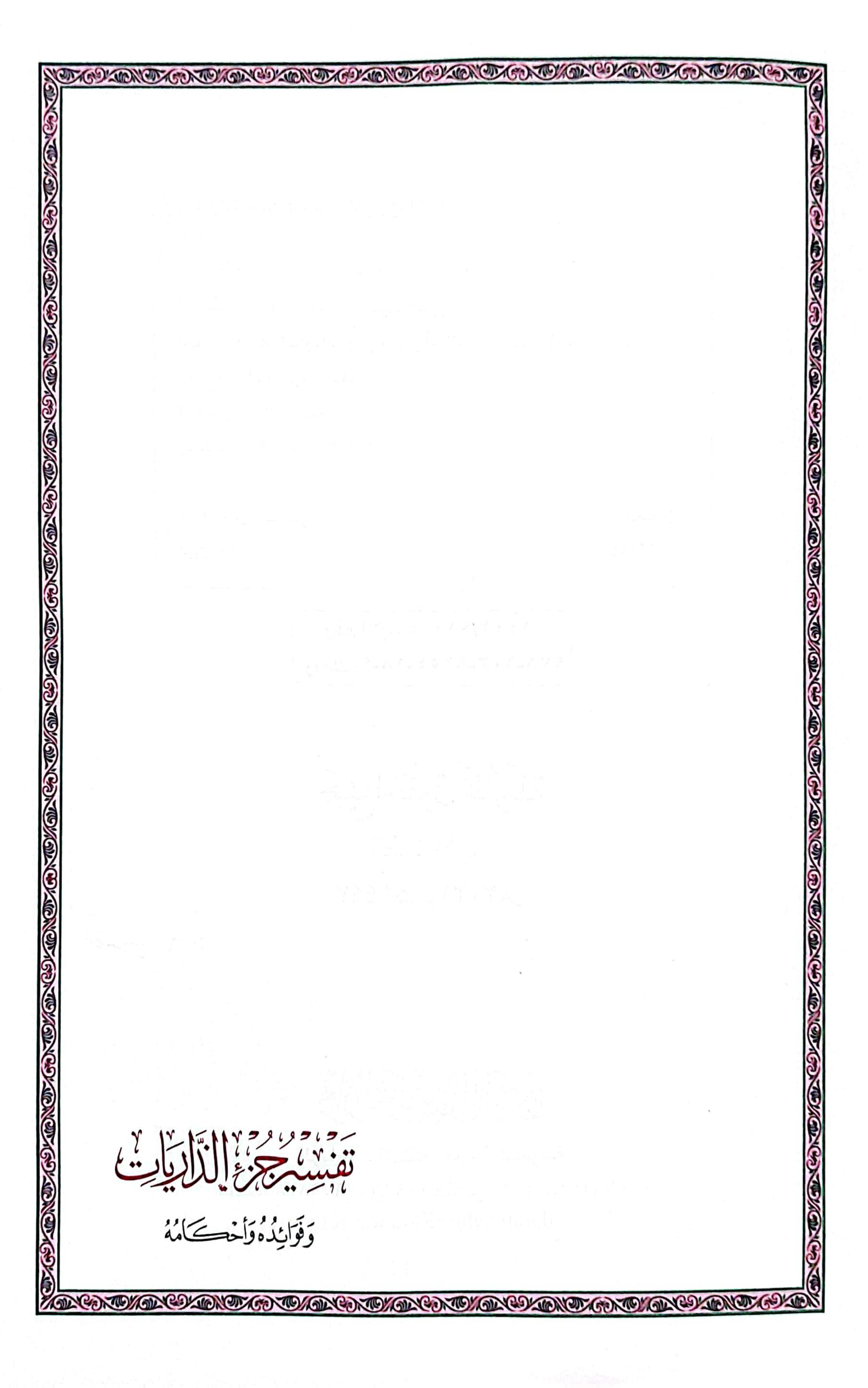

تفسير جزء الذاريات
وفوائده وأحكامه

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العسكر، عبدالمحسن بن عبد العزيز
تفسير جزء الذاريات وفوائده وأحكامه. / عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر.- الرياض، ١٤٤٢هـ
٢٥١ ص؛ ١٧ X ٢٤ سم
ردمك: ٩-١٨-٨٢٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - تفسير أ. العنوان
ديوي ٢٢٧،٣ ١٤٤٢/٩١٤

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٩١٤
ردمك: ٩-١٨-٨٢٥٤-٦٠٣-٩٧٨



الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

تصويب ٦




الرياض - المملكة العربية السعودية
هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٦٧٨٨٧٨ فاكس: ٠٠٩٦٦١٤٢٨٠٤٠٤
darattawheed@yahoo.com

# تفسير جزء الذاريات

## وفوائده وأحكامه

استنبط الفوائد والأحكام

فضيلة الشيخ

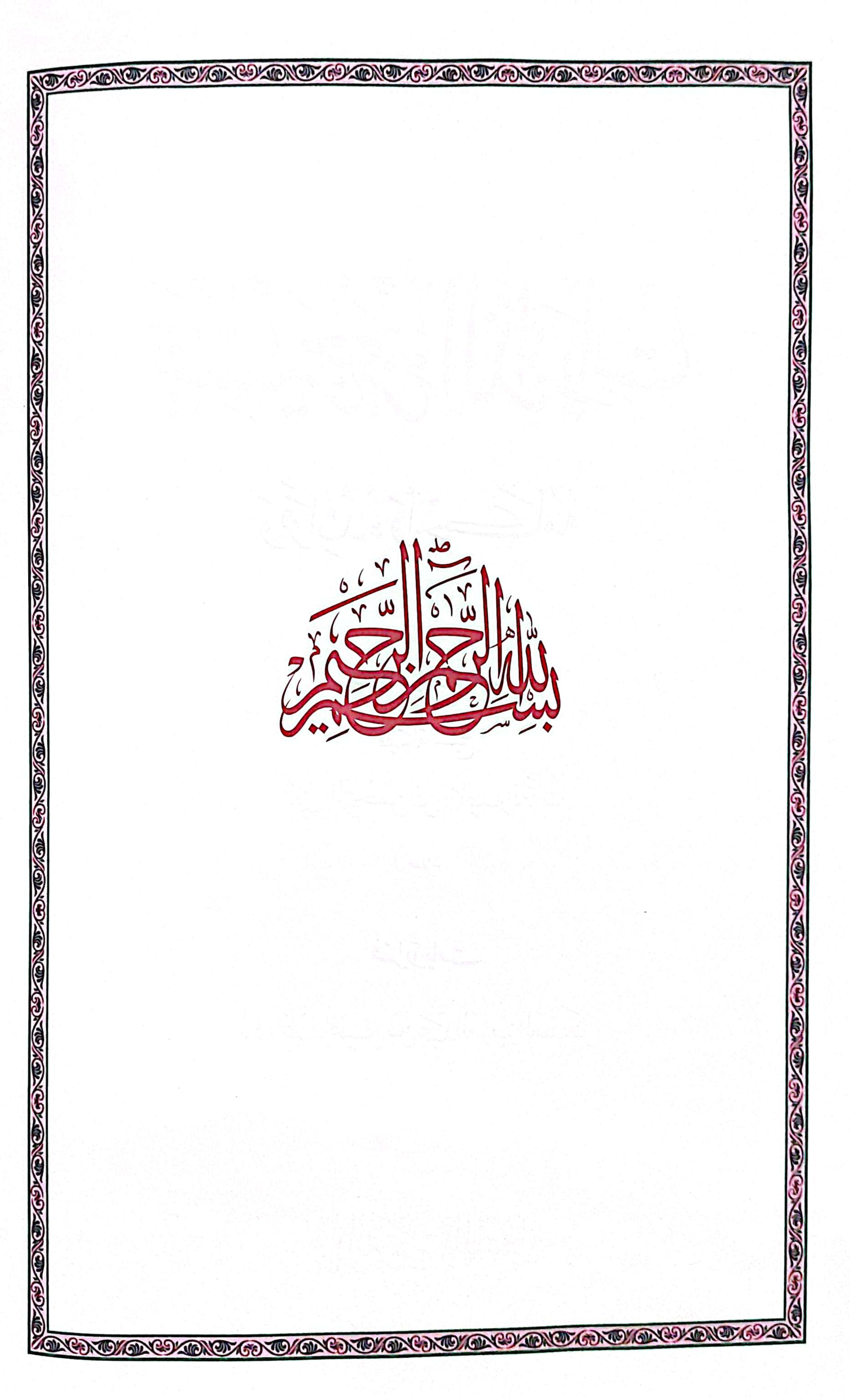
عبد الرحمن بن ناصر البراك

حفظه الله

فسّر الآيات

أ. د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر

دار التوحيد للنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

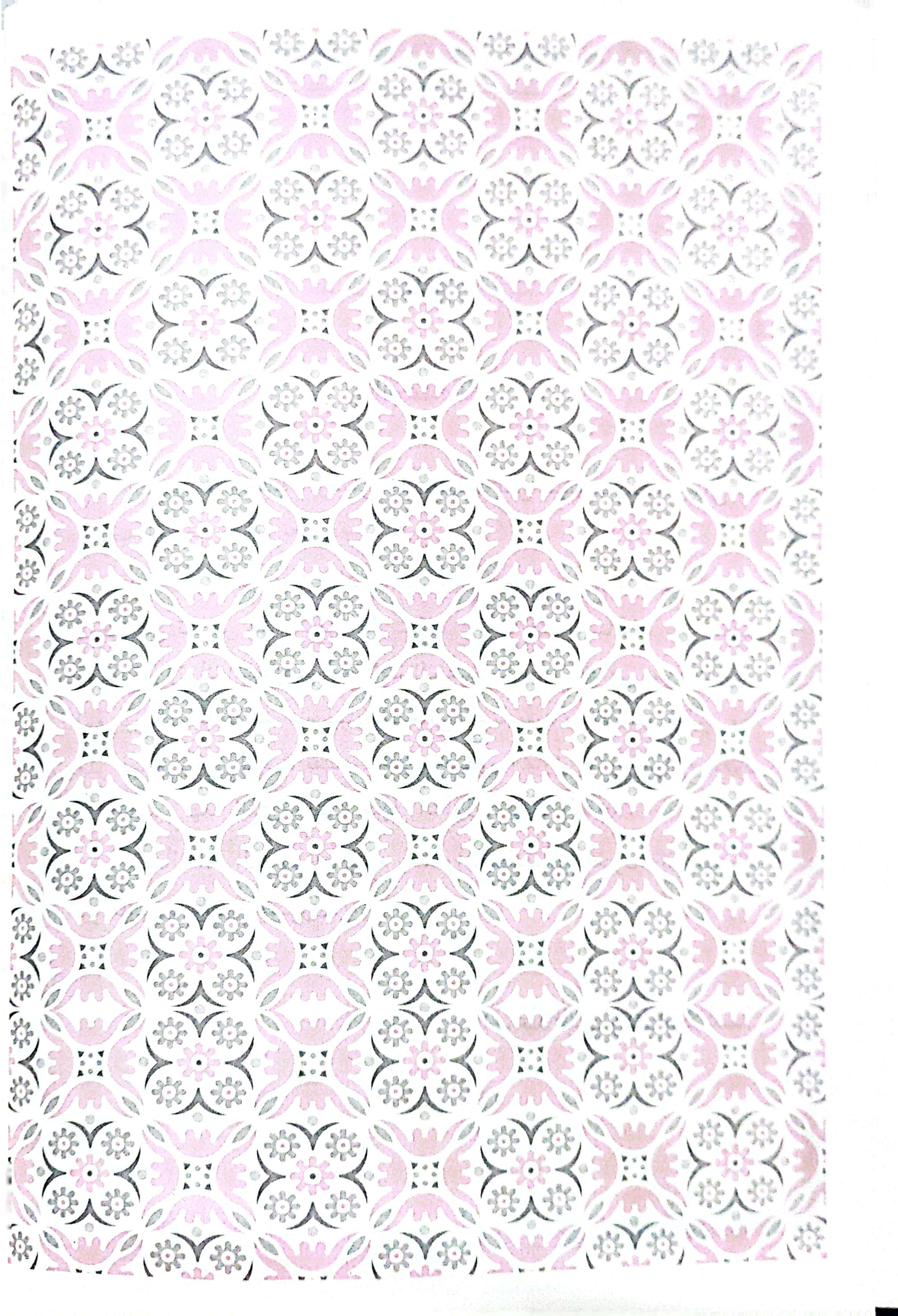
## المقدمة

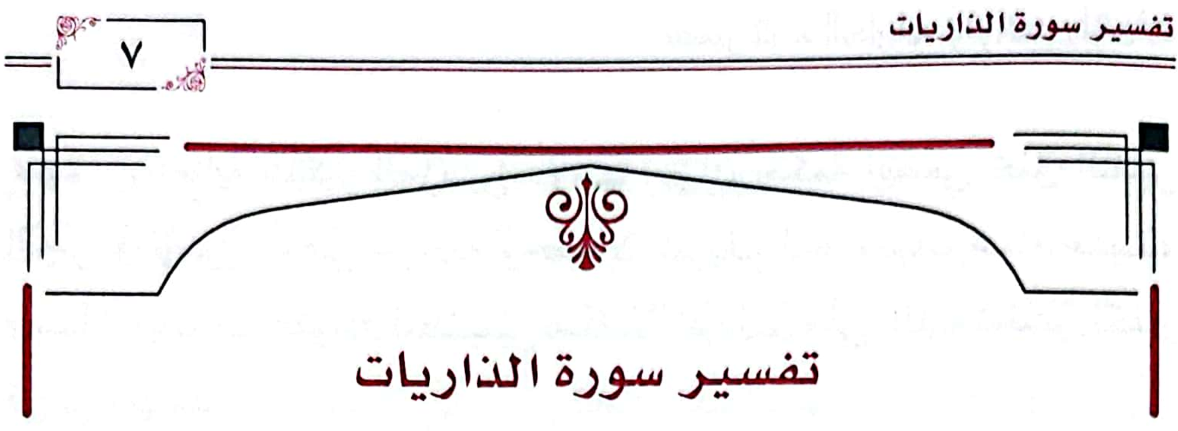
الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

فهذا هو تفسير جزء الذاريات، وهو الجزء السابع والعشرون، وقد سلكنا في تفسير هذا الجزء ما سلكنا في الأجزاء السابقة، من تسهيل العبارة، وترك التعرض لخلاف المفسرين، والتجافي عن أعاريب المعربين إلا ما لا بد منه لبيان المعاني، مما يفيد منه طالب العلم، ولا يعلو فهمه - في الوقت نفسه - على جمهور القارئين، ونرجوا أن يكون هذا التفسير بهذا الذي وصفنا سهلَ التناول، قريبَ المأخذ.

ونسأل الله الكريم أن ينفع به، وأن يكتب له القبول، إنه سبحانه خير مأمول، وأكرم مسؤول.

أ.د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر





# تفسير سورة الذاريات

سورة الذاريات مكية، وعدد آياتها ستون، افتتحت بأربعة أقسام على ثبوت البعث والجزاء، ثم بالقسم بالسماء ذات الحبك على اختلاف أقوال المكذِّبين وتناقضها، وتضمَّنت الآيات من العاشرة إلى الثالثة والعشرين ذكر جزاء الخرَّاصين المكذِّبين بالبعث، المفترين على الله بالخَرْص والتخمين، وذكر جزاء المتقين، وأعمالِهم التي كانوا بها محسنين، ثم ختمت الآيات بالتنبيه على ما في الأرض والأنفس من الآيات للمستبصرين الموقنين، وبالتنبيه على أن الرزق وموعود المتقين في السماء، ثم أقسم الله على ذلك بنفسه على أن وعده حقٌّ، وإن كان غيبًا فهو كالمشاهد المحسوس ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ نَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٣].

وتضمَّنت الآيات من الرابعة والعشرين إلى السادسة والأربعين قصة ضيف إبراهيم، وذكر إهلاك المكذبين كقوم لوط وفرعون وجنوده وعاد وثمود وقوم نوح إنهم كانوا قومًا فاسقين.

ثم ختمت السورة بتعقيبات منها: التنبيه على ما في الأرض والسماء من الدلالات على قدرته تعالى وحكمته، وأنه الإله الحق الذي يجب الفرار إليه من كل ما يُحذر بعبادته وترك الشرك به. ومنها: بيان وظيفة النبي ﷺ، وهي النذارة. ومنها: بيان سنة المكذبين، وهي الطعن على المرسلين بالسحر والجنون، كأنهم قد تواصوا به، وما حملهم على ذلك إلا الطغيان في التكذيب والعناد. ومنها: أمر النبي ﷺ بالإعراض

عنهم، والعناية بتذكير المؤمنين. ومنها: بيان حكمة الله في خلق الثقلين الجن والإنس، وهي عبادته وحده لا شريك له، وبيان غناه عنهم، ومنها: بيان أن عقوبته للظالمين سنَّة لا تتبدل، وفي ذلك تحذير لكفار قريش وتهديد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات القسم من الله بأربعة من مخلوقاته على صدق وعده، ووقوع الجزاء، ثم القسم بالسماء ذات الحبك على اختلاف المشركين، وتناقضهم في أقوالهم، وأن ذلك من أسباب صدِّ من صُدَّ عن قبول الحق.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾﴾ هذا قسم من الله تعالى؛ أي: أُقسم بالذاريات جمع ذارية وهي الرياح التي تذرو التراب وغيره، أي: تثيره وتفرقه، تقول العرب: ذروتُ الشيء أذرُوه إذا طيَّرتَه وفرَّقته، وذَرتِ الريحُ التراب والهشيم، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، وقوله: ﴿ذَرْوًا ﴿١﴾﴾ مصدر مؤكد، المعنى: أقسم بالرياح التي تثير التراب وتطيِّره تطييرًا ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾﴾ أي: وأقسم بالسحب الحاملات ثِقْلًا عظيمًا من الماء، هذا ما ذهب إليه أكثر المفسرين.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالحاملات الرياح التي تحمل السحاب، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ الآية [الأعراف: ٥٧]، ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾ أي: وأقسم بالسفن الجاريات في البحر جريًا هيِّنًا سهْلًا، وذكر شيخ الإسلام أن المراد بالجاريات النجوم، لقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ [التكوير: ١٥ ـ ١٦][(١)].

قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ أي: وأقسم بالملائكة التي تُقسِّم الأمور الشرعية والكونية المقدَّرة بين العباد والبلاد من الأرزاق والأمطار وغيرها، وبين هذه الأشياء المقسم بها تناسب في أجناسها وترتيبها، ولذا وقع العطف بينها بالفاء؛ فأقسم الله بالرياح الذاريات، فبالسحب التي تسوقها الرياح، فبالسفن الجارية بهبوب الرياح، فبالملائكة التي تقسِّم أوامر الله، ومنها تصريف الرياح.

وأقسم الله ﷻ بهذه الأشياء لكثرة منافعها، وما فيها من المصالح الظاهرة للعباد، ولما تضمنته من الدلائل الباهرة على كمال قدرته تعالى وحكمته ورحمته، والقسم بها مُمهِّد للمحلوف عليه، وهو صدق البعث والجزاء، فكأنه قيل: من يقدر على هذه الأمور العجيبة هو قادر على إعادة ما أنشأه أولًا، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾، وهذا جواب القسم، أي: إن الذي توعدونه من البعث والثواب والعقاب لحقٌّ لا ريب فيه ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾ أي: الحساب والجزاء ﴿لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾ أي: حاصل ولا بد، وعطف قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾ على قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾؛ من عطف الخاص على العام لتأكيد الخاص؛ فالدِّين ـ الذي هو الجزاء ـ من جملة الأمور الموعودة.

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (٥/٢٠٨).

هذا، والله ﷻ يقسم بما يشاء من مخلوقاته، أما المخلوق فليس له أن يقسم إلا بالله؛ لأن القَسَم يتضمن تعظيم المقسَم به، ومن تعظيم الله القَسَم به، فلذلك كان القَسَم بغير الله شركا؛ فلا يُعظَّم بالقَسَم به إلا الله تعالى أو أسماؤه أو صفاته.

ولما أقسم سبحانه على صدق ما وُعدوا به أقسم على اختلافهم وتناقض أقوالهم وعنادهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ أي: ذاتِ البهاء والجمال والحسن والاستواء، هكذا جاء عن ابن عباس وجماعة من السلف، والحُبُك في الأصل هي الطُّرُق وزنًا ومعنى، مفردها حَبِيكة، والمراد طُرُق السماء، وما فيها من الكواكب، واشتقاق الحُبُك من الحَبْك الذي هو إتقان الصُّنع، فطُرُق السماء التي تسير فيها الكواكب في غاية الإحكام والحسن والاستواء، فهذا التفسير اللغوي يؤيد ما جاء عن السلف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ هذا جواب القسم: أي: إنكم أيها المشركون لفي قول مضطرب متناقض في البعث وفي القرآن، فبعضهم يقول: سحر، وآخرون يقولون: كهانة، وطائفة تقول: أساطير الأولين، وفي النبي ﷺ، فمنهم من يقول: شاعر مجنون، وآخرون يقولون: ساحر كذاب، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق: ٥]، ووجه المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه أن السماء في حسنها واستوائها أمرٌ معلوم، ويتضح اضطرابهم واختلافهم وما هم فيه من الأمر المريج حين يعرض في جانب حسن السماء وإحكام خلقها؛ فالمناسبة هي التضاد، كما قيل: والضِّدُّ يظهر حسنه الضِّدُّ.

قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ أي: يُصرف عن الإيمان به من صُرف في سابق علم الله، وعلى هذا فالضمير يعود على الرسول ﷺ،

وقيل: إن الضمير ﴿عَنْهُ﴾ يعود على القول المختلف، وعليه فـ (عن) سببية، أي: يصرف عن الإيمان بسبب القول المختلف من صُرِف، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣] أي: بسبب قولك.

## ۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن هذه السورة مكيَّة بما اشتملت عليه من علامات القرآن المكي، ومنها افتتاحها بالأقسام.

٢ ـ أن الرياح والسحاب والسُّفن الجاريات من عظيم الآيات.

٣ ـ أن الرياح أنواع باعتبار آثارها.

٤ ـ الامتنان على العباد بإرسال الرياح لما فيها من منافعهم.

٥ ـ أن مما يقسم الله به الملائكة.

٦ ـ أن من أقسام الملائكة المُقَسِّمات للأمر، كالمدبِّرات للأمر.

٧ ـ تأكيد أمر البعث والجزاء.

٨ ـ عظم شأن البعث والجزاء؛ لذا أُكِّد الخبر به بكل أنواع المؤكدات، ولشدة عناد المكذبين به.

٩ ـ تناقض أقوال المشركين في البعث والقرآن والرسول، والقسمُ من الله على ذلك بالسماء ذات الحُبُك، أي: ذات الخَلْق الحَسن، وهذا من الإقسام على الشيء بضده.

١٠ ـ أن اختلاف المشركين في أقوالهم مما يَضل به بعض الناس، ويُصرف به عن الحق لقصور عقله، فلا يدرك ما في الأقوال المتناقضة من الفساد.

ولما ذكر قول المختلفين المكذبين دعا عليهم، فقال سبحانه:

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات الخمس اللعن من الله للخراصين الذين يفترون الكذب، ويقولون على الله ما لا يعلمون، ولذا اختلف قولهم في البعث والجزاء، واستبعدوه، هذا وهم في غمرة من الجهل والغفلة، لذا يسألون سؤال استبعاد عن يوم الدين، وهو اليوم الذي يفتنون فيه على النار، ويقال لهم: ذوقوا العذاب، هذا الذي كنتم به تستعجلون، وأنتم به مكذبون.

## التفسير:

قوله سبحانه: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: لُعنوا وأهلكوا، وهذا دعاء عليهم، كما يقال: قاتلهم الله، ولا يراد به حصولُ القتل بعينه، بل الهلاكُ بأيِّ وجه كان، وفي إيقاع اللعن عليهم تقبيح لحالهم، وتعجيب منهم، وعُبِّر عن اللعن بالقتل تشبيهًا للملعون الذي يفوته كل خير وسعادة بالمقتول الذي تفوته الحياة وكل نعمة.

وبناء الفعل ﴿قُتِلَ﴾ على صيغة الماضي الذي لم يُسمَّ فاعله فيه فائدتان: الأولى: تحقق وقوعه. الثانية: تعميم اللعن، والإخبار بأنه واقع من كل أحد، من الله ومن الملائكة ومن الإنس، و﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ هم الكذابون، وهم أصحاب القول المختلف، والخرص المذموم هو الظن الذي لا حجة مع صاحبه، ويتجوز بالظن عن الكذب لأنه

من أسبابه ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ﴾ أي: في جهالة عظيمة تغمُرهم كما يغمُر الماء الغريق ﴿سَاهُونَ ١١﴾ أي: غافلون لاهون عن الإيمان وعن الآخرة ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾ الرسول سؤال استهزاء وتكذيب ﴿أَيَّانَ﴾ أي: متى ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٢﴾ أي: يوم الجزاء والحساب، أي: متى وقوعه، فأجابهم الله بقوله: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ أي: يقع يومُ الدين والجزاء يومَ يُحرقون بالنار، وأصل الفتنة إذابةُ الذهب ونحوه على النار ليظهر ما ليس منه كالنُّحاس مثلا، ثم استعير للتعذيب، وعُدِّي ﴿يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ بـ ﴿عَلَى﴾ لتضمنه معنى يُعرَضون، فالمعنى: يعذَّبون بعرضهم على جهنم، وهذا الجواب ليس فيه تعيين المسؤول عنه، وهو يوم الدين، وإنما ذُكر ما يحصُل لهم فيه من العذاب بالنار على طريقة الأسلوب الحكيم، وهذا أبلغ في الجواب من تعيين الوقت لتضمنه ذلك الوعيد الشديد ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ أي: يقال لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ أي: ذوقوا عذابكم ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، خبره: ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ١٤﴾ أي: كنتم تستعجلونه في الدنيا، والباء في قوله: ﴿كُنتُم بِهِۦ﴾ لتأكيد الاستعجال.

### الفوائد والأحكام:

١ ـ أن معنى ﴿قُتِلَ﴾ في القرآن: لُعن.

٢ ـ أن القول على الله بغير علم من شأن الكفار لجهلهم واتِّباعهم للظن وما تهوى الأنفس.

٣ ـ أنهم في هذه الدنيا في غفلة ونسيان لما خلقوا له، ولما ينتظرهم.

٤ ـ تحريم القول على الله بغير علم، وأنه من التشبه بالكفار.

٥ ـ أن الكفار لفرط جهلهم وعنادهم يسألون سؤال استبعاد واستهزاء عن يوم الجزاء.

٦ ـ أن جزاءهم يوم القيامة أنهم في النار يعذَّبون ويوبَّخون.

٧ ـ فيها شاهد لمثل قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المطففين: ١٥ ـ ١٧].

ولما بين حال المكذبين الكفار ذكر المؤمنين الأبرار؛ فقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

### المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات الخبر عن حال المتقين في الدنيا والآخرة؛ فحالهم في الدنيا إحسان في عبادة الله وإحسان إلى عباد الله، وحالهم في الآخرة في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم من النعيم.

### التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: المؤمنين الموصوفين بالتقوى، وهي فعل الأوامر واجتناب المناهي ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ جمع جَنَّة، وهي في الأصل البُستان، وهي جنَّات كثيرة متفاوتة الدرجات تبعًا لتفاوت أهلها في أعمالهم، قال ﷺ للمرأة التي سألت عن ابنها المقتول يوم بدر: «يا

**أمَّ حارثة، إنها جنانٌ في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»**[١]، ﴿وَعُيُونٍ ۝١٥﴾ أي: وعيون جارية بأشربة أهل الجنة. معنى الآية: أن المتقين مقيمون في بساتين عظيمة فيها عيون جارية.

قوله تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ منصوب على الحال ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: راضين بما أعطاهم ربهم من النعيم، والأخذ هو التلقي بالقبول والرضا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وما ناله المتقون من الكرامة هو من آثار ربوبيته تعالى الخاصة وإنعامه على أوليائه، ولهذا قال سبحانه: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦﴾ أي: في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ ۝١٦﴾ أي: أحسنوا العمل فقاموا به على أكمل ما يكون من الإتقان والإخلاص والديمومة.

ثم فصَّل الله هذا الإحسان منهم، فقال سبحانه: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ الهجوع هو النوم، و﴿مَا﴾ زائدة لتأكيد التقليل: أي: كانوا قليلًا من الليل يهجعون، ويستيقظون أكثره فيكابدون العبادة في أوقات الراحة وسكون النفس ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ جمع سَحَر، وهو آخر الليل قبيل الفجر ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ أي: يستغفرون الله من تقصيرهم، فمع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم فإنهم يمدُّون ذلك إلى الأسحار حيث وقت الاستغفار، ويعدُّون أنفسهم مذنبين، وكأنَّهم لم يتفرغوا في ليلهم للعبادة، وفي الآية إشارة إلى مزيد خشيتهم وأنهم لم يغتروا بعبادتهم.

ذلك هو إحسانهم في حق ربهم، وأما إحسانهم مع الخلق فهو ما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ وهو ما بذلوه تطوُّعًا

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٤) عن أنس ﷺ.

﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ وهو الذي يطلب الصدقة ﴿وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ أي: الفقير المتعفِّف الذي لا يَسأل الناس فيُحرم العطاء لأنه يُحسب غنيًّا لتعففه، وجاء في سورة المعارج: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، فقيَّد الحق بالمعلوم وهو المقدَّر، والفرق بينهما أن الذي في المعارج هو الحقُّ الواجب، وهو الزكاة، بدليل أنه قُرن بالصلاة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج: ٢٣]، والذي في الذاريات هو في الإنفاق المستحب، بدليل أنه قرن بصلاة الليل.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من سنَّة الله في القرآن ذكرَ الوعد والوعيد.

٢ ـ أن من تصريف الوعد والوعيد في القرآن الجمعَ بينهما في آيات متتالية، بذكر الوعيد ثم الوعد، أو الوعد ثم الوعيد.

٣ ـ أن التقوى هي السبب الأقوى في نيل السعادة والفوز العظيم.

٤ ـ أن جزاء المتقين أن ينعَّموا في جنات وعيون.

٥ ـ إثبات الجنة دار المتقين.

٦ ـ أن فيها عيونًا تجري بأنواع الشراب.

٧ ـ أن أهل الجنة يتمتعون بما آتاهم الله من أصناف النعيم.

٨ ـ ذكر سبب هذا الجزاء الكريم، وهو الإحسان.

٩ ـ أن الإحسان نوعان: إحسان في عبادة الله؛ ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾، وإحسان إلى عباد الله ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾.

١٠ ـ في الآيات شاهد لقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٥﴾ [المائدة: ٨٥].

١١ ـ أن من خصال المحسنين المتقين قيامَ الليل على الدوام.

١٢ ـ فضل صلاة التطوع بالليل على التطوع بالنهار.

١٣ ـ أن من كمال الإحسان في العمل عدمَ الاغترار به، مع الشعور بالتقصير.

١٤ ـ استحباب ختم قيام الليل بالاستغفار.

١٥ ـ فضل الاستغفار.

١٦ ـ أن الاستغفار لا يستغني عنه أحد، مهما بلغ في العبادة، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الاستغفار[1].

١٧ ـ أن إنفاق المال في موضعه من أعظم وجوه الإحسان إلى الخلق.

قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات التنبيه إلى ما في الأرض والأنفس من الآيات الدالة على قدرته تعالى وحكمته ورحمته، والخبرَ عمَّا في السماء من

(١) قال ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة» رواه مسلم (٢٧٠٢) عن الأغر المزني رضي الله عنه.

الخير للعباد في الدنيا والآخرة، وتأكيدَ ذلك بالقَسم بأعظم مقسَم به، وهو رب السماوات والأرض، أن ما وعد به العباد حقٌّ، كالأمر المحسوس مثل نطق العباد.

## التفسير:

هذا كلام مستأنف، قُصد به الاستدلال على كمال قدرته تعالى، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وإقامةُ الحجة على المنكرين الجاحدين، وهو على صنفين:

**الأول**: صنف يتعلق بالأرض في قوله سبحانه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ الآيات جمع آية، وهي العلامة على الشيء التي تدل عليه وتبينه، أي: وفي الأرض دلائل واضحة على وجود الخالق تعالى، وعلى قدرته وعلمه وحكمته ورحمته، من الجبال والبحار والأنهار والمعادن والحيوانات والثمار وأنواع النباتات ﴿لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ أي: لأهل اليقين الراسخين في الإيمان، وخَصَّهم بالذكر لأنهم المنتفعون بهذه الآيات والناظرون فيها بعين البصيرة، فإنهم كلما رأوها ازدادوا يقينًا مع يقينهم في إيمانهم، وخصَّ الآيات الأرضيَّة بالذكر لقربها من الإنسان.

**الثاني**: صنف يتعلق بنفس الإنسان، وهو قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: وفيكم كذلك آياتٌ وعِبرٌ؛ في نشأتكم وأطواركم وانتقالكم من حال إلى حال، واختلاف ألسنتكم وألوانكم، وتفاوتكم في الطبائع والأجسام والعقول والأفهام، وفي خلقكم على أحسن الهيئات من اعتدال القامة وتناسب الأعضاء، والتحام أجزائها، وانسجام حركاتها، وما ركِّب في الإنسان من الحواس والقوى الظاهرة والباطنة ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ أي: أفلا تنظرون نظر من يعتبر ويتبصَّر، وهذا استفهام إنكار وتوبيخ، أي: توبيخ على ترك النظر والتفكر.

ثم ذكر الله آية أخرى فقال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ أي: المطر الذي جعله الله سببًا للرزق ﴿وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ أي: الجنة؛ فإنها في السماء، وجاء عن بعض السلف أن المراد ما توعدون من الخير والشر، ومعنى هذا القول أن الكلَّ مقدَّر ومكتوب، وذلك في السماء، وأما النار فإنها في أسفل سافلين، ليست في السماء؛ فإن أرواح الكفار التي تعذب بالنار لا تفتح لها أبواب السماء، ويشهد لذلك ما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ في المحتضَر: «**يقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه** [أي: الكافر] **في سِجِّين في الأرض السفلى**»(١).

ثم أقسم الله بنفسه المقدَّسة على تأكيد ما مضى كله، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ﴾ أي: ما وعدهم به من القيامة والجزاء والعقاب والثواب ﴿لَحَقّٞ﴾ أي: ثابت واقع لا شك فيه ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ أي: مثلَ نطقكم بالكلام، فذلك لا تشكُّون في وقوعه منكم، شبَّه تعالى تحققَ ما أخبر عنه من الغيب بتحقق نطق الإنسان ووجوده محسوسًا مسموعًا، وهذا كما تقول: إنه لحقٌّ كما أنت ههنا، وإنه لحقٌّ كما أنك تتكلم، والمعنى: أنه في صدقه ووجوده كالشيء الذي تعلمه ضرورة.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ الإرشاد إلى التفكر في الآيات الكونية في الأرض والأنفس.

٢ ـ أن في الأرض آيات هي مجال لتفكر المتفكرين.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٨٥٣٤) وأبو داود (٤٧٥٣) وصححه الحاكم (١/ ٩٣)، وقال ابن منده في كتاب الإيمان (٢/ ٩٦٣): «هذا إسناد متصل مشهور... وهو ثابت على رسم الجماعة»، وقال محققو المسند: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح.

٣ ـ ذكر الآيات الكونية في الأرض مجملة في هذه الآية، وهي مفصلة في آيات كثيرة، كما في سورة الأنعام والرعد والنحل والنمل وغيرها.

٤ ـ أن المنتفعين بالآيات هم الموقنون بربوبيته تعالى وإلاهيته، والطالبون للعلم الموصل لليقين.

٥ ـ أن في خلق الإنسان آيات يتفكر فيها المتفكرون.

٦ ـ ذكر هذه الآيات مجملة، وهي مفصَّلة في آيات أخرى، كما في سورة المرسلات والبلد والتين، والآياتِ التي فيها ذكر أطوار خلق الإنسان، كسورة الحج والمؤمنون.

٧ ـ أن الإعراض عن التفكر في آيات الأنفس من عمَى البصائر، ولذا قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾.

٨ ـ أن أصل رزق العباد في السماء، وهو ما ينزل من أمر الله، وما ينزله من الغيث.

٩ ـ في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ﴾ [الجاثية: ٥].

١٠ ـ أن الجنة في السماء، لقوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾.

١١ ـ أن من مؤكدات الخبر القَسَم، وأنه يصح من الصادق، والله تعالى أصدق الصادقين، وقد أقسم بنفسه على خبره، وهو كثير في القرآن، كما في أول هذه السورة، وكذلك كان الرسول ﷺ يقسم بربه على ما يخبر به، كقوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده**»[1]، وقوله: «**لا،**

(١) البخاري (٦٢٤٣) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ومقلب القلوب»[١].

١٢ - تشبيه الغائب المعلوم بالمحسوس لإفادة القطع به؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

١٣ - إثبات ربوبيته تعالى للسماوات والأرض وما فيهما؛ لأنه خالقهما ومالكهما ومدبر أمرهما.

ولما ردَّ الله في أول السورة على المكذبين بالبعث والجزاء، وذمَّهم وتوعَّدهم، ثم نبَّه على الآيات الدالة على كمال قدرته أتبع ذلك بالإشارة إلى ما جرى على أمثالهم من المكذبين للرسل من أنواع العقوبات، وافتتح ذلك بقصة إبراهيم تمهيدًا لذكر عقوبة قوم لوط، ومن ذُكر بعدها، فقال سبحانه:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

### المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الخبر عن ضيف إبراهيم المكرمين، وما كان منهم ومن إبراهيم عند لقائهم من التحية والجواب، وإسراعه عليه السلام في إحضار القِرى لهم، وبشارتهم له بغلام عليم، وما كان من امرأته من

---

(١) البخاري (١٤) ومسلم (١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الدَّهش تعجبًا من البشارة بالمولود، وهما شيخان، وتأكيد الملائكة لهذه البشرى.

**التفسير:**

قوله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولغيره ممن يصلح للخطاب، وهذا الأسلوب يؤتى به إذا كان الخبر المذكور غريبًا وذا شأن، وفيه الإشارة إلى أن مثله لا يأتي إلا من جهة الوحي، ومن نظائره في القرآن قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: ٢١]، وقوله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [النازعات: ١٥]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ [البروج: ١٧]، ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾ [الغاشية: ١].

وزاد في فخامة هذا الخبر أن الله ذكره أولًا مجملًا ثم فصّله بقوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾، وكذلك وصف الضيف بالمكرمين.

قوله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الاستفهام للتشويق والتعجيب والتقرير، فإن قصة إبراهيم مع ضيفه تقدمت في سورة الحجر، وهي أسبق نزولًا من الذاريات، والضيف يطلق على الواحد والكثير، وكانوا جماعة من الملائكة جاؤوا في صورة بشر إلى إبراهيم يحملون له البشرى بالولد، ويخبرونه بإهلاك قوم لوط، ووصفهم بالمكرمين لأنهم مكرمون عند الله، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ولأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم بنفسه وأحسن ضيافتهم ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي: حين دخلوا عليه في داره ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ بالنصب على المصدرية، أي: نسلّم عليك سلامًا ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ بالرفع على الابتداء، وهو أحسن من تحيتهم وأبلغ؛ لدلالته على الثبوت ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: أنتم قوم منكرون، أي: غرباء غير معروفين ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أي: ذهب إليهم في

سرعة وخُفية من الضيوف ﴿فَجَآءَ﴾ سريعا، كما هو مدلول الفاء ﴿بِعِجْلٍ﴾ وهو ولد البقرة ﴿سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ممتلئٍ لحمًا وشحمًا، وهذا من الزيادة في الإكرام، وفي سورة هود: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود: ٦٩] أي: مشويّ.

قوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا من كمال إكرام الضيف ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ عرض ودعوة إلى الأكل، وفيه ملاطفة وتأنيس للضيف، ولكن أيديهم لم تمتد إلى الطعام ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: وجد في نفسه خوفًا منهم، إذ ظنّ أنهم جاؤوا لشر، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠]، وهذا استنكار ثان غير الأول الذي حصل عند أول دخولهم، ولذا ﴿قَالُوا۟﴾ مؤنسين له ﴿لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي: بشّروه على شيخوخته بولد يولد له من زوجه سارة، وأن هذا الولد سيعيش، وسيكون غزير العلم بالله وبدينه، والجمهور على أن هذا الولد هو إسحاق، وهو ما يدل عليه قوله تعالى في هود: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة لما سمعت من هؤلاء البشارة ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ أي: جاءت صائحة، وهي تقول: يا ويلتى تعجُّبًا ونحو ذلك ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لطمته على عادة النساء عند التعجب أو الجزع ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ﴾ أي: ألد وأنا عجوز عقيم؟! والعجوز هي التي طعنت في الكبر فلا تلد، والعقيم التي لم تلد قط، أي: كيف تلد من اجتمع فيها أمران: العجز المانع من الولادة، والعقم الذي يستحيل معه الحمل؟! ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ﴾ الكاف اسم بمعنى مثل، وهي في محل نصب مفعول مطلق، أي: مثلَ ذلك الذي قلنا وأخبرنا به ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وهو على كل

شيء قدير، وهو سبحانه الذي قضى أن يكون لكِ ولد، فلا يمنع من وجوده سبب عاديٌّ كالكبر والعُقم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الذي يضع الأشياء في مواضعها، فهو تعالى حكيم في أمره وصنعه ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٣٠﴾ بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء.

**الفوائد والأحكام:**

١ ـ الإشارة إلى تقدم الخبر بهذه القصة قبل هذه السورة، وهو ما جاء في سورة هود والحجر، وذلك في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ أي: قد أتاك.

٢ ـ التمهيد بذكر قصة ضيف إبراهيم لذكر عقوبة قوم لوط، وهذا مطَّرد في قصة ضيف إبراهيم في سورة هود والحجر والعنكبوت وفي هذه السورة الذاريات.

٣ ـ أن الملائكة الذين جاؤوا بالبشرى لإبراهيم عليه السلام جاؤوا في صورة أضياف، ولذا سماهم الله ضيفًا.

٤ ـ أنهم ضيف كرامٌ مكرَمون.

٥ ـ أنهم في أنفسهم مستحقون للإكرام، وهم مكرَمون من قِبَل إبراهيم عليه السلام بما قدم لهم من القِرى.

٦ ـ ابتداؤهم عند دخولهم بالسَّلام.

٧ ـ قدرة الملائكة على التمثل بصورة البشر، كما قال تعالى عن جبريل: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾ [مريم: ١٧].

٨ ـ أن المشروع للداخل على أهل الدار ابتداؤهم بالسَّلام.

٩ ـ أن التحية بالسَّلام هي تحية الأنبياء وأتباعهم.

١٠ ـ مشروعية جواب التحية بأحسن منها.

١١ ـ كرم إبراهيم عليه السَّلام.

١٢ ـ إباحة لحم البقر، وأجودُه العِجل.

١٣ ـ مشروعية اختيار الجيِّد من الطعام لقِرى الضيف؛ لقوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾﴾ [هود: ٦٩].

١٤ ـ مشروعية تقريبِ القِرى للضيف، وطلبِ أكلهم منه بطريقة العرض: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

١٥ ـ جواز إظهار الوحشة من الضيف إذا كان منه ما يستغرب.

١٦ ـ جواز الخوف الطبيعي على الأنبياء.

١٧ ـ بيان حقيقة الأمر لإزالة الخوف بسبب الجهل بالحال.

١٨ ـ البشارة بالولد لإبراهيم مع الكِبر، ووصفِه بالعلم.

١٩ ـ فضل العلم.

٢٠ ـ أن الأنبياء بشر فتكون لهم الأزواج والذرية، ففيها:

٢١ ـ الشاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ [الرعد: ٣٨].

٢٢ ـ جواز التعجب من الأمر الخارق للعادة.

٢٣ ـ جواز رفع الصَّوت وصكِّ الوجه تعجبًا لا جزعًا.

٢٤ ـ أن هذه المرأة ـ وهي زوج إبراهيم ـ هي أم إسحاق، وإسحاقُ هو المبشَّر به في هذه القصة.

٢٥ ـ أن هذه المرأة كانت عقيمًا.

٢٦ ـ تثبيت الخبر ورفع الشك عنه بنسبته إلى الله ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾.

٢٧ ـ إثبات الربوبية الخاصة المتضمنة لقدرة الله على خلق الولد مع الكِبَر.

٢٨ ـ إثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما الحكيم والعليم، وما تضمناه من صفة الحكمة والعلم.

قال تعالى:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات ذكر ما بقي من قصة ضيف إبراهيم، وشيئًا من قصة قوم لوط، وفي هذه الآيات سؤال إبراهيم الرسل عن شأنهم الذي جاؤوا له؛ لأنه فهم عليه السلام أن مجيئهم ليست الغاية منه البشرى فحسب، بل جاؤوا لأمر أعظم من ذلك، لهذا قال: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ فأخبروه خبرهم بأنهم مرسلون بإهلاك قوم لوط، كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٥٨ ـ ٦٠].

ثم صار إبراهيم عليه السلام ينافح عن قوم لوط، لأن لوطا عليه السلام وأهله كانوا بينهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُوا۟ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: ٣٢]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٤ ـ ٧٦].

ثم أخبر تعالى في هذه الآيات من سورة الذاريات أنه أخرج من قرى قوم لوط من كان فيها من المؤمنين، وهم لوط وأهله إلا امرأته، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: بيت واحد من المسلمين، ثم أشار تعالى إلى تحقق إهلاك قوم لوط بقوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ﴾ أي: في قرى قوم لوط ﴿ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾، وقد جاءت الإشارة إلى هذه الآية في سورة الحجر والصافات بأنها كانت على الطريق.

## التفسير:

لما علم إبراهيم أن ضيفه من الملائكة حين لم يأكلوا، وحين بشروه بالولد، وأنهم لا يجتمعون هكذا إلا لأمر، لأن البشارة يكفي فيها ملك واحد، كبشارة زكريا ومريم، لما علم بذلك سألهم: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾ أي: ما شأنكم الذي جئتم من أجله أيها الملائكة، والخَطْب أكثر ما يستعمل في الأمور الجليلة الشأن وفي الشدائد، والفاء في ﴿فَمَا﴾ هي الفصيحة التي تفصح عن محذوف، أي: إذا كنتم مرسلين من الله فما خطبكم الذي جئتم له ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ سماهم مرسلين لأن هذا وصف الملائكة، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨١]، وهم هم الذين جاؤوا لإبراهيم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾ أي: جئنا لإهلاك قوم مجرمين، وهم قوم لوط، كما صرح به في قوله: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾ [هود: ٧٠]، وهم الذين وقع منهم الجُرم العظيم، وهو إتيان الذُّكران، مع ما كانوا عليه من الكفر والعصيان، فهم جمعوا بين عدة جرائم، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وكذبوا نبيهم وآذوه في أضيافه.

قوله تعالى: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾ أي: من طين متحجر طبخ بالنار حتى صار كالحجارة في الصلابة، وهو السِّجيل المذكور في سورة هود وغيرها ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعلَّمة من السُّومة وهي العَلامة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: معدَّة عند الله في علمه وحُكمه ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤﴾ أي: المجاوزين الحدَّ في الفجور والعصيان، وذلك بشيوع الفاحشة فيهم، وقد وصف الله قوم لوط بجميع أوصاف الذمِّ من الإسراف والظلم والإجرام والسُّوء والفسق والعدوان والجهل والإفساد في الأعراف وهود والحجر والأنبياء والشعراء والنمل والعنكبوت.

ولما أخبر الله عمَّا وقع بين الملائكة وإبراهيم من الحوار، ذكر ما جرى على لوط وقومه على سبيل الإجمال فقال سبحانه مخبرًا عن نفسه بضمير الجمع الدال على العظمة: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥﴾ أي: أمرناهم بالخروج وبيَّنا لهم الطريق، كما قال سبحانه: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود: ٨١] ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي: من كان في قرى قوم لوط، وهي مفهومة من سياق الكلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾ [النحل: ٦١] أي: الأرض ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥﴾ بالله ورسله، فإيمانهم سبب نجاتهم، وهم لوط وأهلُه إلا امرأتَه، فهؤلاء مؤمنون ظاهرًا وباطنًا.

قوله سبحانه: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: غيرَ أهل بيت، وهذا كناية عن قلتهم ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٣٦﴾ وصف جميع أهل البيت بالإسلام؛ لأن فيهم امرأته وكانت على دين قومها في الباطن، لا يصدق عليها وصف الإيمان، ومعلوم أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا فسِّر الإسلام بالأعمال الظاهرة كالصلاة والصيام، وفسر الإيمان بالأعمال الباطنة كالاعتقادات، كما في حديث جبريل حين سأل الرسول الله ﷺ عن الإسلام قال: «**الإسلام أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان**»، ولما سأله عن الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث**»[1].

قوله سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ أي: في قرى القوم ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامة عظيمة على إهلاكهم ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٣٧﴾ أي: أبقينا فيها عِبرة للذين يخافون عذاب الله الأليم، أي: المؤلم، وذلك أن الله جعل عاليها سالفها وأمطرها حجارة من سجيل، وقد نبَّه الله على هذه الآية في سورة الحجر والصافات؛ إذْ كانت في طريق قريش إلى الشام، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ٧٦﴾ [الحجر: ٧٦]، وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨]، ولا شك أن إبقاء آثار المهلكين أدلُّ على قدرة من أهلكهم.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ التثبت من ذوي الشأن فيما اشتبه وأشكل من أمرهم.

٢ ـ أن من طرق التثبت سؤال أصحاب الشأن.

---

(١) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٣ ـ علم إبراهيم أن ضيفه رسل من الله، إما بإعلامهم إياه، أو بما أخبروه به من أمر البُشرى.

٤ ـ أن الأنبياء لا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه.

٥ ـ أن مما ذمَّ الله به قوم لوط أنهم مجرمون، والمجرم الذي أتى الجُرم، وهو الذنب العظيم، وقوم لوط قد أجرموا بكفرهم، وإتيان الفاحشة.

٦ ـ أن مما عُذب به قوم لوط إرسال الحجارة عليهم، وقد ثُنِّي هذا المعنى في قصة قوم لوط، في الأعراف وهود والحجر والنمل والعنكبوت والقمر.

٧ ـ أن هذا النوع من العذاب معدٌّ لكل مسرف، وأن هذه الحجارة معلَّمة بعلامات تميزها.

٨ ـ نجاة لوط وأهله إلا امرأته، وما في هذه الآية من الإجمال والإبهام مبيَّن في أكثر السور التي وردت فيها قصة قوم لوط، وصُرح فيها باستثناء امرأته من النجاة، وهي: الأعراف وهود والحجر والشعراء والنمل والعنكبوت، كقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٣].

٩ ـ أن الإيمان يستلزم النجاة دون الإسلام؛ لأن الإيمان يستلزم الإسلام، والإسلام الظاهر لا يستلزم الإيمان، كإسلام المنافق. وامرأة لوط كانت من أهل البيت، ولم تكن من الناجين؛ لأنها كانت مسلمة في الظاهر، ومع قومها في الباطن، فهي منافقة.

١٠ ـ الفرق بين الإيمان والإسلام، وأن الإيمان أخصُّ بالباطن، والإسلام أخصُّ بالظاهر.

١١ ـ أن الله يترك آثار ما حلَّ من العقوبات بالمكذبين، لتكون آية على صدق رسله، وما أخبرت به من البعث والجزاء.

١٢ ـ أن صلة القرابة والصهر في النبي والعبد الصالح لا تنفع في النجاة من عذاب الله.

١٣ ـ أن المنتفعين بهذه الآيات هم الذين يخافون عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: ١٠٣]، ونظيرة آية الذاريات قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥].

١٤ ـ إثبات الجزاء على الأعمال.

ثم ذكر الله طائفة من قصص الأنبياء بإجمال لما فيها من الدلالة على كمال قدرته تعالى وسوء عاقبة المكذبين زجرًا لأمثالهم من كفار قريش المخاطبين في هذه السورة، فقال سبحانه:

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

لما ذكر تعالى أنه ترك في قصة قوم لوط أو قريتهم آيةً يتذكر بها من يخاف العذاب الأليم، أخبر سبحانه أنه ترك مثل ذلك آيات في

قصص أنبياء وأقوامهم، قبل لوط وقومه، دون تفصيل لقصصهم؛ وذلك من قبيل الاستطراد، لأن تلك القصص فصلت في آيات أخرى كثيرة، فقال تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾، أي: وتركنا في قصة موسى آية للذين يخافون العذاب الأليم، وقال مثل ذلك في عاد وثمود، واقتصر في الخبر عن هذه الأمم على ذكر ما أحلَّ الله بهم من العقوبات لأنها محلُّ العبرة، ومبعث الخوف من عذاب الله.

## التفسير:

قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ أي: وجعلنا في موسى وقصته آيةً يتعظ بها من يخاف عذاب الله ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾ أي: حين أرسلناه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي: بحجة ظاهرة وبرهان واضح، وهي العصا وإخراج يده بيضاء، كما قال تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢]، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فأعرض عن الإيمان بسبب ما يركن إليه من أعوانه وجنوده الذين يتقوى بهم، سُمُّوا ركنًا لأنهم له كالركن الذي يعتمد عليه البناء ﴿وَقَالَ﴾ أي: وقال عن موسى تحقيرًا له، وتحذيرًا لقومه منه ﴿سَٰحِرٌ﴾ لأنه جاء بالخوارق ﴿أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ لأنه ادَّعى أنه مرسلٌ من الله، والفرق بينهما أن الساحر يقصد الجن ويأتيهم باختياره، بخلاف المجنون فإن الجنَّ يأتونه من غير مشيئته واختياره، فـ ﴿أَوْ﴾ على هذا للشك من فرعون، ويحتمل أن تكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو، فيكون قالهما جميعًا، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الشعراء: ٣٤]، وقال في موضع آخر: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧]، وإنما قال ذلك تلبيسًا على قومه؛ لأنه يعلم صدق موسى، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

قوله: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾ أي: أخْذ غضب وقهر ﴿وَجُنُودَهُۥ﴾ الذين اعتز بهم ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي: طرحناهم في البحر ﴿وَهُوَ﴾ أي: والحال أن فرعون ﴿مُلِيمٞ ٤٠﴾ أي: فاعلٌ ما يلام عليه من الكفر والطغيان، يقال: ألامَ الرجلُ، أي: فعَل ما يستحق عليه اللوم، وفي الآية إشارة إلى إذلال الله الجبابرة والمستكبرين.

قوله سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أي: وجعلنا في قصة عادٍ كذلكَ آيةً عظيمة لكل ذي لبٍّ ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١﴾ أي: التي لا خير فيها، فلا تحمل مطرًا، ولا تلقح شجرًا، تشبيهًا لها بالمرأة التي لا تحمل ولا تلد، فهي الريح الصَّرصَر العاتية التي تدمر كل شيء تمر به في طريقها، ولهذا قال سبحانه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: ما تترك شيئًا من نفس أو مال، و﴿مِن﴾ حرف يدل على النصِّ على عموم ما بعده ﴿أَتَتۡ عَلَيۡهِ﴾ في طريقها ﴿إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢﴾ أي: كالشيء البالي المتفتت، وهذا العموم في تدمير الريح لكل شيء، هو عموم مخصوص فيما أذن الله للريح أن تهلكه.

قوله سبحانه: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي: وجعلنا في قصة ثمود آيةً عظيمة ﴿إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ٤٣﴾ بعد تكذيبهم لنبيهم، وعقرهم الناقة التي كانت لهم آية، والأمر في ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ للتهديد، أي: انتظروا فسيوافيكم العذاب، وهذا التمتع مدته ثلاثة أيام، كما جاء في قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾ [هود: ٦٥].

قوله تعالى: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: استكبروا عن طاعة الله، وعُدِّي الفعل ﴿عَتَوا﴾ بـ ﴿عَنۡ﴾ لتضمنه معنى أعرضوا، وفي إضافة الربوبية إليهم مزيد توبيخ لهم؛ إذْ قابلوا إحسان مولاهم بالكفر به ومعصية رسله ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: صاعقة العذاب، وهي الصيحة

المهلكة لهم جميعًا ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: والحال أنهم ينظرون الصاعقة عِيانًا بأبصارهم، وينظر بعضهم إلى بعض وهم يموتون، وذلك أشد في العذاب، وكان هذا نهارًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر: ٨٣].

قوله سبحانه: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ أي: ما قدروا على نهوض ولا هرب، بل ظلُّوا جاثمين على الأرض، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٧]، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: ما كانوا ممتنعين منَّا حين نزل بهم العذاب، فلا قوةَ لهم في أنفسهم، ولا ناصرَ لهم يدفع عنهم العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ قومَ منصوب بفعل محذوف دلَّ عليه ما قبله، أي: وأهلكنا قومَ نوح ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إهلاك الأقوام المذكورين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: عاصين بكفرهم وتكذيبهم لنبيهم، وأصل الفسق هو الخروج، يقال: فسَقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، فاستُعمل الفسق مجازًا في التجاوز، أي: بمعنى الخروج عن طاعة الله.

وفي ذكر هذه القصص الواعظة عبرةٌ لأولي الألباب، الذين يخافون يوم المعاد، وفيها تهديد لكل من كذَّب الله وعصى رسله، كأهل مكة، فليس ببعيد أن يصيبه ما أصاب أولئك، فيهلك كما هلكوا، فليس بخير منهم، ولا ينجي من عذاب الله نسب ولا سبب إلا ما جعله الله سببًا من الإيمان به وطاعة رسله، كما قال سبحانه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٤٣].

### الفوائد والأحكام:

١ ـ التناسب في ذكر هذه الأمم، ويظهر ذلك بأمور:

**الأول**: البداءة بالإشارة إلى قصة موسى؛ لأنها تُذكر في مثل هذا

السياق الذي يقتصر فيه على ذكر عقوبات هذه الأمم، بعد قصة قوم لوط، كما في سورة القمر.

**الثاني**: الاقتران في الذكر بين عاد وفرعون وجنوده، كما في سورة ﴿ص﴾ و﴿ق﴾ والحاقة.

**الثالث**: التشابه في العقوبة بين أول المذكورين وآخرهم، وهم فرعون وقومه وقوم نوح، حيث أهلكوا جميعًا بالغرق، مع أن ترتيبهم في الزمان عكس ترتيبهم في الذكر في الآيات.

٢ ـ أن موسى عليه السلام أوتي من الحجة القاطعة على فرعون وقومه، مالم يكن لمن قبله من الرسل، ولهذا سمَّى الله حجته سلطانًا مبينًا، في خمسة مواضع، في سورة النساء وهود والمؤمنون وغافر وهذه السورة الذاريات، ولم يذكر ذلك لنبيٍّ غيره، وإن كان كلُّ نبي أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر.

٣ ـ أن فرعون وقومه أهلكوا بالغرق في البحر.

٤ ـ الرد على من يزعم من ملاحدة الصوفية أن فرعون مات مؤمنا؛ احتجاجًا بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ﴾ الآية [يونس: ٩٠]، وجه الرد قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ ۝٤٠﴾ أي: فاعلٌ ما يلام عليه، والله تعالى لا يذمُّ عاصيا بعد توبته، ولا كافرًا بعد إسلامه.

٥ ـ أن عادا أهلكوا بالريح العقيم.

٦ ـ أن الريح مرسلة بأمر الله بالرحمة أو بالعذاب، كما قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

٧ ـ أن الوارد في القرآن أن ريح العذاب تذكر بلفظ الإفراد، والمرسلة بالرحمة تذكر بالجمع، وهذا مطَّرد في القرآن على قراءة

الجمهور. ويشهد لهذا الحديثُ المروي: أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا هبَّت الريح: **«اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا»**[(١)].

٨ ـ أن الريح المرسلة إلى عاد ليس فيها شيء من الخير، بل كلُّها عذاب وتدمير.

٩ ـ أن ثمود أهلكوا بالصاعقة.

١٠ ـ أن إتيان العذاب جهرةً أشدُّ وقعًا بالمعذَّبين؛ لأنهم يعاينون الهول من بداياته، وينظر بعضهم إلى بعض وهم يتساقطون صرعى، لقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

١١ ـ أن ثمود حين أخذتهم الصاعقة سقطوا على الأرض، ولم يستطيعوا قيامًا، وقبل أخذ الصاعقة لم يكونوا قادرين على الانتصار بما يدفعها عنهم.

١٢ ـ أن قوم نوح أهلكوا، ولم يصرح هنا بما أهلكوا به، وصرح به في آيات أخرى، وهو الغرق، كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ [نوح: ٢٥].

١٣ ـ أن سبب هلاك قوم نوح بالغرق هو فسقهم، وهو خروجهم عن طاعة الله وطاعة نبيهم عليه السلام، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، ويفسرها قوله سبحانه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٢٤٥٦) والطبراني في الكبير (١١٥٣٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الهيثمي في المجمع (١٠/١٣٦): «فيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك، وقد وثّقه حصين بن نمير، وبقية رجاله رجال الصحيح».

ولما أخبر الله عن إهلاكه الأمم المكذبة العاتية، وذلك دالٌّ على قدرته وشدة بطشه، ذكر الأدلة على ربوبيته تعالى وكمال قدرته ورحمته، فقال سبحانه:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات تنبيه العباد على بعض آيات الله الكونية في السماء والأرض، هذه في علوها وسعتها، وهذه في قرارها وبسطها فراشًا وخلْقِ الأزواج فيها ليتذكر العباد بذلك كمال قدرته تعالى وحكمته ورحمته، فيعلموا بذلك أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا ملجأ منه إلا إليه، وأنه المستحق للعبادة وحده، لذلك أمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾﴾.

## التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ بالنصب على الاشتغال ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ أي: رفعناها وجعلناها سقفًا محفوظًا كالبناء، كما قال: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٨]، وقال: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴿١٢﴾﴾ [النبأ: ١٢]، ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ أي: بقوة عظيمة، مصدر آدَ يئيد، بوزن باع يبيع ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لقادرون على خلقها وخلق ما هو أعظم منها، يقال: أوسعَ الرجلُ إذا صار ذا سعة وقدرة، ومنه: ﴿عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٦]، فالفعل لازم، كقولهم: أورق الشجر، ويحتمل أن يكون متعديًا

والمفعول محذوف، المعنى: لموسعون أرجاءها وأنحاءها، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين. ومناسبة ذكر هذا الوصف ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ هو ذكر السماء المعلومِ سعتُها.

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها فراشًا، أي: مهّدناها للسالكين وبسطناها، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ [نوح: ١٩]، وقال: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ [الغاشية: ٢٠]، فهي مستقرة صالحة للسُّكنى والسير عليها، وهذا لا ينافي كونها كرويَّة؛ لأنها واسعة وسطحها مختلف ارتفاعًا وانخفاضًا ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ نِعْم: فعل ماض لإنشاء المدح، معناه: بلغ الغاية في الخير والفضل والإحسان، أي: فنعم الباسطون للأرض نحن، فالمخصوص بالمدح هو الله، وحذف للعلم به، وصيغة الجمع في ﴿ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ للتعظيم، وخصَّ الله السماوات والأرض بالذكر لأنهما أعظم شيء في الوجود مما نشاهده.

قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ من أجناس الموجودات من الحيوانات والنباتات وغيرها ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: صنفين متقابلين كالذكر والأنثى، والليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والأرض، والحياة والموت، والإيمان والكفر، كما جاء عن مجاهد[1]، ويشهد له أن الله ذكر هذه المتقابلات في عدد من الآيات، كما في سورة الشمس، وكما في سورة فاطر في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢].

قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ أي: فعلنا ذلك كله من بناء

---

(١) رواه ابن جرير (٢١/٥٤٧).

السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج لكي تتذكروا قدرة الله وعظمته، ولتعلموا أن خالق الأزواج واحد، فتؤمنوا به إلهًا واحدًا.

قوله سبحانه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ الفاء للتفريع على ما مضى من التهديد والوعظ والإرشاد، أي: إذا علمتم أنه تعالى الإله المعبود الحق ففروا إليه من كل ما تحذرون، أي: الجؤوا إليه، وأفردوه بالعبادة والطاعة، وهذا مما أمر النبي ﷺ أن يقوله لهم، أي: قل لهم: فِرُّوا إلى الله، بدليل قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من الله ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ أي: منذر بيِّن النِّذارة بتأييد الله لي بالمعجزات، من (أبان) اللازم الذي هو بمعنى (بان)، ويصلح أن يكون من أبان المتعدي، فيكون المعنى: نذير مبينٌ لكم كلَّ ما أرسلت به من الأوامر والنواهي، ومخوِّف لكم من عقابه، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ أي: فتعبدوه مع الله، وذلك هو الشرك، وهو أعظم ما يجب الفرار منه، وكرر قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ تأكيدًا لهذا الأمر، وزيادة تقرير له، وحرصًا على هدايتهم، ومثل هذه الآية ما جاء في قوله ﷺ: «**مثلي ومثل ما بعثني الله كمثل رجل أتى قومًا فقال: رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان؛ فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم**»[1].

## الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من آيات الله العظيمة بناءَ السماء، أي: السماوات فوق العباد، وسعتَها.

---

(١) رواه البخاري (٦١١٧) ومسلم (٢٢٨٣) عن أبي موسى رضي الله عنه.

٢ ـ أن مما يضاف إلى الله من الأفعال: البناء، وقد تكرر هذا في شأن السماء، كقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾ [الشمس: ٥].

٣ ـ أن السماء مخلوقة محدثة ليست قديمة، ففيه:

٤ ـ الرد على الفلاسفة لقولهم بقدم العالم.

٥ ـ إثبات صفة القوة لله تعالى؛ لقوله: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ أي: بقوة.

٦ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع مظهرًا ومضمرًا.

٧ ـ أن الله هو الموسِع للسماء.

٨ ـ أن من آيات الله بسطَ الأرض ومهْدَها لتيسير المعاش عليها.

٩ ـ جواز مدح الرب بـ ﴿نعم﴾.

١٠ ـ أن من أفعال الله الفَرْش والمهْد، وقد جاء هذا في شأن الأرض.

١١ ـ أن الله خلق من كل شيء زوجين.

١٢ ـ في قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ رد على الفلاسفة في قولهم: لا يصدر عن الواحد إلا واحد.

١٣ ـ حثُّ العباد على التفكر في المخلوقات والتذكر؛ لما فيها من الآيات والدلالات.

١٤ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾.

١٥ ـ أنه لا مفرَّ من جميع المخاوف إلا إلى الله.

١٦ ـ أن سبيل النجاة من عذاب الله الفرار إلى الله، فلا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه.

١٧ ـ أن الرسول ﷺ نذير للناس من عذاب الله، مرسلٌ من الله بالنِّذارة من العذاب وأعظم أسبابه، وهو الشرك.

١٨ ـ أن أخطر الذنوب على العبد الشرك بالله.

١٩ ـ أن الرسول ﷺ مرسل من الله بالنِّذارة من الشرك.

٢٠ ـ أن من وظيفته ﷺ البيانَ للناس.

٢١ ـ أنه ﷺ نذير بيِّنُ النِّذارة.

وبعد قصِّ القصص وتقرير الدلائل سلَّى الله رسوله ﷺ بالخبر عمَّا قالته الأمم الماضية لرسلهم ليتأسى بهم في الصبر بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

### المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات أربعة أمور:

**أحدها**: الخبر من الله بتشابه أقوال الأمم المكذبة للرسل لتشابه قلوبهم، فكلٌّ يقول لرسوله: ساحر أو مجنون، كما قال كفار قريش للنبي ﷺ، وكما قال فرعون لموسى، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ.

**الثاني**: التعجب من هذا التشابه حتى كأنهم تواصوا به.

**الثالث**: أمر الله لنبيه ﷺ بالإعراض عن أولئك الكافرين به، وإعلامه أنه لا لوم عليه في ذلك.

**الرابع**: أمر الله لنبيه بالتذكير، وإعلامه أن المنتفعين بالذكرى هم المؤمنون.

**التفسير:**

قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتشبيه بمعنى مثل، أي: مثلَ قول هؤلاء الكفار لك: ساحرٌ أو مجنونٌ قالت كل أمة لرسولها، فلك أسوة بالأنبياء قبلك، فقد كذبتهم أقوامهم ورموهم بالسحر والجنون، فلا تأس على تكذيبهم، و﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ للتنصيص على عموم النفي.

قوله سبحانه: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ أي: هل تواصوا بهذا القول، بأن عهد به أولهم إلى آخرهم فتواطؤوا عليه، وقالوه جميعًا، وهذا استفهام بمعنى التوبيخ والتعجيب، فالله يعجَب من حالهم، ويعجِّب العباد، أي: اعجبوا - أيها الناس - من حالهم، وجاءت الآية على أسلوب الاستفهام المجازي؛ لأنه لم يكن هناك تواصٍ، وإنما هي عادة الطغاة والمكذبين أنهم إذا شاهدوا المعجزة وأُفحموا لبَّسوا على العامة ليصرفوهم عن الإيمان، ولهذا قال سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ أي: لم يجمعهم التواصي على هذا القول، بل الجامع لهم هو الطغيان والتكذيب والعصيان، تشابهت بذلك قلوبهم فتشابهت ألسنتهم، وهذا أقبح من التواصي، ولهذا قال سبحانه لنبيه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن إنذارهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾ أي: لا لوم عليك ولا عتاب؛ لأنك بلَّغت الرسالة ﴿وَذَكِّرْ﴾ أي: دُم على التذكير والوعظ ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: التذكير ﴿تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ أي: تزيدهم إيمانًا وثباتًا على الحق.

### الفوائد والأحكام:

١ ـ تسلية الله لنبيه ﷺ وتصبيرُه على أذى قومه.

٢ ـ أن مما يعين على الصبر الأسوةَ الحسنة بالصابرين.

٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

٥ ـ التعجب من تشابه أقوال المكذبين.

٦ ـ أن الحامل للمكذبين للرسل هو الطغيان الذي هو وصفهم، وهو السبب في تشابه أقوالهم.

٧ ـ الندب إلى الإعراض عمَّن لم تُجْدِ فيه الدعوة.

٨ ـ أن الرسول ﷺ غير مسؤول ولا ملوم على تكذيب المكذبين.

٩ ـ في الآيات شاهد لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

١٠ ـ وجوب التذكير على الرسول ﷺ، وبه البلاغ.

١١ ـ أن الذكرى تنفع المؤمنين بالله ورسوله؛ لأنهم يقبلونها ويعملون بها، ولهذا خُصُّوا بالذكر بالانتفاع بالقرآن؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

١٢ ـ أن الإيمان هو سبب الانتفاع بالذكرى، وكلما كان الإيمان أكمل كان الانتفاع أعظم.

لما أمر الله نبيه بالتذكير بيَّن سبحانه ما أوجب هذا الأمر، وهو أنه ما خلق الثَّقلين إلا لعبادته؛ فقال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

### المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى عن حكمته من خلق الثقلين الجن والإنس، وهي أنه خلقهم ليعبدوه، ما خلقهم ليرزقوه أو يطعموه؛ لأنه تعالى هو الرزَّاق القوي المتين، ثم أخبر أن للظالمين الحاضرين من العذاب نصيبًا مثل نصيب أشباههم الماضين، وهذا النصيب آت لا محالة، فلا ينبغي لهم أن يستعجلوا الله أن يأتيهم به، فللظالمين يومٌ ينزل بهم فيه عذاب الله، فلينتظروا ذلك اليوم.

### التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: لم أخلقهم إلا لأجل عبادتي وحدي لا يشركون بي شيئًا، فاللام في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ لام العلة وليست لام العاقبة، لأنها لو كانت كذلك للزم أن يكون الخلق كلُّهم عابدين، فاللام هي لام العلة المتضمنة للإرادة الشرعية، وتقديم الجن لأنهم مخلوقون قبل الإنس، وفي الآية التعريض بتلك الأمم المكذبة الذين ذكروا في السورة، وذمُّهم حيث تنكبوا عن الطريق المستقيم وكفروا بالله.

قوله سبحانه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ أي:

لا أريد منهم أن يرزقوني، ولا أن يطعموني، كما هو شأن السادة مع عبيدهم في الدنيا، فهو تعالى غنيٌّ عن خلقه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في أرزاقهم وطعامهم، كما قال سبحانه: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وخصَّ الطعام بالذكر لأنه أهم المنافع المطلوبة من المملوك، ونفي الأهم يستلزم نفي ما دونه. وفي الآية تعريض بآلهتهم الباطلة التي يعبدونها، وهم يقومون على خدمتها وإعالتها وحمايتها، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝٧٥﴾ [يس: ٧٤ - ٧٥]، فهي أوثان وحجارة، لا تملك لأنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًّا.

ثم بيَّن سبحانه أنه هو الذي يرزق عباده، وهو القوي الغني، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ أي: إن الله وحده هو الذي يرزق جميع خلقه، والرزَّاق صيغة مبالغة تدل على كثرة الرِّزق، وعلى كثرة المرزوقين، فرزقه تعالى كثير لا حدود له، ونعمه على جميع المخلوقات لا تحصى، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: صاحب القوة التي لا يعروها ضعف، و﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ أبلغ من القويِّ؛ لأن ﴿ذُو﴾ تدل على تعظيم ما أضيفت إليه، ولذا قال بعدها: ﴿ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ أي: شديد القوة، فهو تأكيد لما قبله.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي فاستحقوا العذاب ﴿ذَنُوبًا﴾ أي: نصيبًا وافرًا من العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ﴾ أي: نصيب ﴿أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي: نظرائهم من الكفار السالفين، وهذا تهديد ووعيد للكافرين، وأصل الذَّنوب هي الدلو العظيمة الممتلئة ماءً، عبَّر عن النصيب بالذَّنوب تشبيهًا لقسط كل واحد من العذاب بذَنوب السقاة؛

فإنهم يجتمعون على البئر فيرسلون دلاءهم فيها، فيستقي هذا حظه ونصيبه، وهذا حظه ونصيبه، فسمي الحظ والنصيب ذَنُوبًا على الاستعارة، وفيه إشارة إلى أن العذاب سيصب عليهم صبًّا، كما قال سبحانه: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: ١٩]، ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾ النون المثبتة هنا نون الوقاية، وحذفت ياء المتكلم للفاصلة، والأصل: فلا يستعجلوني، أي: فلا يطلبوا مني التعجيل بالعذاب قبل أوانه؛ فإنه واقع بهم لا محالة، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: فهلاك ودمار لهم، والذين كفروا هم الذين ظلموا، عبَّر عنهم بذلك لأن الكفر أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قوله: ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾ أي يوم القيامة ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ فيه بالعذاب، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: ٤٤]، وأضاف اليوم إليهم لاختصاصهم فيه بالعذاب، كما أضيف اليوم إلى المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣] لأنهم المنتفعون به، فهؤلاء يوعدون بالثواب، وأولئك بالعذاب، وفي قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ تناسب ظاهر بين آخر السورة وأولها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾ [الذاريات: ٥]، فيقال: ختمت السورة بمثل ما بدئت به من الخبر عن اليوم الموعود.

### الأحكام والفوائد:

١ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى؛ لقوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

٢ ـ ذكر الحكمة في خلق الجن والإنس، وهي عبادتهم لله وحده.

٣ ـ حصر الحكمة في ذلك.

٤ ـ كمال غناه تعالى عن خلقه.

٥ ـ تنزيهه تعالى عن الحاجة إلى العباد.

٦ ـ إثبات الإرادة لله.

٧ ـ أن من أسماء الله: الرزَّاق.

٨ ـ أن من أسماء الله: المتين، أي: شديد القوة.

٩ ـ إثبات صفة القوة لله، وأنه شديد القوة.

١٠ ـ أن لكل ظالم نصيبًا من جزاء الله للظالمين.

١١ ـ أن سنته تعالى التسويةُ بين الظالمين في الجزاء.

١٢ ـ أن من حكمته تعالى التسوية بين المتماثلات، والفرق بين المختلفات.

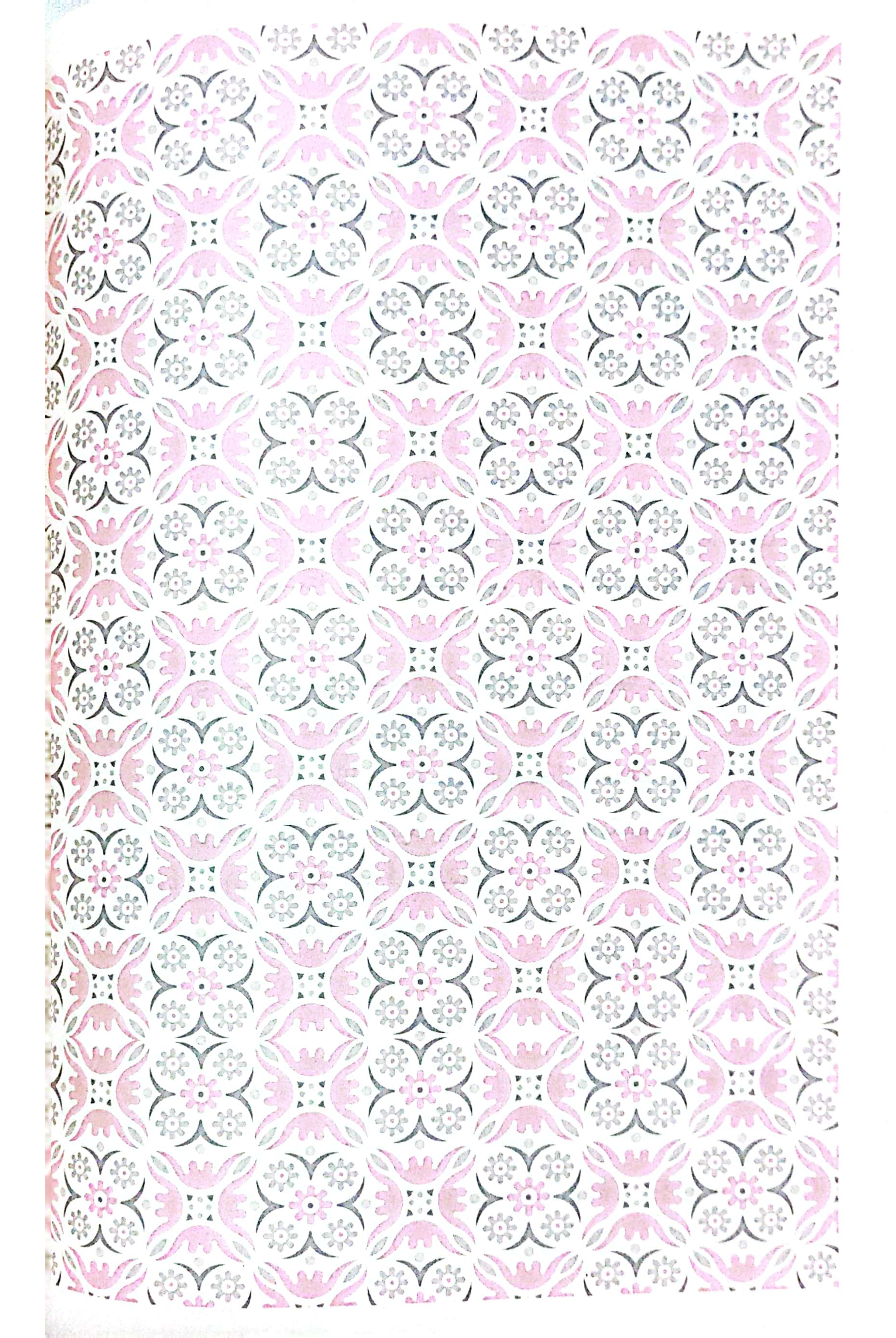
١٣ ـ أن للشيء حكم نظيره شرعًا وقدرًا، ففيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢].

١٤ ـ أن من جهل الظالمين وسفههم استعجالهم عذاب الله.

١٥ ـ أن للكافرين يومًا موعودًا يرون ما كانوا به يكذبون، وهو يوم القيامة أو يوم نزول العذاب بهم في الدنيا.

١٦ ـ إثبات المعاد والجزاء.



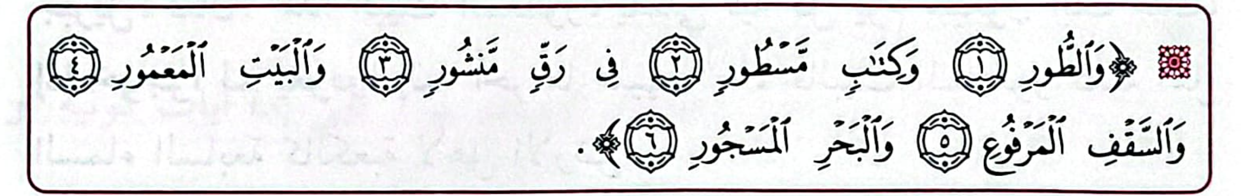




# تفسير سورة الطور

هذه السورة مكية، وعدد آياتها تسع وأربعون، وقد افتتحت السورة بالقَسم من الله بخمسة أشياء على وقوع العذاب بالمكذبين، وحصول الثواب للمتقين، مع شيء من التفصيل، وختمت بأمر النبي ﷺ بالتذكير، وبالصبر لحكم الله، وبالتسبيح الذي يعين على الصبر، ويهوِّن عليه ما يقول له المشركون، وتخلَّل ذلك التوبيخ للمشركين والتحدي لهم بهذا القرآن.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾.

تضمَّنت الآيات القسم من الله بهذه المذكورات: الطور، والكتاب، والبيت، والسقف والبحر، وهذه الأشياء منها ما هو مخلوق، وهو الطور، والسقف، والبيت، والبحر. ومنها ما ليس بمخلوق، وهو الكتاب المسطور؛ لأنه القرآن، وهو كلامه تعالى.

**التفسير:**

قوله سبحانه: ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ هذا قسم من الله تعالى، أي: أقسم بالطور، وهو جبل في الجنوب الغربي من سيناء، وسيناء ـ بفتح السين وكسرها ـ صحراء بين مصر وفلسطين، يقال: طُور سيناء وطُور سِينين، كلَّم الله عنده موسى، وهو تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما العباد

فليس لهم أن يقسموا إلا بالله؛ لأن القَسَم يتضمن تعظيم المقسَم به، وليس للعبد أن يعظِّم أحدًا بالقَسَم به إلا اللهَ تعالى ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ۝٢﴾ أي: وأقسم بالكتاب المسطور، وهو القرآن الكريم المكتوب سطورا، وتنكير (كتاب) لتعظيمه ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣﴾ متعلق بمسطور، أي: مكتوب في رَقٍّ ـ بفتح الراء ـ وهو الجلد الذي يكتب عليه قديما، ثم صار اسمًا لكل ما يكتب عليه ﴿مَّنشُورٖ ۝٣﴾ أي: مفتوح ميسر للقراءة غير مطويٍّ، والقَسم بالكتاب حال نشره قَسم به في أشرف أحواله؛ لنيل الأجر بقراءته، ولحصول الهداية بقراءته.

قوله سبحانه: ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤﴾ أي: وأقسم بالبيت المعمور، وهو المعمور بالملائكة الكرام من الطائفين والقائمين والركع السجود، وهو في السماء السابعة بإزاء الكعبة لو سقط سقط عليها، وفي حديث الإسراء حين عرج بالنبي ﷺ قال: «**فرفع لي البيت المعمور فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كلَّ يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم**»[1]، فالبيت المعمور كعبة أهل السماء السابعة كالكعبة لأهل الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ أي: وأقسم بالسقف المرفوع، وهو السماء، فإن السماء بمنزلة السقف للأرض، ومرفوعة فوق كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾ أي: وأقسم بالبحر المسجور، أي: المملوء ماءً، والمراد الجنس أي: جميع البحور في الأرض. وخصَّ الله القسم بهذه المذكورات لمعان تختص بكل واحد منها؛ من تشريف وتعظيم أو دلالة على قدرته تعالى ورحمته وحكمته.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٣٥) ومسلم (١٦٤) عن أنس رضي الله عنه.

**الفوائد والأحكام:**

١ ـ فضل جبل طُور سِيناء، وهو طُور سِينين، وهو الذي كلَّم الله عنده موسى عليه السلام.

٢ ـ فضل القرآن على غيره من كتب الله؛ إذْ أقسم الله به بلفظ الكتاب ولفظ القرآن، وقد أقسم به تعالى في عدد من فواتح السور، هي: يس، وص، والزخرف، والدخان، وق، وهذه السورة.

٣ ـ أن القرآن مكتوب في اللوح، وفي صحف الملائكة وفي مصاحف المؤمنين، ولذلك سمي كتابا، وكتاب بمعنى مكتوب.

٤ ـ فضل البيت المعمور الذي تطوف به الملائكة.

٥ ـ أن من أعظم آيات الله المشهودة: السماء المرفوعة المحفوظة.

٦ ـ أن من آيات الله العظيمة المشهودة: البحر الممنوع من أن يفيض على اليابس من الأرض.

٧ ـ التناسب بين هذه الأشياء المقسَم بها؛ فهي إما آيات كونية أو آيات شرعية، وكلها تهدي إلى الحق في معرفة الله.

٨ ـ أن الله يقسم بما شاء من خلقه، ويقسم ببعض صفاته.

***

وبعد أن أقسم الله بما تقدم ذكر المقسَم عليه فقال سبحانه:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ (٧) مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)﴾.

### المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات جواب القسَم بالخبر عن وقوع عذاب الله ووقته وذكر المستحقين له، وما يحصل لهم من تقريع وتوبيخ عند دفعهم إلى النار، وبيان أن ما حصل لهم من العذاب ما هو إلا جزاء أعمالهم.

### التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ للكافرين ﴿لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ أي: لنازل ومحيط بهم، والمراد عذاب يوم القيامة، والجملة مؤكَّدة بعدة مؤكدات، وهي: إن واللام واسمية الجملة؛ لبيان وقوع العذاب لا محالة، وإضافة العذاب إلى الرب لتغليظه وشدته، وإضافةُ الربوبية لضمير الرسول ﷺ لتسليته ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ أي: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا نزل بهم، ولا مانع يمنعه قبل نزوله، و﴿مِن﴾ زائدة للتنصيص على عموم النفي وشموله، أي: نفي جنس الدافع أي: ليس له دافع مطلقًا، وفي الآية إثبات للبعث الذي يكذب به الكفار، وتهديد لهم إن لم يؤمنوا، فهذا العذاب واقعٌ.

قوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرًا ۝٩﴾ هذا متعلق بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ أي: يقع العذاب يوم تمور السماء، أي: يوم تتحرك وتضطرب اضطرابًا شديدًا، ويختلُّ نظامها، كما أنها تنشق ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرًا ۝١٠﴾ أي: تذهب عن أماكنها، وتَسِير كسير السحاب، قبل نسفها، والتأكيد بالمصدرين في قوله: ﴿مَوۡرًا ۝٩﴾ و﴿سَيۡرًا ۝١٠﴾ لبيان أن ذلك واقع حقيقة لا مجازًا، وذلك كله كناية عن خراب هذا العالم وانتهاء الحياة الدنيا وانقطاع آمال الكفار، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَوَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ أي: إذا كان ما ذكر فهلاكٌ وخسارٌ في هذا اليوم للكافرين المكذبين بالبعث ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٍ يَلۡعَبُونَ ۝١٢﴾ أي:

الذين هم في الدنيا يخوضون في الباطل ويلهون به، لا يرجون حسابًا ولا يخافون عقابًا.

قوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ﴾ يومَ بدل من ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ أي: يومَ يدفعون، تدفعهم ملائكة العذاب ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ أي: دفعًا عنيفًا بمهانة وذلٍّ، ويقال لهم على سبيل التقريع: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: تكذبون بها في الدنيا ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتهكم بهم، أي: هل هذا العذاب الذي تشاهدونه بأعينكم سحر، كما كنتم تقولون عنه في الدنيا ﴿أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: عُميٌ لا ترون بأعينكم ما هو حاضر بين أيديكم، وهذا على سبيل التهكم، وإلا فهم يبصرون أكمل إبصار، كما قال سبحانه: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢].

قوله سبحانه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ أي: ادخلوا جهنم وذوقوا حرَّها ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ على معاناة حرِّها ﴿أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ هذا بيان لعدم خلاصهم من النار، وهو توبيخ لهم آخر ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي: سواء عليكم صبرُكم وعدمه، فهذا كله لا ينفعكم في الخروج من النار ولا في التخفيف من عذابها، فإن المعروف في الدنيا أن من صبر على البلاء فلا بد أن يظفر إما بالخروج منه أو بأن يمدح على صبره وجلَده، وليس كذلك عذاب الآخرة، ولهذا جيء بـ (على) في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ إشعارًا بالضرر؛ فإن صبرهم وعدمه كليهما ضررٌ عليهم ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ هذا تعليل لما ذكر من عذابهم وليس تعليلًا للصبر ولا لعدمه، أي: إنما تنالون جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من الكفر والتكذيب، وهذا كلُّه إخبار عمَّا سيقع يوم القيامة ووصف له تهديدًا للكافرين وتخويفًا للمؤمنين.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ أن عذاب الله واقع بالمكذبين لا محالة.

٢ ـ أنه لا دافع له عنهم.

٣ ـ أن وقوع العذاب يكون يوم القيامة.

٤ ـ أن يوم القيامة هو اليوم الذي تضطرب فيه السماء وتُسَيَّر فيه الجبال.

٥ ـ أن الجبال تزول عن أماكنها في ذلك اليوم؛ فإنها تُسَيَّر فتسير.

٦ ـ فساد نظام هذا العالم عند قيام القيامة.

٧ ـ الرد على الفلاسفة في قولهم: إن الأفلاك قديمة دائمة لا تتغير.

٨ ـ وعيد الله للمكذبين.

٩ ـ أن من أسباب وعيدهم اللهوَ في الخوض في الباطل.

١٠ ـ أن المكذبين إذا رأوا النار يُدفعون إليها دفعًا.

١١ ـ توبيخهم في هذا الموقف العصيب.

١٢ ـ في الآيات شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود: ٧].

١٣ ـ أن عذاب النار يستوي فيه من يصبر ومن لا يصبر.

١٤ ـ أنه لا خلاص لهم من العذاب.

١٥ ـ أن ما أصابهم هو جزاءُ أعمالهم.

١٦ ـ إثبات البعث والجزاء.

* * *

ولما ذكر جزاء الكفار الأشقياء؛ ذكر جزاء المؤمنين السعداء على عادة القرآن في قرن الوعد بالوعيد والبشارة بالنذارة، وهذا من تصريف

آيات القرآن، حثًّا على الإيمان والعمل الصالح، وزجرًا عن الكفر والعصيان؛ فإن مِن الناس مَن يؤثر فيه الوعيد أكثر من الوعد، ومنهم مَن هو على الضد من ذلك، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى في هذه الآيات عمَّا أعده لأوليائه المتقين من الجنات والنعيم، وما منَّ عليهم به من وقاية عذاب الجحيم، وما آتاهم من أصناف النعيم من المآكل والمشارب والمناكح، وهذا من فضله العظيم، ثم يخبر تعالى بأن الذين اتبعتهم ذريتهم على الإيمان يلحقون بهم في منازلهم تكرمة لهم، وإتمامًا للنعمة عليهم، من غير أن ينقص من ثوابهم شيء، بل كل امرئ مرهون بعمله.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: المؤمنين العاملين بطاعة الله التاركين للمحرمات اتقاءً لعذابه ﴿فِى جَنَّـٰتٍ﴾ جمع جنَّة، والتنكير للتعظيم، أي: جناتٍ لا يدرك وصفها ولا يُكْتَنه كُنهها؛ ومهما قيل في وصفها فهي أعظم من ذلك، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[(١)].

---

(١) رواه البخاري (٣٠٧٢) ومسلم (٢٨٣٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وجمعت الجنات باعتبار درجاتها، وقد تُفرد ويكون المراد الجنس ﴿وَنَعِيمٍ ١٧﴾ أي: يتنعمون بأنواع النِّعم من المآكل والمشارب والمناكح، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي: متلذذين مسرورين، وهي حال من الضمير المستتر في متعلَّق ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾.

قوله سبحانه: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: بالذي أعطاهم ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ الواو للحال، أي: وقد وقاهم أي: حمَاهم وجنَّبهم ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ١٨﴾ أي: عذاب النار، وذكر اسم الرب وتكراره وإضافة الربوبية إليهم لبيان أن ما نالوه هو من آثار ربوبيته الخاصة لأوليائه وإكرامه لهم.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أي: يقال لهم على سبيل الإكرام والإنعام: كلوا واشربوا من كل ما شئتم ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي: أكلًا هنيئًا وشربًا هنيئًا، فـ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ صفة لمصدر محذوف، والهنيء هو ما لا تنغيص فيه ولا كدر ولا أذى ﴿هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٩﴾ الباء للسببية، أي: إن ما نلتموه من النعيم هو بسبب أعمالكم الصالحة ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ أي: متكئين في مجالسهم، وهو منصوب على الحال من الضمير المستتر في متعلَّق ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ أي: كائنون في جنات حال كونهم فاكهين متكئين ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي: جعلت صفوفًا متقابلين ينظر بعضهم إلى بعض، وهذا من كمال الأنس والحبور والنعيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٤﴾ [الصافات: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ [الواقعة: ١٦].

والاتكاء يشعر بكمال سرورهم وارتياحهم وخلوهم من الهموم؛ لأن الاتكاء هيئة مخصوصة بالمتنعِّم الخالي عن الكُلَف والتعب، وقد أخبر الله في كتابه العظيم أن أهل الجنة يجلسون مع أزواجهم على الأرائك، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ٥٥ هُمْ

وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس ٥٥، ٥٦]، كما أخبر تعالى أن أهل الجنة يجلسون على السرر مع إخوانهم متقابلين فقال سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧].

قوله سبحانه: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: وقرَنَّاهم بنساء حسان واسعات العيون حسانهن، الحُور جمع حَوْراء، مأخوذ من الحَوَر في العين، وهو شدة بياضها مع شدة سوادها، فهو يتضمن الأمرين، والعِين جمع عَيْناء، وهي ذات العين الواسعة، وحوَر العين مع سعتها نهاية الجمال.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ أي: والذين آمنوا واستحقوا درجات عالية، واتبعتهم ذريتهم في الإيمان ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ في الدرجة ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ المؤمنين فهم مع آبائهم في الجنة حيث كانوا، وإن لم يبلغوا درجة آبائهم بأعمالهم، فالآباء يرون أبناءهم معهم فتقرُّ أعينهم ويزداد سرورهم، وهذا من محض فضل الله وكرمه، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: وما أَلَتْنا الآباء، أي: ما نقصناهم من ثواب عملهم شيئًا، وهذا احتراس عمَّا يتوهم من أن رفع الذرية إلى درجات الآباء ينقص من ثوابهم.

ولما أخبر عن مقام الفضل أخبر عن مقام العدل، فقال سبحانه: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ أي: كلُّ إنسانٍ مرهونٌ بعمله لا يُحمل عليه ذنب غيره من الناس، ولا يُنقص من ثواب عمله الصالح شيء، وهذا تأكيد لقوله: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من منهج القرآن الجمع بين الوعد والوعيد، وتقديم الوعيد في الغالب.

٢ ـ أن تقوى الله أعظم سبب للسعادة.

٣ ـ أن ثواب المتقين جنات النعيم.

٤ ـ أن ما آتاهم الله من النعيم ووقاهم من الجحيم هو من مقتضى ربوبيته لهم.

٥ ـ أن في الجنة مآكل ومشارب وزوجات، وهي أمور حسيَّة، ففيه:

٦ ـ الرد على الفلاسفة القائلين بأن نعيم الآخرة وعذابها رُوحانيٌّ.

٧ ـ أن نعيم الجنة بريء من المنغِّصات.

٨ ـ أن هذا النعيم بسبب أعمالهم الصالحة.

٩ ـ أن من نعيم أهل الجنة أنهم متكئون على سرر مع أزواجهم.

١٠ ـ أن أزواج أهل الجنة حورٌ عين، وهذا غاية الحسن؛ لأنه يتضمن عِظَم العيون وسعتها مع شدة بياض العين وشدة سوادها مع بياض البدن.

١١ ـ أن من إنعام الله على أهل الجنة إلحاق ذريتهم بهم في منزلتهم.

١٢ ـ أن شرط ذلك إيمان الذرية، وإن لم يكونوا في درجتهم في الإيمان والعمل.

١٣ ـ أن إلحاق الذرية بالآباء لا ينقص من ثواب أعمالهم شيئًا.

١٤ ـ أن كل عامل مقصور عليه عمله، فلا ينقص من ثوابه، ولا يحمل عليه ذنب غيره.

١٥ ـ أن هذه الفضيلة مختصة بالآباء؛ لأن الأمهات ـ والله أعلم ـ يتبعن أزواجهن.

١٦ ـ أن عاطفة الأبوة موجودة في الجنة، كما هي في الدنيا.

ثم ذكر الله أصنافًا أخرى من نعيم أهل الجنة، فقال سبحانه:

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

## المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الثلاث الأولى الإخبار عن أنواع أخرى من نعيم أهل الجنة: الفاكهة واللحم والخمر والخدَم، وتضمَّنت الآيات الأربع الأخيرة الإخبار عمَّا يكون من أهل الجنة من إقبال بعضهم على بعض، وتساؤلهم عمَّا كانوا عليه في الدنيا، وتذكروا أنهم كانوا في الدنيا مشفقين خائفين من عذاب الله، وأنَّ الله منَّ عليهم، ووقاهم العذاب، وأن السبب في ذلك أنهم كانوا يدعون ربهم، وهو سبحانه البر الرحيم.

## التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ أي: وزدناهم على ما هم فيه من النعيم ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾ كثيرة ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وهذا اللحم يأكلونه للتنعم لا لجوع، وجاء في سورة الواقعة أنه لحم طير، وتخصيص هذين الصنفين بالذِّكر لأنهما من أطيب ما يطعمه أهل الدنيا وأشهاه، وقدمت الفاكهة لأنها الأكثر من طعامهم ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ أي: يتعاطون فيها ويناول بعضهم بعضًا في شوق ورغبة، وهذا من كمال سرورهم ﴿كَأْسًا﴾ أي: خمرا، وكل كأس في القرآن فالمراد بها الخمر ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي: أن من يشربها منهم لا يصدر منه كلام باطل لا فائدة فيه، فشربها لا يذهب بعقولهم كخمر الدنيا ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ولا يأتون بسببها ما يوجب

الإثم، وقد أخبر سبحانه عن خمر الجنة أنها حسنة المنظر طيبة الطعم، فقال سبحانه: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٦ ـ ٤٧].

ثم ذكر ما لأهل الجنة من الخدَم؛ فقال سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: يدور حولهم ويتردد بينهم لخدمتهم، والفعل المضارع يدل على تجدد الطواف وتكراره، والغلمان هم الولدان الشببَة ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في صفائهم وبياضهم وتناسقهم ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: مصون في أصدافه لم تمسَّه الأيدي، وتشبيههم باللؤلؤ لكونه معلومًا لنا، وإلا فشتان ما بين الصفاءين والبياضين، فكل ما في الجنة يقصر عنه الوصف، وإذا كانت هذه صفة الخادم فكيف بالمخدوم؟!

فهؤلاء الغلمان يطوفون على من جُعلوا خدما لهم بتقديم أنواع المآكل والمشارب، كما قال سبحانه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٨]، وقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

ثم أخبر تعالى عن بعض ما يكون في مجالسهم من الحديث؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: يسأل بعضهم بعضًا عن أحوالهم في الدنيا، وعن الأعمال التي أوصلتهم إلى ما صاروا إليه من النِّعمة العظيمة، وهو تساؤل أُنس واعتراف بفضل الله، وكل واحد منهم سائل ومسؤول ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا﴾ أي: يوم كنا بين أهلنا ﴿مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ الإشفاق خوف مع رقَّة وتوقع لحصول مكروه، أي: خائفين من عذاب الله، والخوف من العذاب أصل التقوى كلها؛ لأنه يدخل فيه خوف التقصير في الطاعة، وخوف ملابسة المعصية.

قوله سبحانه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: أنعم الله علينا بالهداية

والتوفيق ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ أي: عذاب النار، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ [الإنسان: ١١]، والسَّمُوم في الأصل الريح الحارة التي تدخل المسام، أطلق على نار جهنم على سبيل الاستعارة تشبيهًا لها به في نفوذ حرها في الأجساد، نعوذ بالله منها ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نعبده وحده ونضرَع إليه، فبدعائهم وخوفهم وقاهم الله العذاب ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ أي: الكثير الإحسان الصادق الوعد، ولم يرد هذا الاسم الكريم في القرآن إلا في هذه الآية ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ أي: الواسع الرحمة لخلقه، وأكدت هذه الجملة بإن وضمير الفصل لأنها ثناء على الله تعالى، فما أعظم برّ ربنا! وما أوسع رحمته!

## الفوائد والأحكام:

١ ـ أن أهم طعام أهل الجنة الفاكهة واللحم.

٢ ـ أن من شرابهم الخمر، وهو المراد بالكأس.

٣ ـ سلامة خمر الجنة من آفات خمر الدنيا.

٤ ـ قيل: في الآية جواز الحديث على الطعام.

٥ ـ أن من نعيم أهل الجنة خدَمًا يطوفون عليهم لخدمتهم.

٦ ـ أن خدَم أهل الجنة غلمان، أي: شَبَبَة، كما سُمُّوا ولدانًا في آية أخرى.

٧ ـ أن أولئك الغلمان يشبهون في الحسن باللؤلؤ المكنون، كما شبهت الحور العين في سورة الواقعة.

٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩﴾ [الإنسان: ١٩].

٩ ـ أن أهل الجنة يلتقي بعضهم ببعض في الجملة، ويتذاكرون بعض أحوالهم في الدنيا.

١٠ ـ فضيلة الخوف من الله، وأنه سبب للوقاية من عذاب الله.

١١ ـ ثناؤهم على الله أن وقاهم عذاب السموم.

١٢ ـ ذكرهم سبب ذلك، وهو دعاؤهم الله، وأنه البَرُّ الرحيم.

١٣ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما البر والرحيم.

١٤ ـ استجابة الله دعاء الصالحين.

ولما ذكر الله حال الفريقين، وعاقبة كل منهما، وما تضمنته الآيات من الوعد والوعيد والإنذار والتبشير، أمر الله نبيه ﷺ بالتذكير والمضي في الدعوة، فقال سبحانه:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾

### المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيات أمر الله نبيه بالتذكير، وتنزيهه عمّا رماه به المشركون، ثم أتبع ذلك بتوبيخ المشركين على أقوالهم في النبي ﷺ وما جاء به من القرآن، مع تحديهم أن يأتوا بمثله، وتقريرهم بأن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض.

**التفسير:**

قوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فذكِّر - أيها الرسول - قومَك بالقرآن، ودم على ذلك، ولا تبال بما يقولون فيك من الأقوال الكاذبة ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: ما أنت بسبب إنعام الله عليك بالنبوة والوحي وبالأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة ﴿بِكَاهِنٖ﴾ أي: لست بكاهن، كما يقول الكفار، والكاهن: الذي يدعي معرفة الغيب مستعينًا بالشياطين، والباء لتأكيد النفي ﴿وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩﴾ أي: ولست بمجنون، وهو الفاقد العقل، و﴿لا﴾ لتأكيد النفي، وقد حكى الله عن الكفار أنهم يصفونه ﷺ بالجنون كما قال ﷻ: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ [الحجر: ٦].

ثم أنكر الله على المشركين مقالتهم في الرسول ﷺ؛ فقال: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ أي: بل أيقولون ﴿شَاعِرٞ﴾ من جملة الشعراء ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ﴾ أي: ننتظر به ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ أي: حوادثَ الدهر المهلكة، أي: فيموت كما مات الشعراء السابقون ونستريح منه، والرَّيب في الأصل: الشك الذي يورث قلقا، سميت الحوادث ريبًا لأنها تورث قلقًا واضطرابًا في النفوس، وسمِّي الدهر منونًا من المنِّ، وهو القطع لأنه يقطع الأعمار.

قوله سبحانه: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ﴾ أي: قل لهم - أيها الرسول -: انتظروا هلاكي ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١﴾ أي: فإني معكم منتظرٌ ما سيحلُّ بكم من العذاب، وهذا أسلوب تهديد وتوبيخ، وقد أراه الله ما حلَّ بهم من الموت والهزيمة يوم بدر ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾ أي: بل أتأمرهم عقولهم بهذه الأقوال المتناقضة في حق الرسول ﷺ، وذكر الأحلام تهكم بهم، لأنهم يدَّعون أن لهم عقولًا فبئست العقول ﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢﴾ أي: بل هم متجاوزو الحدِّ في الكفر والتكذيب ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ﴾

التقوُّل تكلُّف القول، ويستعمل غالبًا في الكذب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحاقة: ٤٤]، أي: بل أيقول المشركون: إختلق محمد القرآن وافتراه من تلقاء نفسه ونسبه إلى الله. ثم بيَّن الله حقيقتهم بقوله: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: ما حملهم على التكذيب والافتراء إلا عدم إيمانهم، فهذا تقرير للعلة الحقيقية التي حملتهم على تلك الأقاويل.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ هذا أمر تعجيز وتوبيخ، أي: فليأتوا بمثل القرآن في بلاغته وحسن بيانه وهداياته وإحكام تشريعاته وما اشتمل عليه من أنباء الغيب والقصص والمواعظ إن كانوا صادقين في أن محمدًا ﷺ افتراه، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا، مع أنهم أهل الفصاحة والبيان، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤]، ولقد حكم الله على الإنس والجن أنهم لا يأتون بمثل القرآن، ولو تظاهروا على ذلك، قال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي: بل أَخُلقوا من غير خالق ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: الخالقون لأنفسهم، وكلا الأمرين ممتنع بداهة، فلا هم خُلقوا من غير شيء، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم، فتعيَّن أن لهم خالقًا خلقهم، وهو الله ﷻ، وهذا دليل عقلي على توحيد الربوبية بالنص، وعلى توحيد الألوهية باللزوم.

روى البخاري عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ

﴿ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ كاد قلبي أن يطير[1]، وجبير يومئذ مشرك جاء إلى المدينة في أُسارى بدر يعني في فدائهم، فهذا الانزعاج منه عند سماع الآية لحسن تلقيه معناها ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة.

وبعد أن احتج الله عليهم بالأنفس احتج بما في الآفاق، وهو من الترقي في تقريع الخصم وإفحامه، فقال سبحانه: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: بل أخلقوا السماوات والأرض فيكونون مشاركين لله في خلقه ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾ أي: بل هم لا يصدقون بوحدانية الله وقدرته على البعث، وإن كانوا يقولون: إن خالقهما الله، ولهذا جاء القرآن بالاحتجاج عليهم فيما أنكروه من توحيد الألوهية بما أقروا به من توحيد الربوبية.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ وجوب التذكير على النبي ﷺ، وهي وظيفته، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١﴾ [الغاشية: ٢١].

٢ ـ أن النبوة نعمة.

٣ ـ تنزيه الله نبيه عمَّا رماه به المشركون من الكهانة والجنون.

٤ ـ في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الحاقة: ٤١ ـ ٤٢]، ولقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: ٢].

٥ ـ أن من أقوال المشركين في النبي أنه كاهن أو مجنون.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ [الذاريات: ٨].

---

(١) البخاري (٤٥٧٣).

٧ ـ أن المشركين كانوا ينتظرون موت النبي ﷺ حتى يستريحوا من دعوته.

٨ ـ الرد عليهم في ذلك بأن الموت منتظر للجميع.

٩ ـ أن الحامل لهم على أقوالهم الباطلة هو الطغيان، وهو مجاوزة الحد في العدوان.

١٠ ـ أن العقول لا تقتضي إطلاق هذه الأقوال الظاهرِ فسادُها للعقول الصحيحة.

١١ ـ أن من أقوال المشركين الباطلة زعمهم أن الرسول ﷺ: تقوَّل القرآن، أي: جاء به من عنده.

١٢ ـ أن الحامل لهم على ذلك عدم الإيمان.

١٣ ـ تحدي المشركين أن يأتوا بمثل القرآن، وهيهات، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

١٤ ـ ذكر الدليل العقلي على أن الله خالقهم، وهو أن من المعلوم بداهة أنهم لم يخلقوا أنفسهم، ولم يوجَدوا من غير خالق، فإذا امتنع الأمران تعين أن لهم خالقًا خلقهم، وهو المطلوب.

١٥ ـ أن من المتقرر عند المخاطبين أنهم لم يخلقوا السماوات والأرض، كما لم يخلقوا أنفسهم، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

١٦ ـ اعتبار الأدلة العقلية في الاحتجاج على المخالف.

قال تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

## المعنى الإجمالي:

هذه سبع آيات كلها مصدَّرة بأم المنقطعة كالآيات السابقة؛ فكلها مفتتحة بإضراب واستفهام، بانتقال بعد انتقال، وإنكار بعد إنكار، فتضمَّنت الآيات نفي كلِّ ما يحتمل أن يكون عذرًا لهم في ترك الإيمان والاستجابة لدعوة الرسول ﷺ، فليسوا مالكين لخزائن الله ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾، وليسوا ذوي سلطان وقهر ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، وليس لهم قدرة على الصعود إلى السماء ليسمعوا من وحي الله إلى الملائكة ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾، وليس كما قالوا: إن الملائكة بنات الله، وهم يختارون البنين ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾، ولم يُسألوا على دعوتهم أجرًا فهم يغرمون ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾، وليس لهم حظ من علم الغيب فيكتبونه ويلقونه إلى الناس ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾، وإذا انتفت كل هذه الأمور فلم يبق إلا أنهم يكيدون ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾، أو أن لهم إلٰها غير الله كما يزعمون ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي: بل أعندهم خزائن الله

من الرزق والعلم والنبوة، فهم يعطُون من الرزق مَن شاؤوا، ويمنعون من شاؤوا، ويخصُّون بالنبوة من شاؤوا ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: بل أهم الغالبون المتسلطون على الناس فيجبرونهم على ما يريدون، ليس الأمر كذلك، بل الله هو المالك وحده؛ له الخلق والأمر، وهو الفعال لما يريد، وهم العاجزون الضعفاء، يقال: سيطر وصيطر إذا غلب وقهر، واسم الفاعل: مصيطر، بالسين والصاد، وهما وجهان صحيحان في قراءة حفص، وهي التي نقرأ بها، والمقدم في القراءة مصيطر بالصاد[1] ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ وهو آلة الصعود ليصلوا به إلى الملأ الأعلى ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: يستمعون الوحي من الله إلى الملائكة فيقولون ما شاؤوا، فإن ادَّعوا ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي: بحجة واضحة وبرهان ظاهر يدل على صدق دعواه، وأنه صعد إلى السماء، وسمع ما سمع، وهذا أمر تعجيز وتحد لهم بكذبهم ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: بل ألربكم البنات كما تزعمون، وهنَّ بالمنزلة الدنيا عندكم ولكم البنون، أي: الذكور خاصة، وفي قوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ مواجهة لهم بالخطاب، على سبيل الالتفات، وفيه تقريع لهم وإظهار لجهلهم وحماقتهم، وذلك أنهم جعلوا لله ما كرهوه لأنفسهم، كما قال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢].

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: بل أتسألهم ـ أيها الرسول ـ مالًا على الدعوة والتبليغ والتعليم ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: فهم من ذلك الأجر متعبون ومجهدون مما كلفتهم به فلم يؤمنوا، والمغرَم

---

(١) وهي المثبتة في المصاحف عندنا، وقد وضع تحت الصاد سين صغيرة، إشارة إلى جواز القراءة بها.

مصدر ميمي، بمعنى الغُرم أي: الغرامة، وهي إعطاء الشيء بموجب جناية أو غيرها.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤١﴾ أي: بل أعندهم علم الغيب فهم يكتبونه للناس ويخبرونهم به، هذا محال؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، أمَّا هم فلا يعلمون من الغيب شيئًا ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: بل أيريد هؤلاء المشركون بما يقولونه في الرسول وفي الدين ﴿كَيْدًا﴾ أي: مكرًا وشرًّا ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۝٤٢﴾ أي: هم المغلوبون المهلَكون بكيد الله، وليس كيدهم بشيء أمام كيده تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦]، وقوله ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وضع للظاهر موضع المضمر تسجيلًا عليهم بالكفر، وتعميمًا للحكم، فكل كافر مَكِيد.

قوله سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: بل ألهم معبود غير الله يستحق العبادة، ويمنع عنهم العذاب، وهذا تهكم بهم وتسفيه لهم على كفرهم، وإعلانٌ أنه لا معبود إلا الله وحده، ولهذا ختمت الآيات بعبارة التنزيه الجامعة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٣﴾ أي: تنزيهًا لله عن شركهم، أي: عن أن يكون له شريك من خلقه، وهذا ختام حسن مناسب لهاته الآيات.

وقد تكررت (أم) في الآيات خمس عشرة مرة، وهي المنقطعة المتضمِّنة للاستفهام والإضراب، وليس معنى الإضراب هنا هو إبطال الاستفهام الأول، بل هو على وجه الانتقال عنه إلى استفهام آخر، إشارة إلى أنه كاف في إثبات المقصود دون حاجة إلى ما سبقه، كما أن الاستفهام في الآيات يدل على معان عدة من الإنكار والتوبيخ والتجهيل والوعيد والإلزام الذي ليس للخصم عنه جواب، ولهذا كان

ختام الآيات بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٤٣﴾ مناسبًا لهذه المعاني.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ نفي صفات الكمال عن المشركين من الغنى؛ لقوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾، والسلطان؛ لقوله: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ۝٣٧﴾، والقدرة؛ لقوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾، والحكمة؛ لقوله: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ۝٣٩﴾، والعِلم؛ لقوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٤١﴾، والغلبة؛ لقوله: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ۝٤٢﴾.

٢ ـ أن خزائن الله لا يملكها أحد من الخلق.

٣ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

٤ ـ أنه لا يعلم الغيب إلا الله.

٥ ـ أنه لا سلطان ولا حجة للمشركين في تكذيبهم للرسول ﷺ.

٦ ـ فساد عقول المشركين؛ إذ يفضِّلون أنفسهم على رب العالمين.

٧ ـ تنزيه الله تعالى عن الولد.

٨ ـ أن الرسول ﷺ وغيره من الرسل لا يسألون الناس أجرًا.

٩ ـ أن من صوارف قبول الدعوة أخذ الأجرة عليها.

١٠ ـ كراهة أخذ الأجرة على تعليم القرآن إلا مع الحاجة.

١١ ـ أنه لا عذر للمشركين في امتناعهم من قبول دعوة الرسول ﷺ.

١٢ ـ أن كيد الله غالب لكيد الكافرين.

١٣ ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ۝٤٢﴾.

١٤ ـ أنه لا إله للعباد غير الله.

١٥ ـ بطلان آلهة المشركين.

١٦ ـ تنزيه الله عن شرك المشركين.

ثم أخبر تعالى عن شدة طغيانهم وفرط عنادهم حتى إنهم لا يرعوون عند رؤية العذاب، بل يكذبون ويجحدون أن يكون عذابًا، فقال سبحانه:

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

## المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الأربع الأولى الإخبار عن المشركين في أمنهم من عذاب الله، وتهديدهم باليوم الذي ينتظرهم وهم ينتظرونه، وهو يوم القيامة، في ذلك اليوم لا يغني عنهم كيدهم شيئًا، ولا ينصرهم ناصر، ثم يخبر تعالى هؤلاء الظالمين أن لهم عذابًا قبل ذلك، أي: في الدنيا، وأن أكثرهم لا يعلمون ما ينتظرهم من عذاب الله العاجل والآجل، كما تضمَّنت الآيتان الأخيرتان تصبير النبي ﷺ وتسليته، وإرشاده إلى ما يعينه من عبادة ربه في كل وقت.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا﴾ أي: قِطْعةً من عذاب نازلة من

السماء، وجمعها كِسَف، كما جاء في الإسراء، مثل: سِدْرَة وسِدَر، المعنى: وإن يروا عذابًا نازلًا عليهم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِن ابتدائية ﴿سَاقِطًا﴾ أي: نازلًا عليهم من جهة السماء ليعذَّبوا به لما آمنوا، ولقالوا جهلًا وعنادعا وغيظًا للنبي ﷺ: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: سحاب كثير قد تراكم بعضه على بعض، أي: ملئ بالمطر، وهذا كالإجابة لقولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، المعنى: أنهم لا يؤمنون من قساوة قلوبهم لو فعلنا ذلك، ولهذا قال تعالى مخاطبا نبيه ﷺ: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: إذا بلغوا هذا الحدَّ من المكابرة والتكذيب بحيث لا تنفع معهم حجة فأعرض عنهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ﴾ أي: إلى أن يلاقوا يومهم الموعود ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: يُهلكون ويعذبون، وهو يوم القيامة، وأضيف اليوم إليهم لاختصاصهم فيه بالعذاب، كما أضيف اليوم إلى المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣] لأنهم المنتفعون به، فهؤلاء يوعدون بالثواب، وأولئك بالعذاب، ولا نجاة لهم حينئذ، ولهذا قال ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يَدفع عنهم كيدُهم شيئًا من العذاب، فشيئًا مفعول به ليغني ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: ولا هم يجدون ناصرًا ينصرهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: وإن لهؤلاء الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدنيا قبل عذاب يوم القيامة، وهو القتل والسبي والمصائب التي تصيبهم، كما وقع لهم في بدر، وعذاب القبر وغير ذلك، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لا يعلمون الحكمة مما

وقع بهم من العذاب، والحكمة هي أن يتوبوا وينيبوا كما قال تعالى في الآية السابقة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: دُم على الصبر لحكم ربك، أي: لقضائه وأمره، اللام للتعليل، ويحتمل أن تكون اللام بمعنى على، أي: اصبر على حكم ربك، فإن الفعل (صبر) يتعدى بـ (على) كقوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧].

والحكم في الآية يشمل الحكم الكوني والحكم الشرعي؛ فأما الحكم الكوني فهو واقع فيما يحصل للرسول ﷺ من أذى المشركين وتكذيبهم، وأما الحكم الشرعي فواقع في تكليفه ﷺ بالدعوة، وهو يستتبع مشاقَّ وتكاليف، وكلٌّ من الحُكمين مطلوب فيه الصبر.

ولا شك أن النبي ﷺ لم يزل صابرًا على حكم ربه، وعلى هذا فيكون المراد بالأمر بالصبر: الاستمرار والدوام على الصبر على الدعوة وعلى أذى المشركين، وذلك مما يزيد في ثوابه عند ربه.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: فإنك بمرأى منَّا نحفظك ونحوطك بالعناية، أي: فإننا نراك ونرى عملك، ودلَّت الآية على أن لله تعالى عينين تليقان بجلاله، لا نكيفهما ولا نمثلهما، كسائر صفاته تعالى، وأجمع على ذلك السلف، وجمع لفظ الأعين لمناسبة الإضافة إلى ضمير الجمع الدال على العظمة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: نزِّه ربك بلسانك وقلبك عن صفات النقص وعَظِّمه، والباء للمصاحبة، أي: تسبيحا مقترنا بالحمد، ويحتمل أن يراد بالتسبيح الصلاة، لأن التسبيح من أسماء الصلاة، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين ﴿حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ أي: حين تقوم من مجلسك، ولهذا شرعت كفارة المجلس، فيقال عند القيام من المجلس: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله**

**إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»**[(١)]، وسبِّح حين تقوم من منامك، فيسبح ويذكر الله ويصلي الصلاة المفروضة والنافلة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: اذكر الله في ليلك وأقم الصلاة، والمراد المغرب والعشاء، ويدخل في ذلك التهجد، و(مِن) للتبعيض، أي: فَصَلِّ لله جزءًا من الليل، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ أي: وقتَ إدبارها أي: مغيبها، وذلك حين ينشق ضوء الصبح، والمراد صلاة الفجر، النجوم واحدها نَجم، ولا يقال: نجمة ـ بالتاء ـ؛ لأن ذلك لم يسمع عن العرب.

**الفوائد والأحكام:**

١ ـ أمنُ المشركين من عذاب الله، واستخفافهم به إذا عاينوه.

٢ ـ تهديدهم باليوم الموعود، أي: الذي تأخذهم فيه الصاعقة، وهو يوم القيامة.

٣ ـ أنهم في ذلك اليوم لا يقدرون على كيدهم، وإن قدِروا لم يغن عنهم شيئًا، ولا ناصر ينصرهم.

٤ ـ أن للظالمين ـ وهم الكافرون ـ عذابًا معجَّلًا في الدنيا وفي القبر، وأكثرهم لا يعلمون شيئًا عن ذلك.

٥ ـ إثبات عذاب القبر؛ لقوله: ﴿عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دون يوم القيامة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٣٣) عن أبي هريرة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني.

٦ ـ أمر الله نبيه ﷺ بالصبر على حكمه؛ لأنه لا يتم القيام بالدعوة إلا بذلك.

٧ ـ وجوب الصبر على الأذى في الدعوة وتكذيبِ المكذبين.

٨ ـ وجوب الصبر على القيام بأعباء الدعوة وحقوق العبودية.

٩ ـ أن طريق الدعوة محفوفٌ بالمشاق.

١٠ ـ إثبات حكم الله الكوني والشرعي؛ فالكوني مثل ما يصيبه من أذى المشركين، والشرعي مثل ما يُكَلَّفه من واجبات في الدين، والفرق بينهما هو الفرق بين الإرادتين الكونية والشرعية، وعلى هذا فالحكم الكوني لابد من وقوع مقتضاه، وهو متعلِّقٌ بجميع الكائنات، فكل واقعٍ فبحكم الله الكوني، مما هو محبوب لله أو غير محبوب.

وأما الحكم الشرعي فلا يلزم وقوع مقتضاه، وهو متعلق بما يحبه الله من أفعال العباد من الإيمان والطاعة، وعلى هذا فما وقع من الإيمان والطاعة فبحكم الله الكوني والشرعي، وما وقع من الكفر والمعاصي فبالحكم الكوني، وينفرد الحكم الشرعي بما لم يقع من الإيمان والطاعة، ومن أدلة الحكم الكوني قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ١٠٩]، ومن أدلة الحكم الشرعي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة: ١٠].

١١ ـ إثبات الربوبية الخاصة، لقوله: ﴿رَبِّكَ﴾.

١٢ ـ معيَّة الله لنبيه ﷺ، وأنه بمرأى من الله، وذلك مما يهون عليه أذى المشركين القولي والفعلي.

١٣ ـ إثبات العينين لله ﷻ.

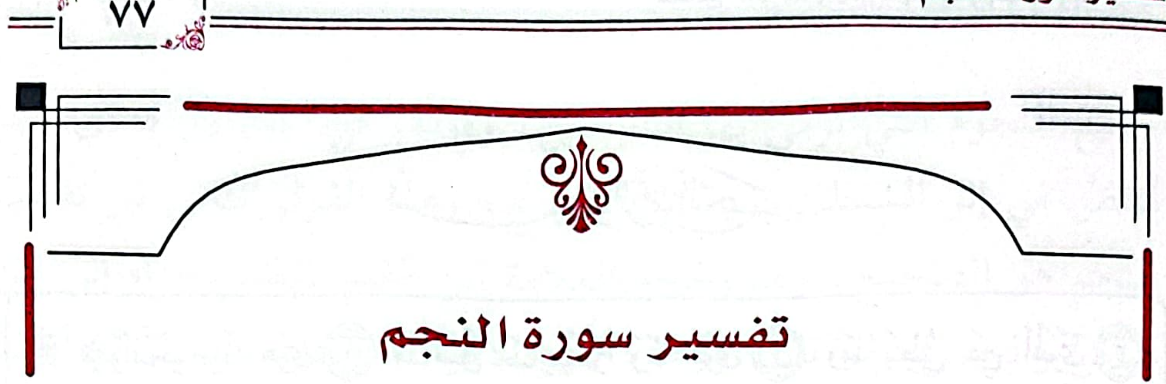
١٤ ـ أن التسبيح بحمد الله من أجلِّ العبادات، فتدخل فيه الصلاة فرضا كانت أو تطوعًا.

١٥ ـ النصُّ على التسبيح في أول الليل وآخره.

١٦ ـ أن العبادة بالذكر والتسبيح والصلاة من أعظم ما يهوِّن على الداعي إلى الله ما يلاقي من الشدائد والصعوبات.

١٧ ـ في الآيات شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩].





# تفسير سورة النجم

سورة النجم مكية بالإجماع، قاله ابن عطية[(١)]، وآياتها اثنتان وستون آية، وقد افتتحت بالقسم من الله على براءة النبي ﷺ من كل ما يعيبه به المشركون مما يعود إلى معنى الغيِّ والضلال والكذب على الله، ثم الثناء على من يتلقَّى عنه النبي ﷺ من الملائكة، وهو جبريل، مع ذكر كيفية اتصال الملك به، ووحيه إليه، ورؤية النبي له مرتين، ثم توبيخ المشركين على اتخاذ اللات والعزى آلهة، ونسبة الولد إليه، وتفضُّلهم على الله باختيارهم البنين، ونسبة البنات إلى الله، ثم توجيه النبي ﷺ إلى الإعراض عنهم بأنه تعالى سيجزي عباده بأعمالهم محسنين أو مسيئين.

ثم ختمت السورة بذكر بعض ما جاء في صحف إبراهيم وموسى من أحكامه تعالى الجزائية والكونية، وسنته في ذلك، ومن ذلك ما جرى على عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط، ثم عقَّب على ذلك بالتنويه بقرب الآخرة، وهي الآزفة، مع توبيخ المكذبين بها وبهذا القرآن.

وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾، قال: فسجد رسول الله ﷺ، وسجد من خلفه إلا رجلًا رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا، وهو أمية بن خلف[(٢)].

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ١٩٥).

(٢) البخاري (٤٥٨٢) ومسلم (٥٧٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات تنزيه الله لنبيه ﷺ عن كلِّ أقوال المشركين فيه، وتزكيته بعلمه وعمله، وأقسم سبحانه على ذلك بالنجم إذا هوى، وتضمَّنت ذكر الملَك الذي يتلقى النبي ﷺ عنه، وهو جبريل أفضل الملائكة، كما تضمَّنت الآيات الخبر عن رؤية النبي ﷺ لجبريل مرتين على خِلقته التي خلقه الله عليها؛ مرة في الأرض ومرة في السماء عند سدرة المنتهى، وقد رأى هناك من آيات الله الكبرى ما رأى.

## التفسير:

قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ هذا إقسام من الله ﷻ، أي: أُقسِم بالنجم حال هُويِّه، قيل: هو الثريا؛ لأنه اسمها عند الإطلاق في كلام العرب، وعلى هذا فتكون (أل) في النجم للعهد الذهني، وهُويُّه سقوطه عند الفجر، أي: مغيبُه، كذا قال جمع من المفسرين.

وقال طائفة من العلماء: إن (أل) في النجم للجنس، فيكون المراد

جميعَ النجوم التي ترمى بها الشياطين، وقوله: ﴿إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ أي: إذا انقضَّ في إثر الشيطان المسترق للسمع، وهذا القول الثاني في تفسير النجم هو الصحيح، وقد رجَّحه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعزاه إلى ابن عباس والحسن، ثم قال: «وهذا أظهر الأقوال، فيكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصَبها الله سبحانه آية وحفظًا للوحي من استراق الشياطين له، على أن ما أتى به رسولُه حقٌّ وصدقٌ، لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد أُحرس بالنجم إذا هوى، رصَدًا بين يدي الوحي، وحَرَسًا له، وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه»[1].

ثم ذكر جواب القسم أي: المقسَم عليه، فقال سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أي: ما عدَل محمد ﷺ عن طريق الحق ﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ أي: لم يتَّبع طريق الغيِّ، وحيث نفَى عنه ﷺ الضَّلال والغيَّ فيلزم من ذلك أن يكون مهتديًا في علمه وراشدًا في أقواله وأفعاله، وفي التعبير عن النبي ﷺ بصاحبكم دعوة لهم إلى أن يتابعوه ويصدِّقوه، فهم أعلم الناس برجاحة عقله وأمانته ومحاسن شمائله؛ إذْ أقام بينهم في مكة أربعين سنة قبل النبوة راشدًا كريمًا، وكانوا يسمونه الأمين، وما عهدوا عليه كذبًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ أي: ما ينطق نطقًا صادرًا عن هوى نفسه، بل ينطق بما يوحي الله إليه، ولهذا قال: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما الذي ينطق به من القرآن والسُّنَّة ﴿إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ أي: يوحيه الله إليه، وفائدة مجيء الوصف ﴿يُوحَىٰ ۝٤﴾ دفع توهم المجاز، أي: هو وحيٌ حقيقة لا بمجرد تسميته وحيًا.

ثم ذكر الله خبر الوحي وصفة الملَك النازل بالرسالة، فقال

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص٢٤٤).

سبحانه: ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ أي: علَّم النبيَّ محمدًا ﷺ ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ أي: ملَكٌ شديدُ القُوى، وهو جبريل عليه السلام، والقُوى جمع قوَّة، أي: شديدٌ قواه، من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، ووصف الملَك بأنه شديد القُوى يدلُّ على تعيينه، وأنه جبريل، ولأن شدة قوته تمنع من طمع الشياطين في استراق السمع، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء: ٢١٢].

قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ أي: صاحب منظر حسنٍ وخُلُق حسنٍ ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦﴾ أي: فاستوى جبريل وظهر ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧﴾ أي: أفق السماء، المعنى: أن جبريل ظهر للنبي ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها بأجنحته التي تملأ الأفق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: قرُب جبريل من النبي ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ أي: انحدر من السماء ﴿فَكَانَ قَابَ﴾ أي: مقدار ﴿قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾ أي: بل أقرب. المعنى: أن جبريل قرب من النبي ﷺ على بعد مسافة قوسين أو أقرب، وكانت المسافات عند العرب تقدَّر بالقوس والرمح والذراع والشِّبر ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ أي: فأوحى جبريل إلى عبد الله وهو نبينا محمد ﷺ ﴿مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠﴾ أي: أوحى إليه شيئًا عظيمًا، وفي ذكره ﷺ بوصف العبودية وإضافته إلى الله تشريف له عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ﴾ بتخفيف الدال، وهو بمعنى ما كذَّب ﴿ٱلۡفُؤَادُ﴾ أي: فؤاده ﷺ أي: قلبُه ﴿مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ أي: ما كذَب قلبُه بصرَه فيما رآه من صورة جبريل عليه السلام، بل علم ذلك وتيقَّنه.

ثم خاطب الله المشركين حين كذَّبوا النبي ﷺ فيما ذكر لهم من خبر الإسراء به، ورؤيته لجبريل، فقال سبحانه: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا

﴿يَرَىٰ ۝١٢﴾ أي: أفتجادلون محمدًا ﷺ فتكذبونه فيما رآه معاينة، والاستفهام للإنكار والزجر والتوبيخ، وعُدِّيت المماراة بـ ﴿عَلَىٰ﴾ لتضمنها معنى المغالبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ أي: ولقد رأى محمدٌ جبريلَ على صورته ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ أي: مرة أخرى في مكان لا يعلم علمه إلا الله، وذلك في السماء السابعة حين عُرج به إلى السماء، فرأى جبريل بعيني رأسه ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ وهي شجرة نبْق عظيمة من عالم الغيب، إليها ينتهي علم المخلوقات، حيث ينتهي ما يُعرج به من الأرض فيقبض منها، وينتهي ما يُهبط به من فوقها فيقبض منها، وفي حديث الإسراء أن ورقها كآذان الفيلة، وثمرها كالقِلال[١].

قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ أي: عند السِّدرة الجنةُ التي يأوي إليها المتقون وينزلونها ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ أي: رأى محمدٌ جبريلَ في الوقت الذي يغطي السِّدرة ما يغطيها من أشياء عظيمة مما لا يعلم وصفه إلا الله ﷻ، قال ﷺ: «**فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيَّرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة**» الحديث[٢].

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: ما مال بصرُه ﷺ يمينًا ولا شمالًا ﴿وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ أي: ما جاوز الحدَّ بأن ينظر إلى أكثر مما أذن له فيه، وهذا من كمال أدبه ﷺ؛ فإن من المعلوم أن الوافد إلى المحل الغريب لا بد أن ينظر في كل جهة ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه، وهو في صحيح مسلم.

أي: لقد رأى ليلة الإسراء والمعراج كثيرًا من آيات الله وعجائبه العظيمة الدالة على كمال قدرته تعالى وحكمته كالجنة وغيرها، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾، قال: رأى جبريل في صورته له ستمئة جناح[(١)].

هذا وما تضمنته الآيات من رؤية النبي ﷺ لجبريل مرتين هو ما دل عليه الحديث؛ فقد روى الشيخان أن مسروقًا سأل عائشة رضي الله عنها، فقال: يا أم المؤمنين؛ ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ٢٣﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء سادًّا عُظْمُ خلقه ما بين السماء إلى الأرض**» الحديث[(٢)]، وأما رؤية النبي ﷺ لجبريل في غير صورته الأولى، فقد وقعت مرات، حيث صار يراه في صورة إنسان سوي الخلقة، كدحية الكلبي وغيره.

### الأحكام والفوائد:

١ ـ أن الله يقسم بما شاء من خلقه، وقد أقسم هنا بالنجم الذي يهوي حين ترمى به الشياطين حراسة للوحي.

٢ ـ التناسب بين المقسم به والمقسم عليه؛ فالمقسم به النجم الذي يُحرس به الوحي، والمقسم عليه عصمة النبي ﷺ من تنزل الشياطين عليه.

٣ ـ كمال النبي ﷺ في العلم والعمل.

---

(١) مسلم (٢٨٢).

(٢) البخاري (٣٠٦٣) ومسلم (٢٨٧) واللفظ له.

٤ ـ نفي الضلال والغي عنه ﷺ، وإثبات ضدهما من الهدى والرشاد.

٥ ـ أن كلَّ كلامه ﷺ تبليغ عن الله بما أوحاه الله إليه.

٦ ـ جواز نسخ القرآن بالسُّنَّة؛ لأنها وحيٌ.

٧ ـ إثبات العبودية الخاصة؛ لقوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾.

٨ ـ أن المعلِّم للنبي ﷺ القرآن والسُّنة هو جبريل عليه السلام، ففيه:

٩ ـ الرد على من قال من المشركين في النبي ﷺ: إنما يعلمه بشر.

١٠ ـ أن جبريل شديد القُوى.

١١ ـ أنه مع ذلك حسن الخَلْق والخُلُق؛ لقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾.

١٢ ـ ذكر بعض صفة اتصال جبريل بالنبي ﷺ، وذلك حين رآه النبي ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها له ستمئة جناح، وهي رؤيته الأولى له، والنبي ﷺ في الأرض، وذلك قوله: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾.

١٣ ـ تقدير قرب جبريل من النبي ﷺ في تلك الحالة بقدر قوسين أو قريب من ذلك.

١٤ ـ إبهام ما أوحاه جبريل إلى النبي ﷺ في تلك المناسبة تعظيمًا له، والضمير المستتر المرفوع في قوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ يعود إلى جبريل، والضمير المجرور في ﴿عَبۡدِهِۦ﴾ يعود إلى الله.

١٥ ـ أن جبريل هو الموكَّل بالوحي، كما تدل عليه الآيات والأحاديث.

١٦ ـ أن النبي ﷺ رأى جبريل ببصره، وعَلِم ما رآه بقلبه، وتيقَّنه.

١٧ ـ أن النبي ﷺ أخبر المشركين بما رأى، وجادلوه في ذلك.

١٨ ـ أن النبي ﷺ رأى جبريل مرتين؛ مرة في الأرض ومرة في السماء.

١٩ ـ أن رؤيته في السماء كانت عند سدرة المنتهى.

٢٠ ـ أن هذه الرؤية كانت حين يغشى السدرة ما يغشى، مما لا يحيط به إلا الله.

٢١ ـ إثبات سدرة المنتهى.

٢٢ ـ الإشارة إلى بعض صفاتها؛ لقوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

٢٣ ـ إثبات الجنة، وأنها في السماء.

٢٤ ـ أن الجنة موجودة.

٢٥ ـ الرد على المعتزلة في إنكار وجود الجنة الآن.

٢٦ ـ أن من أسماء الجنة جنة المأوى.

٢٧ ـ أن الجنة عند سدرة المنتهى.

٢٨ ـ أن بصر النبي ﷺ عند رؤيته لجبريل متعلِّقٌ بالمرئي لا يزيغ عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا يتعداه.

٢٩ ـ كمال أدبه ﷺ فيما أذن له برؤيته.

٣٠ ـ أن النبي ﷺ رأى في ذلك المقام آيات من آيات الله الكبرى.

٣١ ـ تفاوت آيات الله في العِظم والدلالة.

ولما تقرر أمر الوحي وإثبات الرسالة لنبينا محمد ﷺ انتقل الكلام إلى إبطال الشرك، وهو أول مقاصد الرسالة؛ فقال سبحانه:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات توبيخ المشركين على تنقصِّهم لله باتخاذ اللات والعزى ومناة آلهة يعبدونها من دون الله، وبنسبة الولد إليه، ومع ذلك يجعلون له القسم الأدنى، وهو الأنثى، ولأنفسهم خير القسمين عندهم، وهو الذكر، ثم يبين سبحانه أن ما يسمونه آلهة محض افتراء ما أنزل الله بها من سلطان، وما هي إلا أسماء لا معنى لها، وهم في كلٍّ ذلك يتبعون الظنون وأهواء النفوس، هذا وقد أوضح الله لهم سبيل الهدى، وأقام عليهم الحجة بما بعث به رسوله من الهدى، ثم الأمر كلُّه لله، فللَّه الدنيا والآخرة، وله الآخرة والأولى.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ﴾ هذه أصنام كانت تعبدها العرب من دون الله، فأما اللَّات فصنم لثقيف في الطائف، كان صخرة بيضاء منقوشا عليها، وكانت قريش وجميع العرب يعظمونها، وكان لها سدَنة، وما هدمت إلا بعد أن أسلمت ثقيف، أرسل إليها النبي ﷺ المغيرة بن شعبة، فهدمها، وأحرقها بالنار، وأما العُزَّى فشجرة بوادي نَخلة، بين مكة والطائف، وكان جمهور العرب يعبدونها، وخاصة

قريش، قال أبو سفيان يوم أحد يخاطب المسلمين: لنا العُزى ولا عُزى لكم، ولما فتح النبي ﷺ مكة أرسل إليها خالد بن الوليد فقطعها.

وأما مناة فهو صنم لخزاعة والأوس والخزرج، كانوا يعظمونه ويهلون منه للحج إلى الكعبة، وهو بالمُشَلَّل عند قُدَيد، بين مكة والمدينة، وكانت بجزيرة العرب وغيرها أصنام أخر تعظمها العرب غير هذه الثلاثة، وإنما خصت بالذكر في الكتاب الحكيم لأنها أشهر من غيرها، وقد روي عن بعض السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠] أن من إلحاد المشركين في أسمائه تعالى اشتقاقهم اسم اللَّات من اسم الله، واسم العُزَّى من اسم العزيز، واسم مناة من المنان[1].

والاستفهام في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ إنكاري توبيخي، وفيه تهكم بالمشركين، والفاء عاطفة على محذوف، أي: أنظرتم وتأملتم، فالله ﷻ يخاطب المشركين بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ هذه الأصنام التي تعبدونها، أخبروني: هل لها من القدرة والعظمة ما تستأهل به أن تعبد من دون الله المعبود الحق؟! ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ﴾ أي: الثالثة بالنسبة للاثنتين قبلها، فوصفها بالثالثة للتأكيد، ووصفها بـ ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ للذَّمِّ، أي: هي متأخرة في الرتبة وضيعة القدر، وهو ذمٌّ لجميع الأصنام.

وكان المشركون يعتقدون أن الأصنام بنات الله، فقال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي: ألكم النوع المحبوب المستحسن عندكم وله النوع المذموم بزعمكم ﴿تِلْكَ﴾ أي: القسمة ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أي: جائرة حيث جعلتم له تعالى ما تكرهون، فهي قسمة ظالمة فيما لو كانت بين الخلق بعضهم مع بعض حسب رأيكم،

---

(١) جامع البيان (١٠/ ٥٩٧).

فكيف بالخالق المنزه عن الوالد والولد؟! وإذن حرف جواب يدل على ترتب مضمون الجملة على ما قالوا من أن لهم الذكر وله الأنثى، وهو الحكم على قولهم بالجور، وفي هذا تنزل معهم، وإلا فأصل نسبة الولد إلى الله باطلة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ أي: ما الأصنام إلا مجرَّد أسماء، ليس فيها أيُّ معنى من معاني الإلهية، فهي مجرد أسماء على جمادات، لا حقيقة لها، والاسم بلا مسمى لا اعتبار له؛ لأنه لغوٌ ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ وزعمتم لها ما زعمتم بمقتضى أهوائكم الباطلة ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ الضالون ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: بعبادتها ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حجة ولا برهان ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ التفت من خطابهم إلى الخبر عنهم لذمِّهم باتباع الظن والهوى، أي: ما يتبعون إلا الظنون والأوهام ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ لم يقل: وما تهوى أنفسهم، إشارة إلى اتباعهم هوى نفوسهم ونفوس آبائهم، كما قال تعالى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ وهذا أبلغ في الذم ﴿وَلَقَدْ﴾ أي: والحال أنهم ﴿جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ على لسان رسوله ﷺ، أي: جاءهم الحق المبين الذي فيه هدايتهم، وفي الآية ذمهم على اتباعهم هواهم مع وجود الهادي لهم، وهو أقبح من اتباع الهوى مع عدم المرشد إلى الحق.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة، فهي بمعنى بل والهمزة، والاستفهام للإنكار، أي: ليس للإنسان كلُّ ما يتمناه، والمراد بالإنسان الجنس، وإن كان الكفار أول الداخلين فيه؛ فإنَّ حالهم هي التعلقُ بالأماني الكاذبة، ومن ذلك ادعاؤهم شفاعة الأصنام لهم، ولهذا ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي: فللّه وحده أمر الدنيا والآخرة يعطي من يشاء ويمنع من يشاء. وقدِّمت الآخرةُ

في الذكر لأن ظهور ملكه تعالى في الآخرة أعظم من ظهوره في الدنيا، مع ما في هذا التقديم من مراعاة الفواصل، وفي الآية تيئيس الكافرين من أن يحصلوا على خير من عبادتهم للأصنام.

## الفوائد والأحكام:

١ - أن من أشهر أوثان العرب هذه الثلاثة المذكورة: اللَّات والعُزَّى ومَناة.

٢ - سفه المشركين باتخاذ الأشجار والأحجار معبودات، وهي من أنقص الناقصات.

٣ - أن من أقوال مشركي العرب نسبة الولد إلى الله، ومن عظيم سفههم نسبة النوع الأدنى إليه تعالى، وهو البنات، وهم يختارون البنين.

٤ - أن هذه القسمة جائرة في كل اعتبار، عقلًا وشرعًا وعرفًا، ولهذا كثر في القرآن الإنكار عليهم، وتوبيخهم، وبيان أن لا مستند لهم، كما في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٦].

٥ - أن معبودات المشركين ليس فيها من معنى الإلهية شيء؛ فما هي إلا أسماء لا معنى لها.

٦ - تعظيم أمر الحجة والبرهان، حتى كان من الدليل على بطلان آلهة المشركين عدم الحجة والبرهان، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، وقال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

٧ - أن مُعوّل المشركين في شركهم على اتباع الظن والهوى.

٨ ـ أنه لا عذر للمشركين في إصرارهم على الشرك، وقد جاءهم الرسول بالهدى من ربهم، وأعذر وأنذر.

٩ ـ أن اتباع الباطل وإيثاره مع وجود الحق أقبحُ ممَّن آثر الباطل جهلًا منه بالحق.

١٠ ـ أن الاسم غير المسمَّى، وهو اللفظ الدال على المسمَّى.

١١ ـ إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمُ﴾.

١٢ ـ أن النجاة والفوز بالجنة لا تنال بالأماني؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

١٣ ـ أن الله تعالى هو المعطي المانع؛ لأنه مالك الدنيا والآخرة.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

١٥ ـ إثبات الدار الآخرة.

١٦ ـ أن من محسنات الكلام التقديم والتأخير رعاية لفواصل الجمل؛ لقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

***

لما ذكر تعالى أن أمر الآخرة والأولى له سبحانه، وأن ليس للإنسان ما تمنى، أكّد ذلك بنفي شفاعة الملائكة إلا بإذنه تعالى ورضاه، فقال:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

**❁ المعنى الإجمالي:**

يخبر تعالى بأن في السماوات ملائكة كثيرة لا تغني شفاعتهم لأحد لو شفعوا له كلهم إلا بإذنه تعالى ورضاه، ومن ضلال المشركين في شأن الملائكة أن يسمُّوهم بنات الله، وما لهم بذلك من سلطان، بل هم متبعون في ذلك الظنَّ الذي لا يهدي صاحبه إلى شيء من الحق، ثم أمر ﷻ نبيَّه بالإعراض عمَّن أعرض عن ذكر الله، ولم يكن همُّه إلا متاع الحياة الدنيا، وهذا مبلغ علمهم، والله تعالى أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى.

**❁ التفسير:**

قوله سبحانه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ (كم) خبرية تدل على التكثير، وهي مبتدأ، خبرها: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ أي: وكثيرٌ هم الملائكة الذين في السماء ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ من الإغناء، أي: لا تنفع، والشفاعة هي طلب الخير للغير ودفع الأذى عنه، والمقصود هنا سؤال الله التجاوز عن ذنوب العبد، فالملائكة مع علو منزلتهم عند الله لا يشفعون لأحد من الناس بجلب النفع له ودفع الضُّر عنه ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء منهم في الشفاعة ﴿وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ أي: ويرضى عن المشفوع له، وهم أهل التوحيد والإيمان، فلا شفاعة لأهل الشرك، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ٤٨﴾ [المدثر: ٤٨] أي: لو شفعوا. دلت الآية على أن الشفاعة عند الله لا تكون إلا بعد إذنه تعالى للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع له، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وإذا كان هذا حال الملائكة الكرام في باب الشفاعة، فكيف تشفع

الأصنام، وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئًا؟! ففي الآية رد على المشركين الذين يعبدون الأصنام، ويدَّعون أنها تشفع لهم عند الله.

ثم ذكر الله بعض مقالات الكفار في الملائكة، وهي تسميتهم إياهم بنات الله، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بالبعث والجزاء ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ٢٧﴾ أي: يصفونهم بالأنوثة لاعتقادهم أنهم بنات الله، وقوله: ﴿تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ٢٧﴾ مفعول مطلق مبيِّن للنوع، وهو قولهم: إنهم بنات الله ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي: وما لهم بهذا القول ﴿مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ أي: ليس لهم في قولهم هذا علم صحيح يستندون إليه؛ لأنهم لم يشهدوا خلق الملائكة، ولا برهان لهم في قولهم هذا، فلا علم مشاهدة لديهم ولا علم عقل ولا علم كتاب ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتبعون في قولهم الباطل هذا ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّۖ﴾ أي: التوهم، والظن ليس بعلم، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾ أي: إنَّ الظن لا يجدي من الحق شيئًا، ولا يقوم مقام الحق أبدًا، والحقُّ في الآية معناه العلم القطعيُّ.

فإن قيل: كيف يصح أن يقال عن الكفار: إنهم لا يؤمنون بالآخرة، مع أنهم كانوا يقولون عن الأصنام: إنهم شفعاؤنا عند الله، فالجواب أن قولهم بشفاعة الأصنام على سبيل فرض البعث، أي: لو كان بعثٌ فهؤلاء شفعاؤنا، كما قال الرجل الكافر: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ [الكهف: ٣٦].

ثم خاطب الله نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ أي: فاترك - أيها الرسول - دعوة من أعرض عن ذكرنا، وهو القرآن، ولم يصغ له ولم يؤمن به، وسمَّى الله القرآن ذكرًا لما فيه من الوعظ والهداية، ولأنه مذكِّر بالله وبشرائعه، وإضافة الذكر الذي هو القرآن

إلى الله للتشريف، أو هو من إضافة المصدر إلى فاعله على أن الذكر بمعنى التذكير ﴿وَلَمْ يُرِدْ﴾ أي: ولم يطلب ولم يقصد ﴿إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ فآثر ما يفنى على ما يبقى، ووصفت هذه الحياة بالدنيا لدنوها زمنا، أي: لقربها، فإنها سابقة على الآخرة، ولدنوها منْزلة؛ لأنها دون الآخرة؛ قال النبي ﷺ: **«موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما عليها»**[(١)].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إرادة الحياة الدنيا وحدها ﴿مَبْلَغُهُم﴾ أي: الكفار ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: منتهى علمهم، وفي تسميته علمًا تهكم بهم وتسفيه لهم. المعنى: غاية ما تتعلق به هممهم الدنيا، وهو غاية ما وصل إليه علمهم، فهم للدنيا عاملون، وعن الآخرة عَمُون، وكان النبي ﷺ حريصا على هدايتهم، وكادت نفسه تذهب عليهم حسرات إذْ لم يؤمنوا، فقال الله له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢]، وقال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ولذا أمره هنا بالإعراض عنهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها الرسول ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ أي: انحرف ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: سبيل الحق وطريقه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ تكرار للتأكيد ﴿بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ أي: أعلم بمن اهتدى إلى سبيل الله، أي: تمسك بالتوحيد وأخلص في إيمانه، فهو تعالى أعلم بالفريقين الضالين والمهتدين، وقد أسند إلى كل فريق عمله من الضلال والاهتداء، وسيجازي كلًا بعمله.

### الفوائد والأحكام:

١ ـ أنَّ مسكَن الملائكة السماوات.

---

(١) البخاري (٢٧٣٥) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

٢ ـ كثرة ملائكة الله.

٣ ـ أن الملائكة لا يشفعون إلا لمن شاء الله.

٤ ـ أنهم لا يشفعون لأحد إلا بإذنه تعالى.

٥ ـ أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى.

٦ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٧ ـ قطع أطماع المشركين من شفاعة الملائكة.

٨ ـ أن من ضلال المشركين في الملائكة عبادتَهم من دون الله طمعا في شفاعتهم.

٩ ـ أن من ضلالهم اعتقادهم أن الملائكة بنات الله.

١٠ ـ أنه لا مستند لهم في هذا الاعتقاد لا من عقل ولا من نقل.

١١ ـ أن معوَّلهم في اعتقاداتهم محضُ الظن الذي هو خرصٌ وخيال.

١٢ ـ أن هذا الظن لا يهدي إلى حق.

١٣ ـ أن من أعرض عن ذكر الله وآثر الحياة الدنيا لا تجدي فيه الدعوة، ولا ترجى له الهداية، فعلى الرسول الإعراض عنه.

١٤ ـ أن مبلغ الكفار من العلم علم الحياة الدنيا.

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

١٦ ـ إثبات صفة العلم لله تعالى.

١٧ ـ أن الله أعلم بأحوال عباده الضالِّ منهم والمهتدي.

١٨ ـ أن الناس فريقان؛ ضال ومهتدٍ.

١٩ ـ الرد على الجبرية في نفيهم الأفعال الاختيارية؛ لقوله: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ و﴿بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

٢٠ ـ أن متعلَّق القسمة هو سبيل الله، وهو دينه.

٢١ ـ جواز وصف الله بصيغة التفضيل؛ كأرحم وأعلم وأكرم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

### المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان الإخبار من الله عن ملكه تعالى للسماوات والأرض وما فيهن، وعن حكمته في خلقهم ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ووصف الذين أحسنوا باجتناب كبائر الإثم والفواحش، ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته وسعة علمه، وأنه عالم بالعباد يوم أنشأهم من الأرض بخلق آدم من تراب، ويوم كانوا أجنة في بطون الأمهات، وهو أعلم بمن اتقى.

### التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اللام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ للمُلك، والجار والمجرور خبر مقدم، و﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مبتدأ، وتقديم الخبر للاختصاص، أي: لله وحده ما في السماوات وما في الأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا، لا لغيره، ولا شريك معه، فالملك العام في السماوات الأرض خاصٌّ بالله وحده، فهو سبحانه

الخالق لهذا الكون بما فيه من العوالم، والمدبِّر له بما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة، وبيده ملكوت كلِّ شيء، فهو سبحانه يتصرف في ملكه كيف شاء، لا معقب لحكمه ولا راد لأمره، وهذه الجملة كالتعليل لما سبق من تصرفه تعالى بمشيئته بالإضلال لمن يشاء والهدى لمن يشاء، وهو مع ذلك محيط بأعمال العباد، فيجازيهم على أعمالهم، ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾.

وكُرِّرت ﴿ما﴾ في قوله: ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للتأكيد، وللتنبيه على استقلال ما في السماوات بالتسبيح، واستقلال ما في الأرض بالتسبيح، وقدِّمت السماوات لعلوها ولعظمها وعظم ما احتوت عليه من الأملاك والأفلاك وغيرها، ولشرف سكانها، وجُمعت السماوات لأن كل سماء مستقلة عن السماء الأخرى، وأُفردت الأرض لأنها بخلاف ذلك، فبعضها متصلٌ ببعض.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: فيعاقب المسيء بإساءته ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ أي: ويثيب المحسن بالمثوبة الحُسنى التي لا مثيل لها، والحُسنى: اسم تفضيل مؤنث الأحسن، وتكرار الفعل ﴿وَيَجْزِيَ﴾ لتعظيم شأن الجزاء وتأكيده، ولتباين الجزاءين، وفي الآية إشارة إلى مضاعفة الحسنات، وفيها وعيد للكافرين، ووعد للمؤمنين، وتسلية للنبي ﷺ لما يلقى من تكذيب المشركين.

ثم وصف الذين أحسنوا بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ أي: يتركون ويحذرون ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: الآثام الكبائر، من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: الآثام الكبيرة، والكبيرة كل معصية رتِّب عليها حدٌّ أو لعن أو سخط أو براءة أو وعيد بنار، وما أشبه ذلك، كأكل الربا وقطع الطريق وعقوق الوالدين، وسمِّيت كبيرة لكِبَر عقابها، وأما الصغائر فهي

التي جاء فيها النهي فقط، وإذا أصرَّ العبد على الصغيرة وداوم على فعلها صارت كبيرة ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي: ويجتنبون الفواحش، جمع فاحشة، وهي ما تناهى قبحُه في الشرع والعقل كالزنى والسرقة، و﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ داخلة في الكبائر، فعطفها عليها من عطف الخاص على العام، وخصت بالذكر لمزيد قبحها.

قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ أي: إلا ما صغُر وقلَّ من الذنوب، من ألمَّ بالمكان إذا أقام فيه لِمامًا أي: قليلًا، والاستثناء في الآية منقطع، لأن الصغائر ليست من الكبائر. المعنى: أن المحسنين يجتنبون الكبائر لكن قد تقع منهم الصغائر، فيُلِمُّون بها أحيانًا، غير أنهم يتوبون منها ويندمون، ويغفرها الله لهم.

وفي الآية إشارة إلى أن الصغائر لا يمكن أن يجتنبها أكثر الناس، ولكن الله من كرمه وفضله يتجاوز عن الصغائر باجتناب العبد الكبائر، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء: ٣١]، وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ واسع اسم فاعل بمعنى الصفة المشبهة؛ لأنه مضاف إلى فاعله في المعنى، أي: واسعةٌ مغفرتُه، فهو تعالى يغفر للعبد ذنبه، أي: يتجاوز عنه ويستره، فبالتوبة يغفر جميع الذنوب حتى الشرك والكفر، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وبالحسنات يمحو السيئات.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الآية من فتح باب الرجاء للعبد وإن عظمت ذنوبه ما لا يخفى ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ﴾ أي: حين ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ بخلق أبيكم آدم من التراب ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ أي: وهو أعلم بكم حين كنتم أجنَّة جمع جنين ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ الجار والمجرور صفة لأجنَّة، ومعلوم أن الولد لا يسمى جنينا إلا إذا كان في بطن، ولكن في ذكر هذا الوصف فائدة، وهي التأكيد على كمال علمه تعالى وقدرته؛ فإن بطون الأمهات في غاية الظلمة والخفاء، فمن علم حال الجنين وهو في ظلماته الثلاث، فهو عالم بأحواله كلها بعد ذلك.

قوله سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: إذا علمتم ذلك فلا تُثنوا على أنفسكم وتصفوها بالزكاء من المعاصي ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ أي: هو تعالى أعلم بمن اتقى الله فزكَى، وهذا تأديب للمؤمنين ذُكر في سياق الثناء عليهم باجتناب الكبائر والفواحش؛ لئلا يأخذهم الإعجاب بالنفس فيحبط عملهم.

### الفوائد والأحكام:

١ ـ عموم ملك الله.

٢ ـ سعة ملك الله.

٣ ـ الحكمة من خلق السماوات والأرض وما فيهما، وهي الابتلاء الذي يستلزم الجزاء.

٤ ـ أن الجزاء من جنس العمل.

٥ ـ إثبات حكمة الله في أحكامه الجزائية؛ لقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾.

٦ ـ تعليل أفعاله تعالى؛ لقوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾.

٧ ـ الإبهام في جزاء السيئات حتى لا يضاف السوء إلى الله.

٨ ـ التصريح بالجزاء على الإحسان، وهو الحسنى.

٩ ـ أن من الإحسان اجتناب الإثم والفواحش.

١٠ ـ أن الذنوب منها كبائر وصغائر وبين ذلك.

١١ ـ أن المحسنين لا يقترفون الكبائر.

١٢ ـ أن المحسنين قد يقترفون الصغائر؛ لقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾.

١٣ ـ تكفير الصغائر باجتناب الكبائر، ويدل له قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء: ٣١].

١٤ ـ أن من أسمائه تعالى ﴿وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾.

١٥ ـ سعة مغفرة الله.

١٦ ـ إثبات علم الله.

١٧ ـ أن الله أعلم بأحوال عباده يوم أنشأ أباهم من الأرض، وحين كانوا أجنة في بطون أمهاتهم.

١٨ ـ جواز وصف الله بأفعل التفضيل في صفاته تعالى، كأعلم وأرحم وأشدّ قوة.

١٩ ـ الإشارة إلى ضعف الإنسان؛ ففيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾ [الروم: ٥٤].

٢٠ ـ سبق علم الله بأعمال العباد قبل وقوعها منهم.

٢١ ـ إثبات الربوبية الخاصة، وفيها: تشريف النبي ﷺ.

٢٢ ـ النهي عن تزكية النفس.

٢٣ ـ أنه تعالى أعلم بمن اتقى وزكّى نفسه بالتقوى.

٢٤ ـ أن تزكية النفس تكون بالتقوى.

ولما أمر الله نبيه ﷺ بالإعراض عمَّن تولَّى، وعلَّل الأمر المذكور بإحاطة علمه تعالى بمن ضلَّ ومن اهتدى، وأنه يجازي كلًّا بعمله، فرَّع على ذلك بذكر حال المتولِّي عن الإيمان إنكارًا عليه وتعجيبًا من حاله، فقال سبحانه:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

## المعنى الإجمالي:

يعجِّب الله نبيه من حال أحد المشركين العُتاة الذي تولى عن قبول الحق، ودعا بعضَ أصحابه أن يتحمل عنه ذنبه، ويعطيَه على ذلك مالًا، ولكنه أخلف وعده، وبخل فيما وعد ببذله، ثم إن الله تعالى يوبخه على طلبه من صاحبه أنه يتحمل عنه العذاب؛ إذ ذلك من الغيب الذي من ادَّعاه فقد افترى، ثم يذكِّره تعالى بما في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام مما يكذب هذا المفتري في دعواه، وينذره عذاب الله الذي جرت به سنته في المكذبين.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أي: أنظرتَ فعلمتَ شأن هذا الكافر الذي تولّى عن قبول الإسلام ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ من المال ﴿وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ أي: بخل وانقطع عطاؤه، من قولهم: أكدَى حافرُ الأرض، إذا وجد كُدية، أي: صخرة شديدة، فوقفته عن الحفر، ومنه قولهم: أجبل الحافرُ إذ انتهى إلى جبل، وقوله: ﴿وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ كناية عن انقطاع العطاء، والذي عليه أكثر المفسرين ـ ولم يأت به خبر مسند صحيح ـ أن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة حين همّ بالإسلام خوفا من العذاب، فلقيه أحد أصحابه من المشركين، فأشار عليه بترك ما همّ به، ووعده أن يتحمل عنه العذاب على أن يعطيه قدرًا من المال، ولكن الوليد أعطاه شيئًا قليلًا ثم منع الباقي، فأنزل الله الآيات في ذمّه أوّلًا بأنه أعرض عمّا هم من الإسلام، وثانيًا بأنه بخل وأخلف ما وعد به ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ الاستفهام للإنكار والذم، أي: أعند هذا المتولي علمُ الغيب فهو يرى أن الله سيرضى أن ينوب غيرُه عنه في العذاب؟!

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ أي: ألم يخبَر بما في صحف موسى عليه السلام، وهي التوراة التي كتبها الله له في الألواح، و﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة، والاستفهام للإنكار، أي: النفي، وقد دخل على حرف نفي ﴿لَمْ﴾، ونفي النفي إثباتٌ وتحقيقٌ، فآل الاستفهام إلى التقرير، أي: قد بلغه ذلك حقًّا ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: وصحفِ إبراهيم ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ أي: أدّى جميع ما أُمر به، وصبر على أذى قومه حتى ألقوه في النار، وهمّ بذبح ابنه امتثالًا لأمر ربه، وترك أهله بواد غير ذي زرع، قال تعالى مثنيًا عليه: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]،

وتخصيص إبراهيم وموسى بالذكر لأن ما ذكر من الأحكام موجود في صحفهما، وتأخير إبراهيم مع تقدمه في الزمن ليتصل الثناء بذكره.

ثم شرع في بيان ما أُبهم في قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ فقال سبحانه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي: نفسٌ وازرةٌ ﴿وِزْرَ﴾ نفسٍ ﴿أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أي: أنه لا تحمل نفسٌ ذنبَ غيرها، ولا يؤخذُ أحدٌ بجريرة غيره، وهذا حكم ثابت في حكم الله الشرعي أي في الدنيا، والجزائي أي في الآخرة، وفي ذلك إبطال قول من ضَمِن للوليد بن المغيرة أن يحمل عنه الإثم ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ﴾ أي: جنس الإنسان ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي: إلا ما عمل، فالسعي هو العمل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل: ٤]، أي: ليس للإنسان من الأجر إلا أجرُ كسبِه الذي عمِله هو بنفسه.

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الميت لا ينتفع بعمل الحي إلا ما جاء به الدليل؛ مثل الحج عنه والصدقة والعتق والأضحية والاستغفار له وقضاء دينه، وما لم يرد به دليل ففيه خلاف بين العلماء، وعلى هذا فلا يشرع للإنسان أن يصلي أو يقرأ القرآن ثم يهدي ثواب ذلك للميت؛ لعدم ورود الدليل بمشروعيته، ولقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ فليست هذه الصلاة والقراءة مِن سَعي من أهديت له من الموتى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي: سوف يَرى العامل - من غير شكٍّ - جزاء عمله في الآخرة، تشريفًا للمحسن، وتوبيخًا للمسيء، و﴿سَوْفَ﴾ حرف استقبال يفيد تأكيد الوعد ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أي: يُجزى عليه الجزاءَ التامَّ دون نقص، حسنًا كان أم سيئًا.

فهذه الأمور المذكورة بعد قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾

منصوصٌ عليها في صحف موسى وإبراهيم، دون قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾، فإجمال المعنى في هذه الصحف ثلاثة:

١ ـ أن الله لا يأخذ أحدًا بذنب أحد.

٢ ـ أن كلَّ نفس رهينةٌ بما كسبت، وسترى كسبها يوم القيامة.

٣ ـ أنها تُجزى على عملها الجزاءَ الأوفى.

وعلى هذا يكون قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ معطوفًا على قوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ أي: وألَم ينبَّأ بأنَّ إلى ربك المنتهى.

ويحتمل ـ وهو أظهر ـ أن يكون قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ وما بعده إلى قوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ مذكور في الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى؛ فإن الكتب السماوية فيها تذكيرٌ بأن المنتهى إلى الله، وأن بيده تعالى ملكوت كلِّ شيء من الخلق والرِّزق والإحياء والإماتة، وسائر أحوال العباد، ولا شك أن الإخبار عن هذه الأمور بأنها مما تواطأت عليه الكتب السماوية أوقعُ في النفوس وأدعى إلى الإيمان بها، لا سيما أن هذه الآيات خطاب للمشركين، فالسورة مكية.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ أي: إلى ربك ـ وحده ـ مرجع الخلائق كلهم بعد الموت فيجازيهم بأعمالهم، والمُنتَهى مصدر ميمي بمعنى الانتهاء، وفي الآية وعد ووعيد، وفي معنى هذه الآية آيات؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥]، و﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨]، ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ أي: وأنه تعالى جعل

الإنسان يضحك ويبكي ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾ أي: تفرَّد بالإماتة والإحياء، وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ في الآيتين للحصر وبيان أن ذلك مختص بالله وحده ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ أي: وأنه تعالى أوجد الصنفين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ من الإنسان، أي: خلقهما ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: من ماء قليل، وهو المنيُّ ﴿إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦﴾ أي: تدفق في الرحم، ولم يؤت بضمير الفصل هنا لعدم توهم الشركة في الخلق، خلافًا لما قبله ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٤٧﴾ أي: وأنَّ على الله ـ وحده ـ الإيجاد الثاني للبعث والجزاء، ولما كان المشركون يجادلون في ذلك ويشكون فيه أكَّد الله ﷻ ذلك بإيجابه على نفسه بقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ أي: أغنى مَن شاء بالمال ﴿وَأَقْنَىٰ ۝٤٨﴾ أي: أكسبَه ما يُقتَنى، أي: ما يُحفظ وينتفع به ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩﴾ أي: وأنه تعالى هو ربُّ الكوكب العظيم ﴿ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩﴾ ومكانها خلف الجوزاء، وتخصيصها بالذكر لأن قبيلة خزاعة كانت تعبدها في الجاهلية، فأخبر سبحانه بأن الشِّعْرى مربوبة لله ومخلوقة، فلا تكون إلهًا.

ولما ذكر تعالى ربوبيته العامة والخاصة، وأنه المتصرف في خلقه بالإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة، والعطاء والمنع؛ ذكر أن من آثار ربوبيته وسلطانه إهلاكَ الأمم المكذبة للرسل: عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط، وفي كل ذلك ردٌّ على المشركين، وتهديدٌ لهم أن يحل بهم ما حلَّ بالظالمين، فقال سبحانه:

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠﴾ أي: القديمة، فـ ﴿ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠﴾ وصفٌ كاشف، وليس قيدا، بمعنى أنه ليس هناك عاد ثانية، وعاد هم قوم هود ﵇، وهم أول العرب البائدة، أهلكهم الله بريح صرصر عاتية لما

كذبوا رسولهم، وكانوا بعد قوم نوح عليه السلام، كما قال نبيهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

قوله سبحانه: ﴿وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ أي: أهلك الله ثمودَ، وهم قوم صالح عليه السلام، فما أبقى منهم أحدًا ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلك قومَ نوح من قبلِ عادٍ وثمود؛ لأنهم أول الأمم المكذبة، ورسولهم نوح أول الرسل ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ أي: أشدَّ ظلمًا وطغيانًا، وذلك أن نبيَّ الله نوحًا عليه السلام أقام بين ظهرانَيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، فما آمن معه إلا قليل، وقال الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ [نوح: ٥ ـ ٦].

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ أي: والقرى المنقلبة، وهي قرى قوم لوط، وهي مفعول به مقدَّم لـ ﴿أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ أي: أسقطها الله، وجعل عاليها سافلها ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ أي: فغطَّاها الله ما غطَّاها من حجارة العذاب، و﴿مَا﴾ مفعول ثانٍ، والإبهام فيها للتهويل، أي: غطَّاها شيئًا عظيمًا من الحجارة، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: ٦٨]. وإنما اقتصر على المذكورين من المهلَكين لشهرة أخبارهم عند العرب.

وإن هذا البيان من الله عز وجل والتذكير والإنذار والتحذير لـمِن نِعمه تعالى على العباد؛ ليَهلِك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ﴾ جمع إِلًى وأَلًى ـ بكسر الهمزة وفتحها ـ وهي النعمة ﴿رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ أي: بأيِّ نعم ربك تشكُّ أيها الإنسان؟! وفي هذا إشارة إلى أن إرسال الرسل والإيمان بهم ثم النجاة من العذاب نعمةٌ أيُّ نعمة، وهذا ـ والله أعلم ـ سر ختم المقطع بهذه الآية.

## الأحكام والفوائد:

١ ـ أن من طريقة القرآن في الإخبار عن بعض السعداء أو الأشقياء عدمَ التعيين بالاسم ليكون اللفظ عامًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾، وقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الليل: ١٧].

٢ ـ أن من أحوال بعض الكفار الجمع بين الكفر والصد عن سبيل الله، وافتراء الكذب على الله.

٣ ـ أن من أخلاق بعض الكفار البخل وإخلاف الوعد، وقد اجتمعت هذه الخصال فيمن ذكر الله حاله في هذه الآيات.

٤ ـ ذمُّ البخل وإخلاف الوعد.

٥ ـ أن الافتراء على الله يتضمن دعوى علم الغيب.

٦ ـ أنه ليس في حكم الله الجزائيِّ أنَّ أحدًا يحمل عن أحد وزره.

٧ ـ أن من ادعى ذلك فهو مفتر على الله، ومخالف لما أنزل الله في كتبه على أنبيائه.

٨ ـ أن مما أنزل في ذلك ما أنزله الله في صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام.

٩ ـ ثناء الله على إبراهيم عليه السلام بأنه وفَّى ما كلف به.

١٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

١١ ـ أنه لا يحمل على أحد وزرُ غيره.

١٢ ـ أن سعي كل عامل خاص به.

١٣ ـ أنه ليس للإنسان إلا عمله، فلا يكون عمله لغيره، ولا يكون عمل غيره إلا له؛ لقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾، فثوابه له.

١٤ ـ أنه لا ينتفع الأموات بعمل الأحياء إلا ما دلَّ عليه الدليل، كما جاء في الحديث: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[(١)].

١٥ ـ أن كل إنسان سيرى عمله؛ لقوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾، ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة: ٧] الآية.

١٦ ـ أن كلَّ عامل سيجزى جزاءه الأوفى.

١٧ ـ أن إلى الله منتهى كلِّ شيء، فمنه المبدأ وإليه المنتهى.

١٨ ـ أن الله هو الذي يجعل العبد فاعلًا لأفعاله الاختيارية والانفعالية.

١٩ ـ أنه تعالى هو الذي أمات وأحيا، وهو الذي يحيي ويميت.

٢٠ ـ أنه تعالى خالق زوجي الإنسان الذكر والأنثى، وهو تعالى خالق كل ذكر وأنثى.

٢١ ـ أن مبدأ خلق الإنسان من نطفة المنيِّ.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: ٣٧].

٢٣ ـ إثبات كمال قدرته تعالى، حيث يخلق الشيء وضده.

٢٤ ـ أن الله أوجب على نفسه النشأة الأخرى، وهي نشأة القيامة، وهي النشأة الثانية. ونشأة الدنيا هي النشأة الأولى.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٥ ـ الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، وهي البعث.

٢٦ ـ أن الله تعالى قد أغنى خلقًا كثيرًا وأقنى، فهو الغني المغني لمن شاء.

٢٧ ـ أنه تعالى هو المعطي للإنسان ما يقتنيه من حوائجه.

٢٨ ـ أنه تعالى هو رب الشِّعرى، فهو خالقها ومدبرها، وهو خالق كل شيء، ففيه:

٢٩ ـ أن الشِّعرى مربوبة مخلوقة، فكيف تكون معبودة؟!

٣٠ ـ عظم شأن الشِّعرى عند العرب، وهي الثريا، أو مِرْزم الجوزاء، وكانت من معبوداتهم.

٣١ ـ أنه تعالى هو المهلك للأمم المكذبة للرسل من عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط.

٣٢ ـ أن أطغى الأمم وأظلمها قوم نوح.

٣٣ ـ أن قرى قوم لوط أهواها الله بأن جعل عاليها سافلها.

٣٤ ـ أن الله غشَّى قرى قوم لوط بعدما قلبها مطرًا من حجارة من سجيل.

٣٥ ـ أن بيان كلِّ ما تضمنته الآيات السابقة نعمة من نعم الله على عباده، يجب الإقرار بها، وعدم الشك فيها؛ لأنه قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ أي: تشكُّ.

٣٦ ـ أن هذه الآية نظير ما في سورة الرحمن من قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، بعد كل آية من آيات الخلق والوعيد.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات إخبارات وتوبيخات وأمرًا بالعبادات:

١ـ فأخبر تعالى أن ما تقدم من الآيات من الإخبار بإهلاك قوم عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط أنها من النُّذر الأولى التي جاء ذكرها في صحف إبراهيم وموسى.

٢ـ وأخبر تعالى عن اقتراب يوم القيامة، وأنها إذا جاءت فلا دافع لها من دون الله.

٣ـ توبيخ المشركين على استخفافهم بهذا القرآن، فهم منه يتعجبون ويضحكون، ولا يبكون، بل هم عند سماعه لاهون.

٤ـ ختم السورة بالأمر بالسجود لله وعبادته بما شرع من العبادات.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ نذير مصدر بمعنى الإنذار، أي: هذا الذي ذُكر لكم من أخبار المهلكين وما أُوقع بهم من النَّكال والعذاب ﴿مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ أي: من الإنذارات المتقدمة التي ذُكرت في صحف الأنبياء السابقين، كموسى وإبراهيم، فالأمم الغابرة أنذروا بالخبر عن الأمم الهالكة المعذَّبة، وأنذرنا نحن بالخبر عن نُذُرهم.

وفسّر ﴿نَذِيرٌ﴾ بأنه محمدٌ ﷺ، فنذِير على هذا صفة مشبَّهة، أي: مُنذرٌ من جنس الأنبياء قبله، أي: ليس بدعا من الرسل.

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾ أي: قرُبت القيامة، وحان حِينُها، وسميت آزِفة لقربها، من أَزِف الرحيل إذا قرُب، وقد وصفت القيامة بالقُرب في آيات كثيرة من القرآن، كما قال تعالى في السورة الآتية: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ [الأحزاب: ٦٣]، فالقيامة قريبة وإن ظن الناس أنها بعيدة، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج: ٦ ـ ٧].

قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ أي: ليس للقيامة من يقدِر على كشفها ويزيل كربها إلا الله، فكاشفة اسم فاعل، زيدت التاء فيه للمبالغة، مثل راوية ونابغة، أي: ليس لها كاشف قادر على ردها ودفعها سوى الله، وبعض العلماء فَسَّر كشْفها بمعرفة وقت وقوعها، والقول الأول أظهر؛ لأن لفظ الكشف في جميع موارده في القرآن جاء بمعنى الرفع والإزالة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ٤٠ ـ ٤١].

ولما كان المشركون يهزؤون بالقرآن حين يقص عليهم أخبار الماضين قال الله منكرًا عليهم: ﴿أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن، وسمَّاه الله حديثًا لأنه كلامٌ تكلم الله به بمشيئته ﴿تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾ أي: تعجبون منه إنكارًا له وتكذيبًا؛ لأن العَجَب لا يكون إلا من الأمور المستغربة، والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ سخرية واستهزاءً عند سماعه، وهذا خُلُقٌ لهم متكرر كلَّما تلي القرآن ﴿وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾ لزواجره وعظاته، فحقُّ القرآن أن يُبكَى عند سماع آياته لما تضمنه من الوعيد والوعد، ومن ذكر صفات الله؛ حبًّا لله وشوقًا وخشية وإجلالًا ﴿وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ۝٦١﴾ أي: معرضون عنه مستكبرون لاهون.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ أي: صلُّوا لله فرضًا كان أو تطوعًا، وأجلُّ ذلك الصلوات الخمس، والتعبير عن الصلاة بالسجود راجع لعظم شأنه، فالسجود أعظم أركان الصلاة، وأقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ﴿وَٱعْبُدُواْ ﴿٦٢﴾﴾ أي: اعبدوه تعالى بجميع أنواع العبادات، وعطف ﴿وَٱعْبُدُواْ ﴿٦٢﴾﴾ على ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ من عطف العام على الخاص إظهارًا لشرف الصلاة وفضلها، وقد ثبت عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قرأ النبي ﷺ ﴿ٱلنَّجْمِ﴾ بمكة، فسجد فيها وسجد من معه، غيرَ شيخ أخذ كفًّا من حصى أو تراب، فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا. فرأيته بعد ذلك قُتل كافرًا[1]. والرجل هو أميَّة بن خلف.

### الفوائد والأحكام:

١ ـ أن نُذُر الله الكونية والشرعية لم تزل سنةً من سنن الله في الأولين والآخرين.

٢ ـ اقتراب القيامة، وأن من أسمائها الآزفة.

٣ ـ أنه لا يقدر على كشف أهوالها أحدٌ من دون الله.

٤ ـ الإخبار بأن القرآن حديث؛ أي: كلامٌ محدثٌ، وشواهد هذا المعنى كثيرة، ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٤]، وقال سبحانه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الواقعة: ٨١].

٥ ـ ذمُّ المشركين بالإعراض عن سماع القرآن، وباللهو عند تلاوته.

٦ ـ ذمُّهم وتوبيخهم على الاستخفاف بالقرآن بالتعجب والضحك عند سماعه، واللائقُ أن يبكوا، كما هي حال المؤمنين الذين يعلمون ما

---

(١) رواه البخاري (١٠١٧) ومسلم (٥٧٦).

للقرآن من عظيم الشان، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

٧ ـ الندب إلى البكاء عند سماع القرآن.

٨ ـ التضادُّ بين أحوال المؤمنين وأحوال المشركين عند تلاوة القرآن.

٩ ـ النهي عن أحوال المشركين عند سماع القرآن، والأمرُ بضدها.

١٠ ـ وجوب السجود طاعة لله في الصلوات الخمس وغيرها.

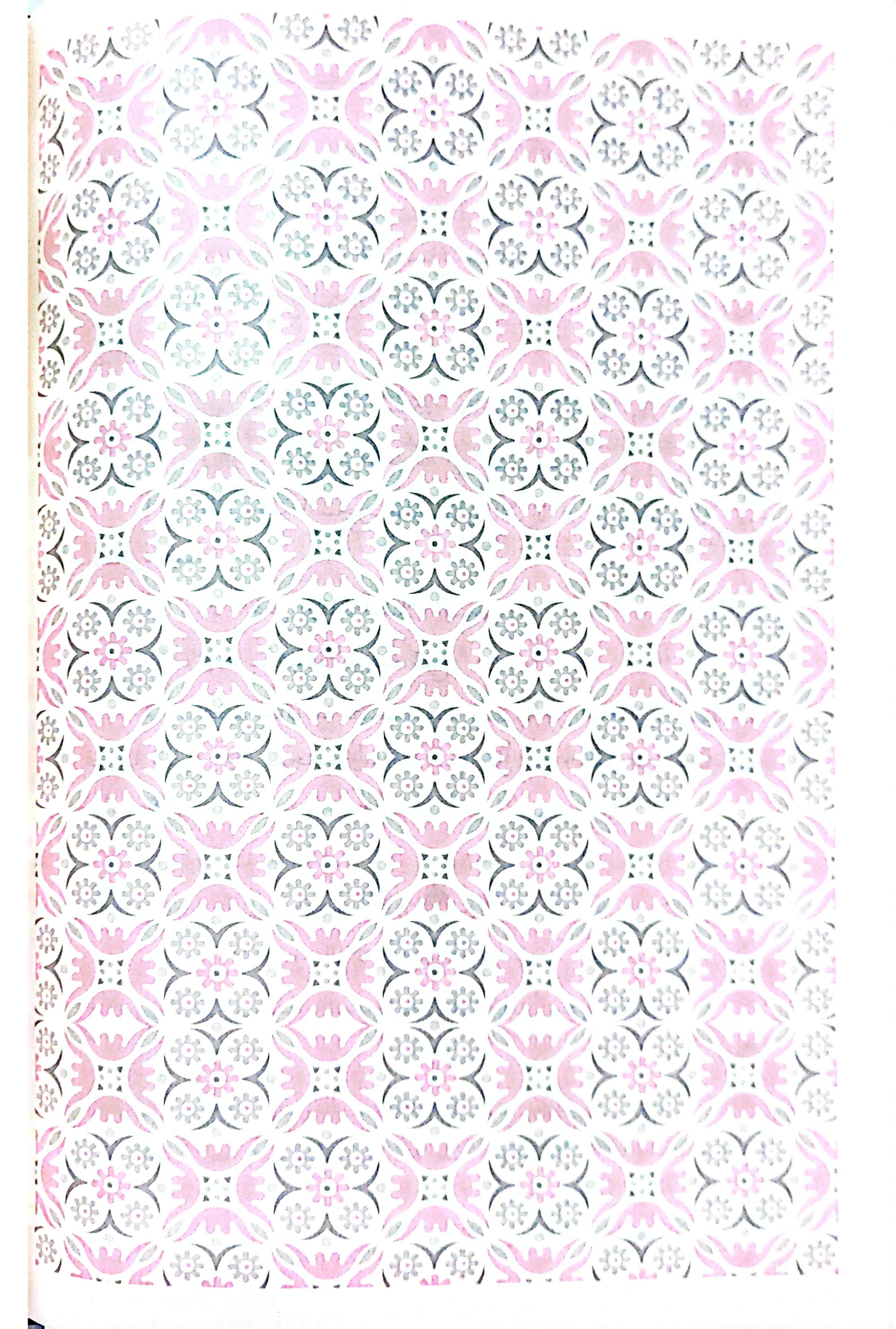
١١ ـ مشروعية السجود عند تلاوة القرآن في المواضع التي ورد السجود فيها.

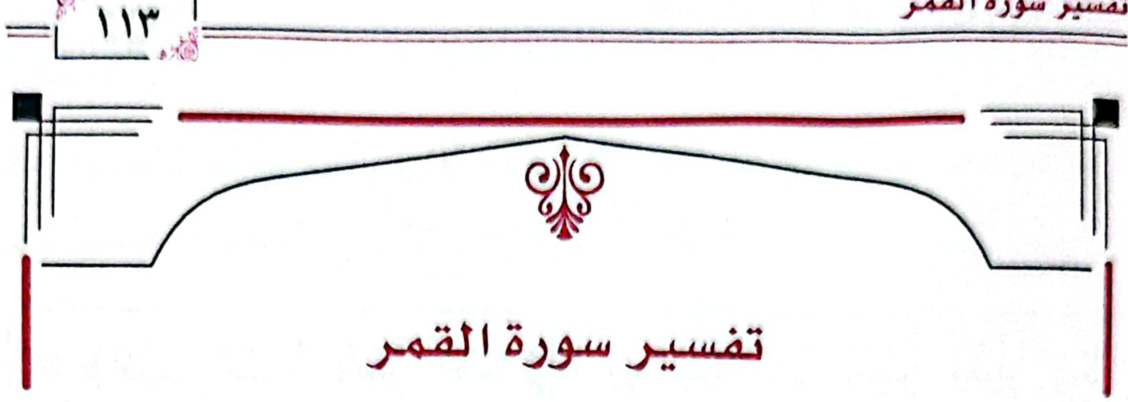
١٢ ـ أن أفضل أركان الصلاة السجود.

١٣ ـ وجوب عبادة الله بما شرع.

١٤ ـ عظم شأن ما تضمنته هذه السورة من المعاني، ولهذا لما قرأها النبي ﷺ سجد، وسجد معه كلٌّ من حضر من المؤمنين والمشركين.







# تفسير سورة القمر

هذه السورة مكية، وعدد آياتها خمس وخمسون، تضمنت الآيات الثمان الأولى الخبر عن قرب الساعة وانشقاق القمر، وذم المشركين بإعراضهم وتكذيبهم مع ما جاءهم من الأخبار الزواجر، مع الإشارة إلى حكمة الله في عدم الانتفاع بالنُّذُر، مع ذكر بعض مشاهد القيامة من أحوال الناس عند خروجهم من القبور.

وتضمنت الآيات من التاسعة إلى الثانية والأربعين عرضًا مجملًا لقصة قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون وتكذيبهم لرسلهم وإهلاك الله لهم، والتعقيب في إثر كل قصة بالتذكير بتيسير القرآن لمن أراد أن يتذكر.

وتضمنت الآيات من الثالثة والأربعين إلى آخر السورة تهديد مشركي قريش بأن يحل بهم ما حلَّ بمن قبلهم من المكذبين، وبالهزيمة يوم يلتقون مع المسلمين، وبما يلقونه يوم القيامة من عذاب النار، مع دعوتهم إلى التذكر بما جرى على من قبلهم من الأمم، وذكر إحصاء أعمالهم في الزُّبُر، وختم السورة بعاقبة المتقين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات الإخبار باقتراب الساعة وانشقاق القمر، وتكذيب المشركين بذلك متبعين لأهوائهم مع ما جاءهم من أنباء المكذبين الماضين وإهلاك الله لهم، وأنَّ لله حكمة بالغة في عدم انتفاعهم بما جاءهم من النذر الكونية والشرعية، لذلك يأمر الله نبيَّه بالإعراض عنهم، ثم أخبر تعالى بصفة خروج الناس من القبور منتشرين ومسرعين، وهو يوم على الكافرين عسير.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: قرُبت القيامة، والزيادة في حروف الفعل لتأكيد قربها، أي: اقتربت جدًّا، والساعة عَلَمٌ بالغلبة على القيامة، وسُمِّيت القيامةُ ساعة؛ لأنها تفجأ الناس بغتة، أو لأنها تقع في ساعة من الزمان، وأقلُّ ما يصْدُق عليه اسم الساعة اللحظةُ ونحوها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال تعالى في

آخر هذه السورة: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٥٠]، ويلاحظ التناسب بين أول هذه السورة وآخر السورة السابقة ـ النجم ـ في قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝٥٧﴾ [النجم: ٥٧].

وفي إخبار الله عن اقتراب الساعة إنذار للكفار ليرتدعوا عن كفرهم، وتذكير للمؤمنين ليتزودوا من العمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ أي: صار القمر شقَّين، وكان هذا قبل الهجرة من مكة بخمس سنين، فقد روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر[1]، وفي رواية للبخاري عن أنس: «أراهم القمر شِقَّين، حتى رأوا حراء بينهما»[2].

وجاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لهم: «**اشهدوا**»[3]، وأخرج الترمذي عن أنس قال: فانشق القمر بمكة مرتين، فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾[4].

فانشقاق القمر من أعظم المعجزات الدالة على صدق نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وهو في الوقت نفسه نذير بانتهاء الحياة الدنيا وفناء هذ العالم، من وجهين:

**الأول**: أن انشقاق القمر من علامات الساعة، كما قال عبد الله بن مسعود: خمس قد مضين: الدُّخان، واللِّزام، والرُّوم، والبطشة، والقمر.

---

(١) البخاري (٣٤٣٨) ومسلم (٢٨٠٨).
(٢) البخاري (٣٦٥٥).
(٣) البخاري (٣٤٣٧) ومسلم (٢٨٠٠).
(٤) الترمذي (٣٢٨٦) وقال: حسن صحيح.

ويؤيده اقتران ذكر انشقاق القمر بذكر اقتراب الساعة[١].

**الثاني**: أنه إذا انشق القمر، وهو جِرم عظيم، فغيره كذلك قابل للانشقاق ثم الفناء.

والمشركون طلبوا هذه الآية ومع ذلك لم يؤمنوا، ولم يحلَّ بهم العذاب، وهذا من رحمة الله بأمة محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ﴾ أي: المشركون ﴿ءَايَةٗ﴾ أي: علامة دالة على وحدانية الله وصدق رسوله ﷺ ﴿يُعۡرِضُواْ﴾ عن الإيمان بها، و﴿ءَايَةٗ﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم، أي: يعرضون عن أيِّ آية ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢﴾ أي: قويٌّ مستحكم من المِرَّة وهي القوة، أو مستمر بمعنى مارٍّ ذاهبٍ عن قريب يزول، وقال بعض المفسرين: مستمر أي: دائم، وكان الكفار يصفون النبي ﷺ بأنه ساحر، ويقولون عن القرآن إنه سحر، ويقولون ذلك عن سائر المعجزات، وهذه دعاوى المفلسين من الحجة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ أي: وكذبوا الرسول ﷺ وبما جاء به من الآيات ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ التي زينتها لهم شياطينهم وأنفسهم الأمارة بالسوء من الباطل والتكذيب ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ﴾ الجملة مستأنفة، أي: كلُّ أمرٍ من خير أو شر ﴿مُّسۡتَقِرّٞ ٣﴾ أي: منتهٍ إلى غاية وإن طالت مدته، فالخير ينتهي بأهله إلى الجنة، والشر ينتهي بأهله إلى النار، فالآية وعد للرسول ﷺ ووعيد للمشركين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم﴾ أي: كفار مكة ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ جمع نبأ، وهو الخبر الذي له شأن، وليس مطلق الخبر، كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود: ٤٩]، وكقوله: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ

(١) البخاري (٤٧٦٧) ومسلم (٢٧٩٨).

عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ [ص: ٦٧]، فقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي: من أنباء الأمم المتقدمة وما حلَّ بهم من العذاب ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾ أي: فيه زجرٌ لهم عن الشر، فتلك الأنباء كافية لردعهم عن ضلالهم لو عقلوا، ولهذا قال سبحانه: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي: تلك الأنباء حكمة، أي: فيها أعظم الحكمة لهم لو تفكروا ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ أي: بالغةٌ غايتَها في الهداية والإرشاد، وفسِّرت الحكمة بالقرآن، والقولان متلازمان ﴿فَمَا تُغْنِ﴾ أصلها تغني، حذفت الياء اتباعًا لرسم المصحف ﴿ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ جمع نَذِير بمعنى إنذار، أي: لا تنفع فيهم الأمور التي أُنذوروا بها؛ لأنه قد حقَّ عليهم القول، وختم الله على سمعهم وأبصارهم، فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

قوله سبحانه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ الفاء للتفريع، والخطاب للنبي ﷺ، أي: إذا كان هذا حالهم من الإعراض بعد قيام الحجة عليهم فتولَّ عن هؤلاء المشركين المكذبين، أي: أعرض عنهم، ولا تذهب نفسُك عليهم حسرات، وهاهنا وقف لازم في المصحف، فيقف القارئ عند قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ لأنه لو وصل لأوهم أن التولِّي يكون يوم يدعو الداعي، وليس كذلك؛ فتوليه ﷺ ليس يوم يدعو الداعي، ولكنه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكُرْ يوم يدعو الداعي، قاله بعض المفسرين، والأظهر أنه منصوب بقوله: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: يخرجون يوم يدعوهم الداعي، وهو الملَك الموكل بالنفخ في الصور ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾﴾ أي: إلى شيء منكر فظيع تنكره النفوس لما فيه من الأهوال وأسباب

الخوف، وهو يوم القيامة، وحذفت الواو من ﴿يَدْعُ﴾ والياء من ﴿ٱلدَّاعِ﴾ اتباعا لرسم المصحف.

قوله سبحانه: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ خُشَّع جمع خاشِع، وهو حال من الواو في ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أي: يخرجون خاشعةً أبصارهم، أي: ذليلةً منكسرة لا يواجهون بها الناس في ذلك اليوم ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور، جمع جَدَث، أي: يخرجون من القبور وهم في فزع وحيرة حين يسمعون الداعي، فيسيرون نحوه يموج بعضهم في بعض ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ أي: هم كالجراد في كثرتهم وتفرقهم وفي الوجهة، فالجراد له جهة يقصدها غالبا، فهذا وجه تشبيههم بالجراد، وفي سورة القارعة شبَّههم الله بالفَراش المبثوث، أي: المنتشر في كل مكان بلا نظام، وهذه صورة الناس في أول خروجهم من القبور قبل أن يسمعوا الداعي ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ حال بعد حال، أي: مسرعين إلى الداعي، وهو الملَك الذي يدعوهم، لا يجدون مفرًّا من ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨].

قوله سبحانه: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ أي: عسير صعب؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ٩ ـ ١٠] لما فيه من الشدائد والأهوال التي تندك لها الجبال، وتشيب لها الولدان، ولكنه يسير على المؤمنين.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ اقتراب الساعة ـ القيامة ـ وذلك بمجيء أشراطها.

٢ ـ انشقاق القمر فصار فِلْقتين.

٣ ـ مكابرة المشركين في انشقاق القمر، حتى قالوا: إنه سحر.

٤ ـ إثبات معجزة للنبي ﷺ بانشقاق القمر، وهي أعظم معجزاته الكونية.

٥ ـ تكذيبهم بيوم القيامة، وتكذيبهم للنبي ﷺ مع ظهور الآيات على صدقه.

٦ ـ أن الحامل لهم على التكذيب اتباعُ أهوائهم.

٧ ـ ذمُّ اتباع الهوى، وأنه مصدر كلِّ شرٍّ على من اتبعه.

٨ ـ أن كلَّ أمر أخبر الله به مما كان وما يكون: له مستقَرٌّ، وسيصير إليه ذلك الأمر ويستقر فيه.

٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]، وقال تعالى في الجنة: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان: ٧٦]، وقال في النار: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٦].

١٠ ـ الإعذار إلى الكفار بما جاءهم من المعجزات والأنباء الزاجرة عن الإصرار.

١١ ـ إثبات حكمة الله في إضلال الضالين.

١٢ ـ أن من أصرَّ على الكفر أو العصيان بعد قيام الحجة بالبينات والبرهان؛ فينبغي الإعراض عنه؛ لأنه لا جدوى في دعوته.

١٣ ـ أن الناس يُدعَون من قبورهم ليخرجوا فيشهدوا أمرًا عظيمًا.

١٤ ـ ذكر أحوالهم عند الخروج من القبور خاشعة أبصارهم منتشرين ومسرعين.

١٥ ـ أن ذلك اليوم عسير على الكافرين يسير على المؤمنين.

١٦ ـ إثبات البعث.

ثم ذكر الله تفاصيل تلك الأنباء المتقدمة؛ فقال سبحانه:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى في هذه الآيات عن قوم نوح وتكذيبهم لنبيهم وعيبهم له واستنصاره عليه السلام ربَّه عليهم، وإجابة الله دعاءه، ونصره له بإغراق قومه بما أنزل من السماء، وما فجَّر من عيون الأرض، وحمْله ومن معه على السفينة ذات الألواح، وترْك السفينة أو القصة آية يتذكر بها من تذكر، وتختم الآيات بالتنويه بفظاعة عذاب الله وإنذاره للمكذبين، وتختم بالامتنان من الله على العباد بتيسير هذا القرآن للتذكر به، والدعوة إلى هذا التذكر.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل كفَّار مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وإنذار لقريش ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ هذا تفصيل للتكذيب، وللدلالة على غلظ تكذيبهم لعظم شأن من كذَّبوه، وفي إسناد التكذيب إليهم جميعًا إشارة إلى أن المؤمنين منهم قليل، كما تشير الآية إلى أن نوحًا أراهم من الآيات ما أفحمهم وألجأهم إلى التكذيب ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ أي: به جنون، وهذه شنشنة المكذبين للرسل في كل زمان، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

ولقد بقي فيهم نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عامًا، وهو يدعوهم إلى الله، فما آمن معه إلا قليل، وأكثرهم كذَّبوه وآذوه ﴿وَٱزۡدُجِرَ ٩﴾ معطوف على ﴿وَقَالُواْ﴾ فهو خبر من الله، أي: زجروه ونهروه وتوعَّدوه بأنواع الأذى ليكفَّ عن الدعوة، وقالوا له: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦﴾ [الشعراء: ١١٦].

وحين يئس منهم نوح توجه إلى ربه يطلب نصره وعونه ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ في ذكر الربوبية مناسبة لقوله: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾؛ فشأن الرب أنه ينصر عبده وينتقم له، ولهذا لما دعا نوح ربَّه ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ﴾ أي: غلبني الكفار ﴿فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾ أي: فانتقِم منهم، فما أسرع ما أجاب الله دعاءه! ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١﴾ أي: غزيز ينصب انصبابًا شديدًا ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ عيونًا: منصوب على التمييز المحوَّل عن المفعول به، أصله: وفجَّرنا عيونَ الأرض، ثم أوقع الفعل على الأرض، ونصب عيونًا على التمييز، فجعلت الأرض كأنها عيون تتفجَّر، فهو أبلغ من أصله.

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ أي: التقى من علو ومن سُفل ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى لام التعليل أي: لأجل أمر مقدَّر، قدَّره الله في الأزل، وهو إهلاكهم أفظعَ إهلاك بهذا الماء العظيم الذي سمَّاه الله طوفانًا في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: ١٤]، ونجَّى الله نوحًا والفئة المؤمنة معه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾ أي: على السفينة المصنوعة من الألواح والدُّسُر، أي: المسامير، جمع دِسار ﴿تَجۡرِي﴾ على سطح الماء ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منَّا وحفظ منَّا، وفي الآية إثبات العينين لله عز وجل، وجمع العينين لإضافتهما إلى ضمير الجمع، والباء في ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ للمصاحبة، وتتضمَّن معية الله لهم، والجار والمجرور حال من الضمير في ﴿تَجۡرِي﴾ أي

محفوظة ﴿جَزَآءً﴾ مفعول لأجله، أي: أنجينا نوحًا وأغرقنا المكذبين ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤﴾ أي: جزاءً لنوح الذي كفر به وبرسالته قومُه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي: القصة كلَّها وإغراقهم بالطوفان ﴿ءَايَةً﴾ أي: أبقيناها عِظة عظيمة وعِبرة تعتبر بها الأجيال على مر القرون، وقيل: إن الضمير المنصوب في ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾ يعود على السفينة، ففي صحيح البخاري عن قتادة قال: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الأمة[1]، وهذا أظهر، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: ١٥]، ويؤيد هذا أيضا أنه لم يذكر في قصة عاد وثمود وغيرهم في هذه السورة أن الله جعل خبر إهلاكهم آية، وإن كان هو آية.

وأيًا ما كان فقصة إهلاك قوم نوح من أعظم الأحداث التي وقعت في التاريخ، وخبرها مستفيض عند جميع الأمم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٥﴾ أي: هل من معتبر، الاستفهام للتقرير والحث على التذكر، وأصل مدَّكر: مذْتكر، قلبت التاء دالا وكذلك الذال المعجمة، ثم أدغمت الدال في الدال ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ١٦﴾ جمع نَذِير بمعنى إنذار، أي: كيف وقع عذابي وإنذاري إياهم، والاستفهام للتعظيم والتهويل، وكذا إضافة العذاب إلى ضمير اسم الله، أي: كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ أي: سهَّلنا ﴿ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: للتذكر والاتعاظ والحفظ والتدبر ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٣٢﴾ أي: متعظ به، وفيه الحث على الاتعاظ بالقرآن العظيم، وما فيه من الأنباء الزاجرة والأخبار الواعظة.

---

(١) البخاري، تفسير سورة القمر، قبل الحديث ذي الرقم (٤٥٨٨).

## الفوائد والأحكام:

١ ـ فيها شاهد لما ثبت في الصحيح أن نوحًا عليه السلام أولُ الرسل إلى أهل الأرض[1]، ووجه ذلك البداءة بقصته في أول السور، ومنها هذه السورة.

٢ ـ أن قصة قوم نوح وما بعدها في هذه السورة هي تفصيل لما أجمل في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾ [القمر: ٤].

٣ ـ تشريف نوح عليه السلام بوصف العبودية الخاصة.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى في نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣].

٥ ـ أن تكذيب من كان أفضل من رسل الله أغلظ من تكذيب من دونه؛ لقوله: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾.

٦ ـ أن من سنة أعداء الرسل وصفهم بالجنون.

٧ ـ أن من سنة الأنبياء اللَّجأ إلى الله في قضاء الحاجات وتفريج الكروب، كما في سورة الأنبياء.

٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ الآية [الأنبياء: ٧٦ ـ ٧٧].

٩ ـ أن الأنبياء قد يُغلبون في أول الأمر، ثم تكون لهم العاقبة.

١٠ ـ إضافة الانتصار إلى الله، وهو الانتقام للمظلوم من الظالم.

١١ ـ صفة انتصار الله لعبده ورسوله من قومه المكذبين.

---

(١) البخاري (٤٤٧٦) ومسلم (١٩٣) عن أنس رضي الله عنه.

١٢ ـ صفة إغراق قوم نوح.

١٣ ـ نجاة نوح ﷺ ومَن آمن معه مِن الطوفان، بحمل الله لهم على السفينة.

١٤ ـ الإرشاد إلى صُنع السفينة.

١٥ ـ رعاية الله للسفينة ومن فيها بنظره فيها.

١٦ ـ إثبات العينين لله تعالى.

١٧ ـ أن كل ما ذُكر كان جزاء، أي: ثوابًا، لمن كُفِر، وهو نوح ﷺ، أي: كفر به.

١٨ ـ أن سفينة نوح هي أول سفينة جرت على الماء.

١٩ ـ أن الله جعل السفينة آية.

٢٠ ـ تيسير القرآن للتذكر به والدعوة إلى ذلك.

قال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

### المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات الخبر من الله عن تكذيب عاد لنبيهم هود ﷺ، وإهلاكهم بريح صرصر في يوم، أي: أيام نحِسات، فألقتهم الريح على الأرض صرعَى، كأنهم جذوع نخل، وختم الخبر عنهم بتهويل ما جرى عليهم من العذاب المدمِّر، كما افتتح بذلك، ثم جاء التعقيب بالخبر بتيسير القرآن للذكر، والدعوة للتذكر به.

**التفسير:**

قوم عاد هم بعد قوم نوح كما قال تعالى عن نبيِّهم هود: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

قوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ أي: كذَّبوا نبيهم هودًا عليه السلام ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ لعاد ﴿وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾ جمع نَذِير بمعنى إنذار، أي: كيف كان عذابي وإنذاري لهم، والاستفهام للتعظيم والتهويل، وفي هذا تهديد لقريش وغيرهم من الكفار.

ثم فصَّل الله ما وقع بعاد من العذاب فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع للتعظيم، وأضاف الإرسال إلى نفسه تهويلًا للعذاب ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: ريحا عظيمة باردة ذات صوت مفزع ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أي: شؤم وشرٍّ ﴿مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ أي: دائم عذابُه لا يفتر عنهم، والمراد باليوم الجنس فيشمل الأيام كلها؛ لأنها كانت ثمانية أيام، كما قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، وإضافة ﴿يَوْمِ﴾ إلى ﴿نَحْسٍ﴾ من إضافة الزمان إلى ما يقع فيه، كقولهم: يوم فتح مكة، وليس في الآية ما يدل على جواز التشاؤم بالأيام؛ لأنَّ ما وقع في ذلك اليوم ليس من فعل اليوم، بل من فعل الله.

قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: تقتلعهم من الأرض فترمي بهم في جهاتها، والمراد بالناس الكفار، وهو من وضع الظاهر موضع المضمر لإفادة العموم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ أي: أصول ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: منقلع من الأرض ساقط عليها، وفي الآية إشارة إلى أن الريح قطعت رؤوسهم، فصاروا صرعى على الأرض، ولا رؤوس لهم، وشبِّهوا بالنخل لطول أجسامهم وعِظَمها، ولهذا قال لهم نبيهم هود: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال لهم: ﴿وَإِذَا

بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ [الشعراء: ١٣٠]، وتذكير النخل هنا باعتبار الجنس، وتأنيثه في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٧] باعتبار الجماعة، وذلك مراعاة للفواصل مع ما فيه من التنويع.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ هذا تهويل للعذاب، أي: كان هائلًا عظيمًا، وأعاد الله ذلك تأكيدًا للإنذار والتهديد، ودعوة إلى الإيمان والتصديق ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهَّلناه للتذكر والعظة والحفظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: هل من متَّعظ بنبأ عاد، وما حلَّ بهم من العذاب الماحق، وتكرير الآية للتأكيد وتجديد التنبيه على التذكر والاتعاظ.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ تكذيب عاد لنبيهم هود.

٢ ـ إهلاكهم بالريح الصرصر.

٣ ـ إعذار الله للمكلفين بإرسال الرسل، وإرسال النذر.

٤ ـ جواز إضافة اليوم إلى ما وقع فيه من خير أو شر.

٥ ـ أن الريح مرسلة، وقد تكون مرسلة بالرحمة أو مرسلة بالعذاب، وشواهد هذا في القرآن كثيرة، وقد أقسم الله بها في قوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ [المرسلات: ١].

٦ ـ فيها شاهد لما قيل من أن الريح المرسلة بالعذاب تذكر في القرآن بلفظ الإفراد، والمرسلة بالرحمة تذكر بصيغة الجمع، وهذا مطَّرد على قراءة الجمهور.

٧ ـ صفة إهلاك قوم عاد.

٨ ـ تيسير القرآن للتذكر به والدعوة إلى ذلك.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى في هذه الآيات عن تكذيب ثمود لنبيِّ الله صالح عليه السلام، كما سمِّي في سور أخرى من القرآن، وأخبر عن شبهتهم، وعن الناقة التي أرسلت آيةً لنبيِّهم، وعقرهم لها، ثم إهلاكهم بالصيحة، وختمت القصة بالامتنان بتيسير القرآن، والدعوة للتذكر به، كما في قصة نوح وعاد، وقصة لوط الآتية.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ جمع نذير بمعنى إنذار، أي: جحدوا وكفروا بالإنذارات التي جاء بها نبيهم صالح، وثمود قبيلة كانت تسكن الحِجْر شمال الحجاز، ومنهم نبيُّ الله صالح ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾. ﴿أَبَشَرًا﴾ منصوب على الاشتغال، أي: أنُطِيع بشرا آدميًّا لا فضل له علينا، والاستفهام للإنكار والتحقير، فهم أنكروا رسالة نبيهم صالح وكذبُّوه، ودافِعُهم إلى ذلك أمور:

**الأول**: أنه بشر، والرسول بزعمهم لا يكون إلا من جنس أعلى من البشر كالملائكة.

**الثاني**: كونه واحدًا لا جماعة.

**الثالث**: تخصيصه بالرسالة دونهم، مع أنه - بزعمهم - لا فضل له عليهم، فاستبعدوا أن يؤمنوا به ويتبعوه، ولذا قالوا: ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي: إذا آمنا به واتبعناه ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ ذهابٍ عن الحق والصواب ﴿وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي: جنون، ثم تساءلوا متعجِّبين من إنزال الوحي عليه خاصة، قائلين: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أأُنزل عليه الوحي والرسالة وخصَّ من بيننا، وجهلوا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وأنه تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وقولهم هذا يشبه قول الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولم يكتفوا بإعراضهم وكفرهم، بل طعنوا في نبيِّ الله، وقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ أي: مبالغ في الكذب ﴿أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ متجبِّر يريد الرئاسة والملك، وهذا انتقال إلى سبب رابع من موانع قبول دعوة صالح عليه السلام، وهذا السبب أقوى في امتناعهم من قبول الدعوة من كلِّ ما تقدم، ولذا جاء الردُّ عليهم من الله بأبلغ ما يكون الردُّ، حيث خرج الكلام على الأسلوب المنصف الذي يراد به إسكات الخصم المشاغب، فقال سبحانه: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ أي: سيعلمون حين ينزل بهم العذاب، وعبَّر بالغد لقرب نزوله ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ أهم أم صالح، وفي الكلام وعيد لهم، ووعد لصالح عليه السلام وتسلية له.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ شروعٌ في ذكر المقدمات لما وعدهم الله من العذاب ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ هذا من ذكر الله نفسه بصيغة الجمع على سبيل التعظيم ﴿مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ أي: خالقوها وباعثوها لهم لتكون آية لنبي الله صالح، كما قال تعالى عنه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: ابتلاء واختبارا، وإنما كانت فتنة لهم لأنها آية عظيمة يتبين بها من يؤمن بالنبي ومن يكفر به، ولهذا قال الله لنبيه صالح: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ أي: راقبهم حتى ترى ما يصنعون وما يُصنع بهم، واصبر على أذاهم

حتى يأتي أمر الله ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أي: وأخبرهم ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ماء البئر مقسومٌ بينهم وبين الناقة، كما قال سبحانه: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾ أي: كلُّ نصيب من الماء ﴿مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي: يحضُره صاحبه في يومه من غير اعتداء، يقال: حضر واحتَضَر بمعنى واحد، وهذا من الفتنة التي امتُحنوا بها، ولكن القوم لم يؤمنوا أصلا بصالح، ولهذا تآمروا على قتل الناقة ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ وهو قُدَار بن سالِف ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: فتناول السيف فقتلها، وأصل العَقْر قطع إحدى قوائم الناقة لتسقط، ويتمكن من قتلها، ثم توسع فيه حتى استعمل في القتل.

وفي ذكر القاتل بوصف الصحبة لهم إشارة إلى أنهم راضون بفعله، وأنهم متفقون جميعًا على القتل، ولذا أنزل الله العذاب بجميعهم، وكان عذابًا هائلًا مستأصِّلًا، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس: ١٤]، وقال هنا: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ لثمود على كفرهم ﴿وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ أي: وإنذاري إياهم، أي: كان عذابًا عظيمًا وإنذارًا بالغًا ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: بعثْنا عليهم ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهي صوت عظيم مفزع، وتنكيرها ووصفها بواحدة يدل على أنها خارقة للعادة، وقد سمَّاها الله صاعقة في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات: ٤٤]، وسمَّاها الطاغية في قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: ٥]، كما سمَّاها الرجفة في قوله سبحانه: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

وجاء التفصيل في قصة ثمود في هذه السورة دون قصة عاد لمشابهة

قريش لثمود في التكذيب والشبهة، فقوم ثمود قالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾، وقريش قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [سبأ: ٤٣]، وقالت ثمود: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾، وقالت قريش: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

ثم ذكر الله ما صاروا إليه بعد إرسال الصيحة، فقال سبحانه: ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ أي: فصاروا كشجر متهشِّم يابس يجمعه من يريد اتخاذ حَظيرة للدَّواب، ووجه الشبه ذهاب النَّضارة والبِلَى. ثم ختمت القصة بما ختمت به سابقتها للذكرى والاعتبار فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: هل من متعظ!

## الفوائد والأحكام:

١ ـ أن ثمود كذبوا نبيَّهم صالحًا عليه السلام وبما جاء به من النُّذر.

٢ ـ أن شبهتهم في ترك اتباعه عليه السلام كونُه بشرا، وهي شبهة كل المكذبين للرسل من نوح إلى محمد صلى الله عليهم وسلم.

٣ ـ أن من شبهتهم في التكذيب دعواه النبوة من بينهم.

٤ ـ قبول خبر الواحد إذا احتفَّت به قرائن تدل على صدقه.

٥ ـ أن الحقائق تتبين للمكذبين يوم ينزل بهم العذاب، أو يوم القيامة ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾.

٦ ـ أن آيةَ صالح عليه السلام ناقةٌ عظيمةٌ تشرب ماء البئر يومًا، ويشربونه يوما آخر، ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥].

٧ ـ أن الناقة فتنة لقوم صالح.

٨ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع مضمرًا ومظهرًا في قوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾.

٩ ـ أمر الله نبيَّه صالحًا عليه السلام بعدم الاستعجال وانتظار ما يحلُّ بهم.

١٠ ـ أن الماء حقٌّ مشترك بين أفخاذ القبيلة وأفرادها.

١١ ـ جواز قسمة الماء بين الشركاء بالمُهايأة، أي: بقسمة زمن الانتفاع.

١٢ ـ عزم القبيلة على عقر الناقة، ودعوتهم لمن قد استعد لذلك، ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾.

١٣ ـ أن الذي باشر قتل الناقة واحد، والباقون راضون، بل آمرون به.

١٤ ـ أن الراضي بالمعصية كفاعلها حكمًا.

١٥ ـ أن الله أهلكهم بصيحة واحدة حتى صاروا مثل الهشيم.

قال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

### المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات الخبر من الله عن تكذيب قوم لوط لنبيهم لوط عليه السلام، وإهلاك الله لهم بإرسال الحاصب، ونجاة لوط وآله، ومراودة

قومه له عن أضيافه، وتعجيل عقوبتهم بطمس أبصارهم، وأن عذاب الله صبَّحهم بكرة، ثم أخبر تعالى عن تيسير القرآن للذكر، وعن مجيء النذر لآل فرعون، وتكذيبهم بآيات الله، وأخذ الله لهم، حتى أغرقهم في البحر.

**التفسير:**

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ٣٣﴾ النُّذر جمع إنذار، أي: كفروا بنُذُر الله التي جاءهم بها لوط عليه السلام، وكان ذنبهم فعل الفاحشة النكراء، وهي إتيان الرجال دون النساء، ولم يسبقهم بها أحد من العالمين، وهي من أقبح المنكرات، ولذا سميت في القرآن فاحشة في مواضع، كما وصف الله قوم لوط بجميع أوصاف الذمِّ من الإسراف والظلم والإجرام والسُّوء والفسق والعدوان والجهل والإفساد، في الأعراف وهود والحجر والأنبياء والشعراء والنمل والعنكبوت، ولم يصرح بها في هذه السورة؛ لأن المقصود ذكر ما عُذبوا به، وكيفية عذابهم، كسوابقها ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أنزلنا على قوم لوط ﴿حَاصِبًا﴾ أي: حجارة من سجيل فهلكوا جميعًا ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أي: إلا أهله إلا امرأته، قال بعض المفسرين: الاستثناء متصل، والصواب أنه منقطع، ويؤيده أن المراد بآل لوط بناتُه، والمستثنى منه القوم أو المجرمون كما في آية الحجر ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ٥٨ إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ [الحجر: ٥٨ ـ ٥٩]، فالناجون ليسوا من جنس المعذَّبين.

قوله تعالى: ﴿نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ٣٤﴾ أي: نجَّيناهم في سحرٍ، وهو آخر الليل، وهو القِطع المذكور في قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١]، ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي: إنعاما منَّا عليهم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثلَ هذا الجزاء العظيم وهو النجاة والنعمة ﴿نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ٣٥﴾ أي: نجزي

مَن شكرنا على نعمتنا، وشكرُ الله يكون بالإيمان به والعمل بطاعته وترك معصيته ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ أي: ولقد حذَّرهم لوط ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أي: أخْذَتنا الشديدة، وهي عذاب الله وبأسه، وأضاف الله البطشة إليه لعظمها وشدتها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ١٢]، وفي الآية أن لوطا عليه السلام أدَّى ما عليه من الإنذار والبلاغ.

قوله تعالى: ﴿فَتَمَارَوْا﴾ أي: شكُّوا وكذَّبوا ﴿بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾ أي: بالإنذارات والوعيد ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ أي: طلبوا منه ضيوفه ليفعلوا بهم الفاحشة، قبَّحهم الله، يقال: راوَده على كذا مراودة، إذا أراده، وعدِّي بـ ﴿عَن﴾ لما فيه من معنى البعد، أي: أرادوا منه البعد عن ضيوفه ليتمكنوا منهم، وهؤلاء الضيوف هم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وذكر الله ما أوقع بهؤلاء المراودين الطغاة، فقال سبحانه: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: أزلنا صورتها وأذهبنا بصرها، فلم يروا الملائكة ﴿فَذُوقُوا﴾ أي: قيل لهم على سبيل التهكم والتوبيخ: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي﴾ أي: ذوقوا عذابي بالعمى ﴿وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ أي: وذوقوا عاقبة نُذُري لكم ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم﴾ أي: جاءهم صباحًا ﴿بُكْرَةً﴾ أي: في أول الصبح، وهو تأكيد وتعيين لصبَّحهم ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ أي: ثابت معهم لا يفارقهم إلى يوم القيامة ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: ذوقوا عذابي الذي صبَّحكم، وهو إمطارهم بحجارة من سجيل، وهذا توبيخ وتهكم كالآية قبلها ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهَّلناه للتذكر والاتِّعاظ والحفظ والتدبر ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾ أي: فهل من متعظ به؟!

ثم أشار سبحانه إلى قصة إهلاك فرعون مصدِّرا لها بصيغة القسم المؤكِّد لما فيها من الآيات والعبر، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿النُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ أي: الإنذارات المتتابعة التي جاء بها

موسى وهارون، فلم يؤمنوا بها، ولكنهم ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ وهي تسع آيات: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنين ونقص الثمرات، وقوله: ﴿كُلِّهَا﴾ فيه مزيد توبيخ وتشنيع، وإلا فتكذيب آية واحدة كافٍ في حصول العذاب ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ أي: فعاقبناهم بالعذاب المستأصِل، وذلك بإغراقهم في البحر ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي: أخذًا شديدًا، كما تدل عليه الإضافة، والعزيز هو القوي الذي لا يغالَب ﴿مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ أي: كامل القدرة لا يعجزه شيء، ولا يخاف الفوت والعاقبة، وهو الله جل جلاله، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

إن في ذكر هذه القصص موجزةً وما وقع فيها من أنواع العذاب والإهلاك لترهيبًا للكفار وتحذيرا لهم من التمادي في كفرهم، وأنهم لا ينجيهم من عذاب الله شيء، فما جرى على أولئك الأقوام سيجري على كفار قريش إذا تمادوا في غيِّهم وضلالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٤٣].

### الفوائد والأحكام:

١ ـ تكذيب قوم لوط بنذر الله.

٢ ـ أن عذابهم كان بإرسال الحاصب عليهم.

٣ ـ هلاك جميع قوم لوط بألوان من العذاب من قلب الديار وإرسال الحجارة.

٤ ـ نجاة لوط وآله إلا امرأته، كما جاء في مواضع من القرآن.

٥ ـ أن نجاتهم كانت في وقت السَّحَر، أي: قبل موعد نزول العذاب بقليل.

٦ ـ أن من سنَّة الله أن ينجِّي عباده الشاكرين لنعمه من العذاب قبل حلوله.

٧ ـ فضل الشكر والترغيب فيه.

٨ ـ إثبات عندية الملك.

٩ ـ أن لوطا نبيَّ الله قد أعذر إلى قومه بأن أنذرهم بطش الله الشديد.

١٠ ـ أن قوم لوط شكُّوا فيما أنذرهم به نبيُّهم.

١١ ـ أنهم راودوه عن ضيفه ليتركهم لهم ليفعلوا الفاحشة بهم.

١٢ ـ أن الله طمس أعين أولئك المراودين، وذلك من العقاب المعجَّل.

١٣ ـ غيرة لوط عليه السلام على أضيافه، ودفاعه عنهم.

١٤ ـ أن عذاب الله المدمِّر نزل بهم في أول وقت الصبح.

١٥ ـ أن سنة الله في عذاب المكذبين نزول العذاب بهم في الصباح.

١٦ ـ أن عذاب الله مستقر عليهم لا ينقطع عنهم.

١٧ ـ الجمع لهم بين العذابين: الحسيِّ بما أرسل عليهم، والمعنويِّ بتوبيخهم، ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧﴾.

١٨ ـ أن نُذُر الله جاءت لآل فرعون.

١٩ ـ أنهم كذبوا بكل الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام.

٢٠ ـ أن آل فرعون جاءهم من الآيات ما لم يأت غيرهم من الأمم، وهي الآيات التسع التي آتاها الله لموسى.

٢١ ـ أن الله أخذهم كلهم فألقاهم في اليم، فغرقوا عن آخرهم.

٢٢ ـ إثبات اسمين لله تعالى هما العزيز والمقتدر، وما دلَّا عليه من صفتي العزة والقدرة.

٢٣ ـ أن أخذ الله لهم من آثار عزته واقتداره. وعزتُه: قوتُه وغلبتُه. واقتدارُه: قدرتُه.

٢٤ ـ أن عذاب الله للمكذبين أنواع؛ حسبما تقتضيه حكمته تعالى، وكلٌّ يعذَّب بما يناسبه ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ثم قال سبحانه مخاطبا كفار قريش:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات توبيخ كفار قريش وتقريعهم وتهديدهم من الله تعالى، وبيان أنهم ليس لهم خصوصية تمنع من أن تجري عليهم سنة الله في المكذبين، كالذين تقدم ذكر ما جرى عليهم من العذاب والنَّكال، فليس لهم براءة من الله في الكتب المتقدمة يحتجون بها ولا قوة يغالِبون بها بأس الله متى نزل بهم، هذا ولهم موعد آتٍ لا محالة، وهو الساعة، وهي أدهى من كل داهية، وأمرُّ من كل مُرٍّ، ثم ذكر تعالى حال المجرمين في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا في ضلال وسُعُر، وفي الآخرة يسحبون في النار على وجوههم، جزاءً على تكذيبهم بقدرة الله وبالساعة التي تقع في أسرع من لمح بالبصر.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿خَيْرٌ﴾ عند الله ممن تقدم ذكرهم من الكفار لأنهم أخفُّ كفرًا من كفار الأمم السابقة، أو خير منهم في العَدد والعُدة والقُوة ﴿مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ الكفار المذكورين قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، فلا يصيبكم ما أصابهم ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ﴾ أم هي المنقطعة المقدرة بـ (بل) والهمزة، أي: بل ألكم براءة من العذاب ﴿فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: في الكتب المنزَّلة على الأنبياء، جمع زَبُور، يقال: زَبَر الكتاب إذا كَتَبه، والاستفهام في الموضعين إنكاري توبيخي، أي: ليس كفاركم خيرًا من أولئك، ولا لكم براءة من العذاب في الكتب السماوية.

قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ إضراب وانتقال من الإنكار السابق عليهم وتوبيخِهم إلى إنكار وتوبيخ آخر بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب. المعنى: بل أيقول هؤلاء الكفار عنادًا منهم وإعجابًا بأنفسهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ مبتدأ وخبر، أي: نحن جمعٌ متفق الكلمة، أي: يدٌ واحدةٌ ذوو قوة ﴿مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: منتصرون فلا نُغلب، وجاء ﴿مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ بلفظ الإفراد تبعًا للفظ موصوفه ﴿جَمِيعٌ﴾ مع ما فيه من مراعاة الفاصلة.

ويردُّ الله عليهم بأن الأمر سيقع على خلاف زعمهم، فيقول سبحانه: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ أي: سيُغلب هذا الجمع، والسين للتأكيد ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: يفرون منهزمين، والدُّبُر أي: الأدبار، أي: يولِّي كلُّ واحدٍ دبرَه، وحسَّن إفراده كونُه فاصلة، وجاء بالجمع في قوله: ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر: ١٢].

وفي الآية علَم من أعلام النبوة، لتضمُّنها الخبر عن أمر مستقبل،

وهو هزيمتهم يوم بدر وانتصار المسلمين عليهم، كما قاله جمهور المفسرين، مع أن السورة مكية، ولم يفرض الجهاد حال نزولها، وليس هذا هو عذابهم فحسب ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: بل القيامة موعد عذابهم الأكبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤]، وهذا من الترقي في الوعيد ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ أي: وعذابها ﴿أَدْهَىٰ﴾ أي: أعظم داهيةٍ، يقال: دهاه كذا، إذا نزلت به نازلة، ولا تستعمل الداهية إلا في الأمور الصعبة ﴿وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ أي: والساعة أشدُّ مرارة، وهو استعارة لبيان شدة عذاب القيامة، شبَّه العذاب بما يذاق، وشبَّه ألمه بالمرارة.

وبيَّن الله حال الكافرين فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ جمع مجرم، والمراد به في القرآن الكافر ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في تِيه عن الحق وحيرة ﴿وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي: عناءٍ وعذابٍ في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦]، وقال: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: ٣٤]، ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق بقول محذوف، أي: يقال لهم وهم في النار: ذوقوا مسَّ سقر ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ أي: يجرُّون بإهانة ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ مع أن الوجه موضع التكريم في الإنسان، فيجتمع لهم العذابان الجسدي والروحي، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: اصلوا حرَّ جهنَّم وقاسُوا عذابها، وسقر من أسماء النار، نعوذ بالله منها.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ﴾ في هذا الكون ﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ أي: بتقدير سابق قدَّرناه، وسَبَق به علمُنا وكتابتُنا له في اللوح المحفوظ، ومن ذلك أعمال العباد وأحوالهم وجزاؤهم، وهذا وجه مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى

ﱡﭐ ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩ ﱠ[١].

قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ أي: وما أمرنا فيما نريد أن يكون ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ أي: إلا كلمةٌ واحدةٌ لا كلمات ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ في السرعة، أي: كطرف العين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨٢]، وهو دليل على كمال قدرته تعالى؛ فلا فرق في قدرته سبحانه بين صغير وكبير وقليل وكثير، كما قال عز اسمه: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

### الفوائد والأحكام:

١ ـ أن كفار هذه الأمة ليسوا خيرًا من كفار الأمم الماضية، فليسوا بمنجاة من العذاب.

٢ ـ أنهم ليس لهم براءة في الكتب السابقة توجب لهم خصوصية بالنجاة.

٣ ـ اعتداد الكفار بقوتهم وكثرتهم.

٤ ـ أن حكمَ الشيء حكمُ نظيره، وهذا أصل القياس، فحكم كفار قريش حكمُ أسلافهم من الكافرين.

٥ ـ أن كفار قريش مهزومون بجند الله.

٦ ـ البشارة بنصر المؤمنين على جمع الكافرين.

٧ ـ أن الساعة ـ وهي القيامة ـ موعد لجزاء المكذبين وغيرهم.

٨ ـ شدة هول القيامة.

---

(١) مسلم (٢٦٥٦).

٩ ـ أن الكفار ـ وهم المجرمون ـ في ضلال في هذه الدنيا وشقاء، فهم في عذاب معجَّل.

١٠ ـ ذكر صفة من صفات تعذيب المجرمين في النار.

١١ ـ أن من أسماء النار سقر.

١٢ ـ إثبات القدر، وأن كلَّ شيء بقدر.

١٣ ـ إحاطة علم الله بكل شيء.

١٤ ـ إثبات خلق الله للعباد وأفعالهم.

١٥ ـ الرد على القدرية النفاة.

١٦ ـ إثبات القيامة وأنها تقع في غاية من السرعة كلمح البصر أو هي أقرب.

١٧ ـ أن بعث الأولين بكلمة واحدة من الله.

لما ذكر سبحانه أنَّ كلَّ شيء خلقه بقدر، وأنَّ أمره في تحقق مقتضاه كلمح البصر، أخبر تعالى ببعض ما جرى به القدر من إهلاك المكذبين السابقين أشياع المشركين من أهل مكة؛ فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

### المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات جملة من الأخبار ممَّا كان ويكون، فأخبر تعالى عن إهلاك أشياع كفار قريش ليتذكر العباد بذلك، كما فُصِّل ذلك في هذه السورة، وأخبر تعالى أن أفعالهم مكتوبة في الزُّبُر، وهي الكتب،

وأن ذلك شاملٌ لكل صغير وكبير، ثم أخبر عن مصير المتقين في مقابل مصير المجرمين.

**التفسير:**

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أمثالكم وأشباهكم في الكفر، والخطاب لكفار قريش، والأشياع جمع شِيعة، وهو جمع قلة يراد به الكثرة، والشِّيعة القوم الذين يتبع بعضهم بعضًا في أمر، ويتناصرون، فكفار قريش كالكفار السابقين في شركهم وتكذيبهم، فهم على ملة واحدة وطريق واحد، كما قال تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، أي: تشابهت قلوبهم بالكفر وألسنتهم بالتكذيب والطعن في المرسلين كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣]، فلهذا هدَّد الله كفار مكة وحذَّرهم أن يصيبهم ما أصاب أولئك، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾ أي: فهل من متَّعظ ومعتبر، أي: اعتبروا بما وقع لهم؛ فالعاقل من وعظ بغيره.

قوله سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: وكلُّ شيء فعله هؤلاء المكذبون وأشياعهم وغيرهم من الأمم ﴿فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: مثبت عليهم في الكتب، أي: في كتاب القدر السابق، وفي صُحُف أعمالهم التي تكتبها الملائكة الحفظة، فلا يفوتهم من أعمالهم شيء لا صغير ولا كبير، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من أعمالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ أي: مكتوب، يقال: سَطَره واستَطَره بمعنى واحد أي: كتبه، وهذه الآية مؤكدة للآية قبلها، وتقديم الصغير على الكبير لتأكيد شمول الحكم وهو الكتابة في هذه الآية؛ فإذا كان الصغير من أعمال المكلفين لا يترك فالكبير من باب أولى.

وقد جاء تقديم الصغير على الكبير في مواضع من الكتاب العزيز كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢١]، وقوله: ﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ هذا وعد من الله للمتقين في مقابل وعيد المجرمين، ليظهر به الفرق بين الفريقين، وليحصل به الترغيب والترهيب، وفيه دعوة لأولئك إلى الإيمان ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: المتقين عذاب الله وسخطه بفعل الطاعات واجتناب المحرمات ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ أي: في جنات عظيمة الشأن، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مما لم تره عين، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر، من القصور العالية، والأنهار الجارية، والأشجار المثمرة، والأزواج المطهرة، والنعيم المقيم ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢]، وجمعت الجنات لأنها درجات متفاوتة بحسب تفاضل أهلها في أعمالهم ﴿وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي: وأنهار من الماء وأنهار من اللبن وأنهار من الخمر وأنهار من العسل، فنَهَر اسم جنس يدل على متعدد، بدليل ذكره مع الجنات، وإفراده لموافقة رؤوس الآيات، يقال: نهَر ونهْر، بتحريك الهاء وسكونها، وقاعدة اللغة فيما عينه حرف حلق من الثلاثي أنه يجوز فتح عينه وإسكانها، يقال: شعَر وشعْر، ورهَن ورهْن، ونهَر ونهْر.

ولما ذكر الله طِيب منازل المتقين في نفسها ذكر حُسن جوارهم، وهو من تمام كمال المنازل فقال سبحانه: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مجلسِ حقٍّ لا لغوٌ فيه ولا تأثيم، من إضافة الموصوف إلى الصفة، وذكر القعود

لأنه يدل على المكث والإقامة دون الجلوس، ولهذا يقال: قواعد البيت ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ صيغة مبالغة من المُلك ـ بضم الميم ـ أي: عند مَلِك عظيمٍ مُلكه، وهو الله ﷻ رب السماوات والأرض، وهذه العندية هي عندية المكان التي يقابلها عندية العهد والضمان المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ [القلم: ٣٤]، وعندية الحكم المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٧].

قوله سبحانه: ﴿مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ أي: كامل القدرة عظيمها لا يعجزه شيء، وختْم السورة بهذا الوعد الكريم فيه بشارة للمؤمنين وطمأنة لقلوبهم بعد تلك الإنذارات والتهديدات التي قرعت الأسماع وأفزعت النفوس، فلا يغادرون السورة حتى تمتلئ قلوبهم بالغبطة والسعادة والأمن، فهو من حسن الختام الذي يشهد ببلاغة القرآن وحسن أساليبه.

### الفوائد والأحكام:

١ ـ تهديد كفار قريش بأن يهلكهم الله، كما أهلك الله أشياعهم.

٢ ـ أن الحكمة من الإخبار بإهلاك الكافرين هي التذكير والتحذير من سلوك طريق المُهلكين.

٣ ـ الدعوة إلى التذكُّر بما قصَّ الله من أخبار المهلَكين أعداء المرسلين.

٤ ـ أن قدرة الله شاملة للإيجاد والإعدام، بالخلق والإهلاك.

٥ ـ إثبات القياس؛ لأن حكم الشيء حكمُ نظيره؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾.

٦ ـ أن أفعال العباد مكتوبة ومحصاة في كتاب القدر وفي صحف الأعمال.

٧ ـ شمول الكتابة والإحصاء لكل صغير وكبير من أفعال العباد وغيرها، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾.

٨ ـ الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ﴾.

٩ ـ إثبات الجنة، وأنها منزل المتقين.

١٠ ـ أن التقوى هي السبب في دخول الجنة.

١١ ـ أن في الجنة أنهارا.

١٢ ـ أن من أسماء الجنة مقعد صدق.

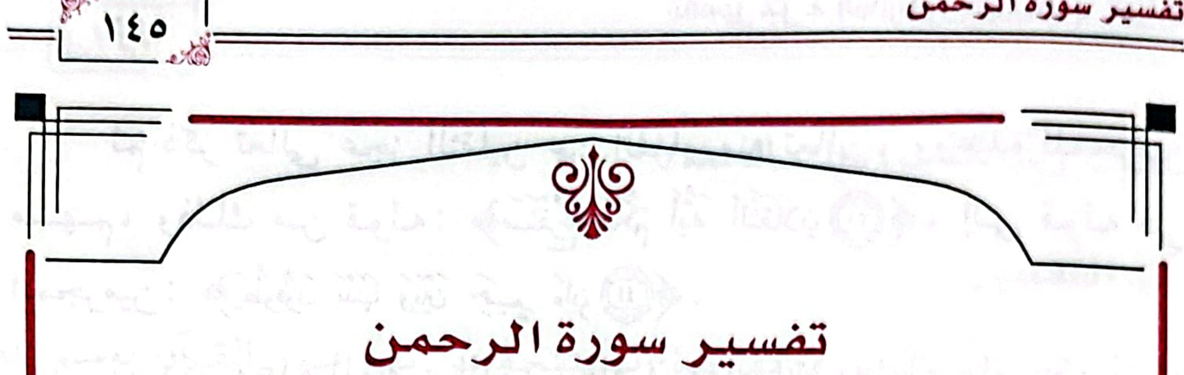
١٣ ـ أن الجنة منزلُ حقٍّ لا باطل فيه؛ فلا إثم ولا لغو، قد جمع كلَّ دواعي السرور من أنواع النعيم مع الأمن من كل مخوف.

١٤ ـ أن من أسماء الله المليك والمقتدر.

١٥ ـ أن من سعادة المتقين جوارهم لرب العالمين في الجنة.

١٦ ـ إثبات عندية المكان المتضمنة للقرب من الله.





# تفسير سورة الرحمن

هذه السورة مكية، وعدد آياتها ثمان وسبعون، وسميت باسم من أسماء الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١﴾؛ لأنها افتتحت به، وأما تسميتها بعروس القرآن فلم يصح به خبر.

وقد تضمنت آياتها أنواعا من العلم؛ فبدئت بالامتنان من الله على الإنسان بتعليم القرآن والبيان، وذكر ما خلقه الله من نعمه للإنسان من قوله: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾، إلى قوله: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢﴾.

ثم ذكر ابتداء خلق الثقلين؛ لأنهما المخاطبان في هذه السورة، وقد تكرر خطابهما بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ إحدى وثلاثين مرة، وقد تضمنت هذه الآية تقرير الثقلين بآلاء الله، ولذا جاءت الآية تعقيبا على كل ما ذكر في السورة مما هو نعمة، أو متضمِّنٌ ذكرُه لنعمة.

ثم ذكر شيئًا من آثار ربوبيته وأدلة قدرته، كالمشرقين والمغربين والبحرين واللؤلؤ والمرجان والجواري في البحر، ثم نبه على فناء الخلق وتفرده تعالى بالبقاء، وحاجة أهل السماوات والأرض إليه، وسؤالهم إياه حوائجهم، وذلك من قوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾، إلى قوله: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾.

ثم ذكر تعالى عجز الثقلين عن الفرار منه تعالى، ووعيده للمجرمين منهم، وذلك من قوله: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١﴾، إلى قوله في المجرمين: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ۝٤٤﴾.

ثم ذكر وعده للمتقين الذين يخافون مقام الله وما أعد لهم من أنواع الكرامة في الجنات من قوله: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾، إلى آخر السورة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

### المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيات افتتاح السورة باسمه تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١﴾، والامتنان بتعليم القرآن، وتعليم الإنسان البيان، وبخلق الشمس والقمر بحُسبان، ثم التذكير ببعض الآيات والنعم، مع الأمر بالشُّكران والنهي عن الطغيان، وذكر الحكمة من خلق الأرض وما فيها من الأرزاق، ثم ختمت هذه الآيات بتقرير الثقلين بآلاء الله عليهم، فقال سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: **«لقد قرأتُها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودا منكم؛ كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، قالوا: لا بشيء من**

**نعمك ربنًا نكذب، فلك الحمد»**[1].

## التفسير:

هذه هي السورة الفريدة المفتتحة من بين سور القرآن باسم الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١﴾، وهو من حُسْن الابتداءات المعروف عند البلغاء ببراعة الاستهلال، المؤذن بمضمون ما بعده؛ فإن هذه السورة لما تضمنت ذكر كثير من نعم الله وهي من آثار رحمته ناسب افتتاحها باسمه تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١﴾، ومعناه ذو الرحمة الواسعة، وهو أبلغ من الرحيم وأوسع معنى، ومعلوم أن رحمته تعالى وسعت كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فهو تعالى المنعم بجلائل النعم وأصولها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١﴾ مبتدأ والجمل الثلاث بعده أخبار له، أي: الربُّ الذي اسمه الرحمن هو الذي أنعم على عباده بهذه النعم، وأعظمها تعليم القرآن، وهو الهدى والنور والوحي المنزل من الله على قلب سيد المرسلين، ولهذا ابتدأ به تعالى على ما بعده من النعم؛ فإنه أعظم آثار هذا الاسم الكريم، فقال سبحانه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ أي: علَّم عباده القرآن بتيسير تلاوته وحفظه وفهم معانيه والعمل به، وحذف المفعول الأول للتعميم ليشمل كلَّ من علَّمه الله القرآن ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾ أي: خلقه بعد العدم وبعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، فجعله إنسانًا سويًّا سميعًا بصيرًا، والمراد جنس الإنسان ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ أي: علَّمه الإبانة والتعبير عمَّا في نفسه، وهو مما امتاز به

---

(١) جامع الترمذي (٣٢٩١)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد»، ورواه الحاكم (٢/ ٥١٥)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢١٥٠).

عن سائر الحيوان، وفي الآية إشارة إلى شكر المنعِم بنعمة البيان، وذلك باستعمالها فيما يحب ويرضى من الكلام.

قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾ وهي آية النهار ﴿وَٱلۡقَمَرُ﴾ وهو آية الليل ﴿بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ الحُسبان مصدر كالغُفران والشُّكران، أي: الشمس والقمر يجريان في الفلك متعاقبين بحساب دقيق ونظام محكم متقن لمنافع الإنسان، ليعرف الشهور والسنين والفصول والحساب، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [يونس: ٥]، والشمس والقمر من أعظم الأدلة على الخالق الحكيم ﷻ، وقدمت الشمس لأنها أعظم خلقا، ولأن القمر يستمد ضوءه منها، وهذا التقديم مطَّرد في القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾ أي: النجوم وهو اسم جنس ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ أي: النبات الذي يقوم على ساق ﴿يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ أي: يسجدان لله سجودا حقيقيا يناسب خلقهما، لا تعلم كيفيته، كما تسجد بقية العوالم لخالقها، قال كثير من المفسرين: المراد بالنجم هو النبت الذي لا ساق له، والصحيح أنه النجم الذي في السماء؛ لأنه هو المقصود بالنجم في جميع الآيات، ولقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي: خلقها مرفوعة، لا أنها مخفوضة ثم رفعها، فالله تعالى خلق السماء عالية محكمة البناء واسعة الأرجاء، بلا عمد ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾ أي: أنزل العدل وشرعه لعباده، وليس المراد بالميزان الآلة المعروفة التي يزن بها الناس، بل المراد العدل، والمقصود بالوضع هو الإنزال بدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ

بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَۗ﴾ [الشورى: ١٧] وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ﴾ أي: أنزلنا مع الرسل ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥] أي: بالعدل.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ⁽٨⁾﴾ أي: أنزلنا العدل لئلا تعتدوا وتجوروا في الوزن ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ﴾ أي: أقيموا وزنكم بينكم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ⁽٩⁾﴾ أي: ولا تُنقصوا ما وزنتم للناس ولا تطفِّفوا، فالميزان في المواضع الثلاثة مختلف معناه؛ فقوله: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ⁽٧⁾﴾ أي: العدل ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ⁽٨⁾﴾ أي: الوزن ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ⁽٩⁾﴾ أي: الشيء الموزون، وكرَّر لفظ الميزان وإن اختلف معناه وأكَّد الكلام بجملتين طلبيتين ليعلم أن شأن العدل عظيم، وأن به قامت السماوات والأرض.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ أي: هيَّأها وبسطها ﴿لِلْأَنَامِ ⁽١٠⁾﴾ أي: للخلق الجن والإنس يتصرفون فيها لمعاشهم كما يريدون، وينتفعون منها بما خلق الله فيها، والأنام اسم جمع لا واحد له من لفظه ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ وهي ما يتفكَّه به أي: يتنعم به غير الغذاء، المعنى: في الأرض أنواع الفاكهة المختلفة الطعوم والألوان كالعنب والتفاح والتين والرُّمان ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ⁽١١⁾﴾ أي: ذاتُ الأغلفة التي تكون على الثمار قبل ظهورها، مفردها كِمٌّ، وهو وعاء الثمرة ﴿وَٱلْحَبُّ﴾ أي: فيها أنواع الحبِّ، وهو القوت الذي يُتغذَّى به كالحنطة والشعير ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ أي: ذو التبن الذي تأكله الدواب، فامتنَّ الله بذلك عليهم بأن هيَّأ لهم الطعام ولبهائمهم، والتقييد بذي العصف يُخرج ما لا عصف له من الحبوب كالسِّمسم ﴿وَٱلرَّيْحَانُ ⁽١٢⁾﴾ أي: وفيها كلُّ مشموم طيب الرائحة، وفسِّر الريحان بالرزق.

وفي الآيات ترتيب حسن في ذكر النعم؛ حيث بدئت بالفاكهة، ثم بالقوت من التمر والحبِّ، ثم ختمت بالمشموم الطيب الذي يجلب السرور والأنس، وكلٌّ هذه نعم عظيمة، ولهذا قال تعالى مخاطبًا الإنس والجن المدلول عليهما بالأنام: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ الآلاء هي النِّعم، مفردها إِلًى وأَلًى، أي: فبأيِّ نعم الله الكثيرة تكفران وتجحدان؟! والاستفهام للتقرير، أي: حمْل المخاطب على الإقرار بها وتذكرها، وفيه توبيخ وتقريع للكافرين بالنعم الجاحدين لها، وإضافة الآلاء إلى الرب للتشريف، وإضافة الربوبية إلى ضمير الثقلين لأنه خالقهم ومالكهم ومدبرهم، فحقه عليهم أن يشكروه قولًا وفعلًا، ولذا قالت الجن: لا بشيء من نعمك ربنَّا نكذب، فلك الحمد، كما تقدم ذلك في حديث جابر، وتكرار هذه الآية بعد كل نعمة أو ما هو متضمن لنعمة جارٍ على طريقة العرب في لغتهم التي نزل القرآن بها، ومن أساليبهم التكرار للتأكيد والتقرير، ولا سيما إذا كان التكرار تعقيبًا على أمور مختلفة يحتاج في كلٍّ واحد منها إلى تقرير المخاطب به، كما في هذه السورة.

### الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أسماء الله الرحمن.

٢ ـ أن ما تضمنته هذه السورة كله من آلاء الله، وهو من آثار هذا الاسم الكريم.

٣ ـ أن التعليم في أفعال الله شرعيٌّ كتعليم القرآن، وكونيٌّ كتعليم الإنسان البيان.

٤ ـ أن كلَّ من علِم القرآن فالله علَّمه إما بلا واسطة كجبريل، أو بواسطة جبريل وهو الرسول ﷺ، أو بواسطة الرسول محمد ﷺ وهم مَن علَّمهم الرسول من الأمة.

٥ ـ الرد على من قال من المشركين في النبي ﷺ: إنما يعلمه بشر.

٦ ـ أن البيان ـ وهو النطق والتعبير ـ من أعظم نعم الله على الإنسان.

٧ ـ أن تعليم الله للإنسان البيان ـ وهو التعبير باللسان ـ واقع بالأسباب التي خلقها الله وقدَّرها.

٨ ـ أن القرآن غير مخلوق؛ لأنه تعالى فرَّق بين الإنسان والقرآن، فخصَّ التعليم بالقرآن والخلقَ بالإنسان.

٩ ـ أن من أعظم نعم الله خلق الشمس والقمر، وجريانهما بحساب دقيق ليعلم الناس حساب الزمان.

١٠ ـ أن النجم في السماء والشجر في الأرض تسجد لله تعالى.

١١ ـ كمال انقياد العوالم لقدرة الله ومشيئته.

١٢ ـ الدلالة على قدرة الله وحكمته وعظمته ورحمته.

١٣ ـ أن من آيات الله رفع السماء بغير عمد، وفيها إشارة إلى إنزال الميزان من السماء.

١٤ ـ الامتنان من الله بأن وضع الميزان، أي: أنزله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

١٥ ـ أن وضع الميزان ـ العدل ـ يتضمن النهي عن الطغيان في الميزان (الآلة) بالبخس والتطفيف.

١٦ ـ وجوب العدل في الكيل والوزن.

١٧ ـ تحريم بخس المكيلات والموزونات.

١٨ ـ أن من نعم الله على العباد خلق الأرض ممهودة مذللة.

١٩ ـ تذكير الله العباد بما خلق لهم في الأرض من الحبوب والثمار.

٢٠ ـ فضل الفاكهة وثمر النخل على سائر الثمار.

٢١ ـ أن أفضل الحبوب ما يكون قوتا كالبر والشَّعير، وهو ما يزرع ويحصد ويداس، لقوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾، وهو التبن.

٢٢ ـ التناسب بين النخل والحب لاشتراكهما في القوت، ولذا قرن بينهما في الأنعام والرعد والكهف وسورة ق.

٢٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق: ٩، ١٠].

٢٤ ـ أن من النعم العظيمة الريحان، وهو الرزق الذي هو قوت الناس، وبذا تظهر مناسبة ذكره مع العصف، وقيل: هو كل نبت طيب الرائحة.

٢٥ ـ أن الجن مكلفون ومخاطبون بالقرآن.

٢٦ ـ أنهم يثابون على إيمانهم ويعاقبون على كفرهم.

٢٧ ـ عموم رسالة النبي ﷺ للجن والإنس؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾.

٢٨ ـ وجوب الإيمان بأن جميع النعم من الله تعالى.

٢٩ ـ إثبات ربوبيته تعالى للجن والإنس.

٣٠ ـ وجوب الاعتراف بجميع آلائه تعالى، وهي نعمه.

* * *

ولما ذكر الله خلقه للسماوات والأرض وما فيهما ذكر خلقه للثقلين وما تتعلق به مصالحهما، فقال سبحانه:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى في هذه الآيات بما خلق منه تعالى الإنسان وما خلق منه الجان، ثم أخبر تعالى عن ربوبيته تعالى للمشرقين والمغربين وإرسال البحرين، والفصل بينهما غير مختلطين، وخلق اللؤلؤ والمرجان فيهما، وخلق السفن الجواري طافية على ظهره كالأعلام، وهي الجبال، وكل ما ذكر هو نعمة أو متضمن لنعمة، فلذا جاء التعقيب بآية الآلاء.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: الإنسان الأول وهو آدم أبو البشر ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي: من طين يابس له صلصلة أي: صوت إذا نُقر ﴿كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ وهو الطين الذي أحرق فتحجّر، وقد جاء ذكر ما خلق منه آدم في آيات من القرآن، فهنا قال: من صلصال كالفخار، وفي الحجر: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦] أي: من طين أسود متغير اللون والرائحة، وفي الصافات: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: ١١] أي: طين لاصق، وفي آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، ولا تعارض بين هذه الآيات؛ لأنه تعالى خلقه أولًا من تراب، ثم جعل التراب طينًا لاختلاطه بالماء، ثم صار الطين حمأً مسنونًا حين طال مكثه، ثم صار صلصالًا، أي: يابسًا كالفخّار.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ أي: إبليس أبا الجن ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: من لهب النار الذي يرتفع في الهواء مضطربًا، و﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ ابتدائية، و﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ بيانية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ أي: فبأيِّ نعم ربكما الكثيرة ـ يا معشر الجن والإنس ـ تكفران وتجحدان وقد خلقكم أيها الإنس من نفس واحدة، وخلقكم أيها الجن من أصل واحد ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: هو ﷻ ربُّ مشرقي الشمس في الشتاء والصيف ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ أي: وربُّ مغربي الشمس في الشتاء والصيف، ومعنى كونه ربَّهما أنه تعالى خالقهما ومدبرهما، واختلاف المشارق له منافع كثيرة للإنسان والحيوان والنبات.

وجاء ذكر المشرق والمغرب في القرآن مفردًا ومجموعًا، والجمع بين هذه الآيات أن يقال: إن هذا تابع لتعدد مطالع الشمس ومغاربها، وذلك أن لها في كل يوم مشرقًا ومغربًا على مدار السنة، ولهذا قال في المعارج: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج: ٤٠]، كما أن لها مشرقين ومغربين باعتبار مطالعها في الصيف والشتاء كما في آية الرحمن هذه، وباعتبار جهة المطالع والمغارب جملةً جاء ذكر المشرق والمغرب مفردا، كما في قوله سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩]، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ أي: فبأيِّ نعم ربكما الكثيرة ـ يا معشر الجن والإنس ـ تكفران وتجحدان؟! ومن هذه النعم خلق المشارق والمغارب، وما يترتب عليهما من المصالح.

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ البحر في اللغة الماء الغامر الكثير، فيشمل الأنهار والأودية لأن كلَّها تسمى بحرًا في لسان العرب، وقوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسل الله البحرين العذب والملح لمصالح العباد، فالعذب منه يشربون ويسقون زروعهم وبهائمهم، والبحر الملح به يطيب

الهواء ويتولد فيه السمك، وتسير فوقه السفن ﴿يَلْتَقِيَانِ ۝١٩﴾ أي: حين يصب الماء العذب في الملح، وذلك مصب الأنهار في البحار ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي: حاجز ﴿لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ أي: لا يبغي هذا على هذا ولا هذا على هذا، بل يبقى البحر العذب على عذوبته، والملح على ملوحته، كلٌّ في مكانه، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾ [الفرقان: ٥٣].

والمراد بالبرزخ أي: الحاجز بين البحرين هو الأرض اليابسة التي نراها بينهما، فهذا بحر ملح وهذ بحر عذب وتفصل بينهما الأرض، فلا يبغي أحدهما على الآخر، مع أنه ليس ثم جدار ولا بناء بينهما، والأرض كروية، ومع ذلك فكلٌّ من البحرين ثابت في مكانه بأمر الله وقدرته فلا يسيحان على الأرض، ولو ساحًا لهلك الناس، فهذه نعمة عظيمة من الله على خلقه تستوجب الشكر لا الكفر، ولهذا قال ﷻ: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ أي: فبأيِّ نعم ربكما الكثيرة - يا معشر الجن والإنس - تكفران وتجحدان؟! ومن نعمه إرسال البحرين والفصل بينهما بالبرزخ.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ يخرج من البحرين الملح والعذب ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ وهو الجوهر المعروف ﴿وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾ جوهر أحمر يخرج من البحر، قال كثير من المفسرين: إن قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾ من باب التغليب، فاللؤلؤ والمرجان يخرجان من الماء الملح فقط، كذا قيل، والصحيح أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من كلٍّ من البحرين، وإن كان خروجهما من الماء الملح أكثر، كما هو ظاهر الآية، وقد أيَّده العلم الحديث، ومما يقطع بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

قوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ أي: فبأيِّ نعم ربكما الكثيرة ـ يا معشر الجن والإنس ـ تكفران وتجحدان؟! ومن نعمه عليكم ما أخرج لكم من البحر من الجواهر التي هي زينة لكم وحليٌّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ أي: وله سبحانه السفن الجواري ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ أي: المرفوعات الشراع، تقول العرب: أنشأتُ البناء أي: رفعته ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾، ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝٢٤﴾ أي: كالجبال في ضخامتها وهيئتها، فالمعنى: أن الجواري في البحر في تصرفه تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]، وخصَّها بالذكر مع أنه تعالى له السماوات والأرض وبيده ملكوت كل شيء؛ لما في السفن من المنافع العظيمة، ولأن جريها في البحر آية من الآيات، ولا صنع للبشر فيه، وهم معترفون بذلك ويقولون: لك الفُلك ولك المُلك ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ أي: فبأيِّ نعم ربكما الكثيرة ـ يا معشر الجن والإنس ـ تكفران وتجحدان؟! ومن نعمه عليكم تسخير السفن لتجري في البحر بما ينفع الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

### الفوائد والأحكام:

١ ـ التوطئة لما سُيذكر في السورة مما يتعلق بالثقلين بذكر مبدأ خلقهما.

٢ ـ أن من أطوار خلق الإنسان من تراب: الطين اليابس الذي يكون له صلصلة إذا دُقّ.

٣ ـ أن الجانّ خُلق من بعض لهب النار.

٤ ـ فضل الإنسان على الجن لتقديمه في الذكر، وإن كان أصل الجن خُلق قبل.

٥ ـ أن الوجود بعد العدم والتذكير بذلك نعمة.

٦ ـ أن من آيات الله وآلائه المشرق والمغرب.

٧ ـ أن من آيات الله ونعمه خلق البحرين العذب والمالح وخلق البرزخ بينهم.

٨ ـ أن من آيات الله ونعمه ما يخرج من البحرين من اللؤلؤ والمرجان.

٩ ـ أن من آيات الله ونعمه إنشاء السفن الجارية في البحر بأمر الله.

ولما ذكر الله نعمه تعالى على عباده أتبع ذلك ببيان أن هذه النعم وأهلها زائلون، وأن الباقي هو الله تعالى، فقال سبحانه:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات جملة من الأخبار والتهديدات؛ فأخبر تعالى عن بقائه وفناء خلقه، وسؤال أهل السماوات والأرض له، وأنه تعالى

كل يوم في شأن، ثم هدَّد الثَّقَلين بالحساب والجزاء، ثم تحدَّاهم وعجَّزهم، ثم أخبر عن انشقاق السماء وحال الجن والإنس في ذلك اليوم، ثم أخبر بحال المجرمين وما يُفعل بهم قبل دخول النار وبعده.

**التفسير:**

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: كلُّ مَن على الأرض مِن الناس وكلُّ ما عليها من متاع الدنيا ﴿فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: هالك زائل ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ويبقى الله ذو الوجه الموصوفُ بالجلال والإكرام و﴿الْجَلَالِ﴾ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد ﴿وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ أي: الفضل والإنعام التام، وإضافة الربوبية إلى ضمير النبي ﷺ ﴿رَبِّكَ﴾ لتشريفه وبيان نعمة الله عليه.

قوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: فبأيِّ نعم ربكما الكثيرة ـ يا معشر الجن والإنس ـ تكفران وتجحدان؟! ومن نعمه التنبيه على بقائه تعالى وفناء الخلق.

وإذا كان الله جل جلاله هو الباقي وكلُّ من سواه فانٍ فإن جميع الخلق مفتقرون إليه لا غنى بهم عنه، ولهذا قال: ﴿يَسْأَلُهُ﴾ أي: يسأله تعالى ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: كلُّ من في السماوات من الملائكة، ومِن سؤال الملائكة استغفارهم للمؤمنين ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: ويسأله مَن في الأرض مِن الإنس والجن بلسان الحال وبلسان المقال.

قوله سبحانه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ أي: كلَّ وقت ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي: هو تعالى في أمر عظيم من أمور خلقه؛ فلا يخلو زمانٌ عن أمر يحدثه سبحانه، فيحيي ويميت، ويعز ويذل، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، إلى غير ذلك مما لا يحصى من شؤونه تعالى ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: فبأي نعمة من نعمه تعالى تكذبان وتجحدان؟! ومن

ذلك تعريفكم بفقر أهل السماوات والأرض إليه، وتدبيره لشؤونهم.

ولما ذكَّر تعالى بنعمه وآياته وعرَّف بعظمته وبقائه وجلاله وفناء خلقه، أخبر عمَّا سيفعله من حساب الثَّقلين وجزائهم على أعمالهم، فقال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ الثَّقَلان مثنى ثَقَل، وهما الإنس والجن. أي: سنفرُغ لحسابكم وجزائكم يوم القيامة على أعمالكم في الدنيا، والله ﷻ لا يشغله شأن عن شأن، ولكن هذا على أسلوب العرب فإنهم يقولون عند التهديد: سأفرغُ لك يا فلان، ويلحظ في الكلام التفات من الغيبة إلى التكلم مع الإسناد إلى ضمير الجمع ﴿سَنَفْرُغُ﴾، وفيه من شدة التهديد ما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢﴾ أي: فبأيِّ نعمه تكفران وتجحدان؟! والآية السابقة وإن كان فيها وعيد وتهديد فإنها تشير إلى لطفه تعالى ورحمته وعدله في خلقه بحسابهم، وإثابة المطيع وعقاب العاصي.

ولما ذكر تعالى أنه يحاسب الثقلين ويجازيهم يوم القيامة على أعمالهم أخبر سبحانه أنه يقول للكفار من الثقلين في ذلك اليوم، وهم عاجزون عن الفرار من قبضته فقال سبحانه:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ﴾ أي: إن قدرتم أن تنجوا من العذاب وتخرجوا هاربين ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من جوانبهما، جمع قُطْر ﴿فَٱنفُذُواْ﴾ أي: اهربوا من أيِّ جهة، وهذا أمر تحدٍّ وتعجيز ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣﴾ أي: لا تخرجون إلا بحجة وقوة، ولن تستطيعوا ذلك؛ لأنه لا قوة لكم ولا قدرة يومئذ، وتقديم الجن من كمال التحدي لأنهم أقدر على النفوذ، ولأنهم أصلُ ضلال الإنس، فإذا كانوا عاجزين في ذلك اليوم فالإنس أعجز، وقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فيه

الإشارة إلى عجزهم من أول الأمر، وهذه الآية تشبه قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ [القيامة: ٧ ـ ١١].

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠﴾ أي: فبأيِّ نعمة من نعمه الكثيرة أيها الجن والإنس تكفران وتجحدان؟! ومن نعمه تذكيركم بيوم الحساب والجزاء؛ فإنه يزيد المحسن إحسانًا، ويكف المسيء عن إساءته.

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ الخطاب لمعشر الجن والإنس، أي: لو أردتم الفرار من أقطار السماوات والأرض لأرسل عليكما ﴿شُوَاظٌ﴾ أي: لهب ﴿مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ وهو الصُّفر المذاب ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ أي: فلا ينصر بعضكم بعضا ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦﴾. تقدم تفسيرها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: تصدَّعت وانفطرت لنزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي: صارت مثل الوَرْدة في الحُمرة ﴿كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ أي: كالزيت، فهو تشبيه آخر، ووجه الشبه هو الصفاء والإشراق، واعترضت الآية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠﴾ بين الشرط وجوابه الآتي للتذكير بنعم الله الكثيرة، ومنها التذكير بأحوال القيامة ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومئذ تنشق السماء ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ أي: في ذلك اليوم لا يُسأل أحدٌ عن ذنبه سؤالَ استخبار واستعلام؛ لأن كلَّ أعمالهم محصاةٌ عليهم، ولكنهم يُسألون سؤال توبيخ وتبكيت، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ [القصص: ٦٥ ـ ٦٦]، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠﴾ أي: فبأيِّ نعمه الكثيرة ـ أيها الجن والإنس ـ تكفران وتجحدان؟! ومن نعمه الإخبار بما سيكون في يوم القيامة من الأهوال وعظًا وتذكيرًا.

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: الكافرون، والمجرم في القرآن هو الكافر؛ فإن الكفر أعظم الجرائم ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ السِّيما العلامة، أي: يعرفون يوم القيامة بعلامات يتميزون بها من اسوداد الوجوه وزُرقة العيون، وما يعلو وجوههم من الكآبة والحزن، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه: ١٠٢]، وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ [عبس: ٤٠]، ﴿فَيُؤْخَذُ﴾ أي: تأخذهم الملائكة ﴿بِٱلنَّوَٰصِى﴾ جمع ناصية، وهي مقدَّم الرأس ﴿وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ جمع قَدم. المعنى: أن الملائكة تجذبهم بعنف من رؤوسهم وأقدامهم فتلقيهم في جهنم، ثم يقال لهم توبيخا وتقريعا: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ في الدنيا، أي: أنتم، وهو من وضع الظاهر موضع المضمر، وكانوا يقولون عن النار: إنها سحر، قال تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٥ ـ ١٦].

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي: يترددون بين النار ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء حار ﴿ءَانٍ﴾ اسم فاعل من أنى، أي: بالغ الشدة في الحرارة، فهذا الماء يصب من فوق رؤوسهم ويسقون منه، وقد ذكر الله الحميم في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: ٤]، وقوله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥]، ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ أي: فبأيِّ نعمه ـ أيها الجن والإنس ـ تكفران وتجحدان، ومن نعمه الكثيرة التحذير من العذاب قبل وقوعه.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ فناء كل ما على الأرض.

٢ ـ تفرد الرب تعالى بالبقاء.

٣ ـ إثبات أن لله وجها موصوفا بالجلال والإكرام.

٤ ـ حاجة أهل السماوات والأرض إليه.

٥ ـ محبة الله أن يُسأل، والترغيب في ذلك.

٦ ـ أنه تعالى كلَّ يوم في شأن.

٧ ـ أن الجنّ مكلَّفون، ومجزيُّون ثوابًا وعقابًا، كالإنس.

٨ ـ تهديد الثقلين بالحساب والجزاء ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾.

٩ ـ عجز الجن والإنس عن الفرار من الله.

١٠ ـ أنه لا سلطان لأحد من الجن والإنس يمكنه به الفرار.

١١ ـ أنَّ مَن حاول الفرار من الجن والإنس من أقطار السماوات والأرض أرسل الله عليه ما يحرقه شواظا ونحاسا.

١٢ ـ أن الجن والإنس لا يستطيعون النجاة من هذا العذاب.

١٣ ـ انشقاق السماء يوم القيامة.

١٤ ـ صفة السماء عند انشقاقها ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾.

١٥ ـ أنه لا يُسأل أحد عن ذنبه من الثقلين في ذلك اليوم.

١٦ ـ أن التذكير بما تضمنته هذه الآيات من الأخبار هو من نعم الله على عباده، ولهذا أتبعت كل آية بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾.

١٧ ـ أن للمجرمين سيما تعرفهم بها الملائكة.

١٨ ـ أن وصف الإجرام أخص بالكفار بالله.

١٩ ـ صفة أخذ المجرمين لإلقائهم في جهنم.

٢٠ ـ توبيخهم على تكذيبهم بالنار.

٢١ ـ ذكر بعض صفة تعذيبهم في جهنم.

٢٢ ـ أن الحميم الذي يشربه المجرمون في جهنم أشد ما يكون حرارة.

وبعد أن ذكر الله عاقبة المجرمين، وما أعد لهم من العذاب المهين تحذيرًا وإنذارًا، أتبع ذلك بذكر عاقبة المتقين في الجنة؛ فقال سبحانه:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات ما وعد الله به أهل الخوف من الله من الجنات، وما فيها من أصناف النعيم، والمؤمنون المتقون طبقتان، وتضمنت هذه الآيات ذكر أفضلهما وجزائهم، وهذا الجزاء هو جنتان عاليتان، ذواتا أنواع من النعيم: عينان تجريان، ومن كل فاكهة زوجان، وفُرُش فيها الحور الحسان، كأنهن الياقوت والمرجان، وهذا جزاؤهم على الإحسان.

## التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: ولمن خاف قيامَ الله عليه بالاطلاع عليه ومراقبته له وقدرته عليه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، ويشهد لهذا المعنى أيضا اسمُه تعالى ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: القائم على خلقه؛ فمن خاف مقام ربه ومراقبته له في كل

حال فله عنده ﴿جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ يتنعم فيهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧﴾ هذه الجملة معترضة بين الصفة والموصوف للتذكير بنعمه تعالى في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨﴾ أي: صاحبتا أغصان عظيمة نضرة تتنوع فيها الفاكهة والثمار، فـ ﴿ذَوَاتَآ﴾ تثنية ذات، وذات بمعنى: صاحبة فهي مؤنث ذو، وأصل ذات ذَوَة، فلما ثنيت أعيدت الواو فقيل: ذواتا، والأفنان جمع فَنَن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩﴾ تقدم تفسيرها.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾ أي: في الجنتين عينان تجريان، ولم يذكر الله نوع الشراب الذي تجريان به، فلنُبْهِم ما أبهمه الله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١﴾ تقدم تفسيرها ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾ أي: في الجنتين من كل الفواكه صنفان معروف وغير معروف ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾ تقدم تفسيرها.

ولا شك أن كل ما ذكر في صفة الجنتين إنما هو على سبيل التقريب بما هو معهود؛ فإن الله يقول في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1]، فحقائق ما في الجنة لا تدرك كنهَه العقول ولا تبلغه الأوهام.

ثم أخبر تعالى عن مجالسهم وما فيها من النعيم، فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ أي: جالسين مطمئنين على وجه التمكن والراحة، وهذا الاتِّكاء يشعر بكمال سرورهم وارتياحهم وخلوِّهم من الهموم؛ لأن الاتكاء هيئة مخصوصة بالمتنعِّم الخالي عن الكلف والتعب، وكذلك أهل الجنة فلا شغل لهم إلا التمتع بالنعيم، و﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حالٌ عامله محذوف أي: يتنعمون متكئين ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ﴾ جمع فِراش، فهم متكئون على فُرُش وثيرة

---

(١) رواه البخاري (٣٠٧٢) ومسلم (٢٨٣٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمع بِطانة، وهي ما يلي الأرض من الفراش ﴿مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ أي: من حرير سميك خالص، وإذا كانت هذه البطائن، فكيف بالظهائر؟! ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾ وهو الثَّمر الذي تهيَّأ للجنْي ﴿دَانٖ ۝٥٤﴾ أي: قريبٌ إليهم في كل حال ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾ تقدم تفسيرها.

ولما ذكر الله الفُرش الوثيرة ذكر نساءهم فقال: ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الفُرش ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أي: حابساتٌ أبصارهنَّ على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم، ولم يقل: نساء قاصرات، على عادة العظماء كبنات الملوك والأشراف إنما يذكرن بأوصافهن ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ﴾ أي: لم يطأهنَّ ﴿إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ۝٥٦﴾ فهن أبكارٌ، و﴿لا﴾ لتأكيد النفي، وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بهؤلاء النساء الحورُ العين اللائي أنشئن في الجنة، فهؤلاء لم يطمثن من قبل، أما نساء الدنيا فقد طمثهن الإنس، ونساء الجن قد طمثهن الجن، ورجح هذا ابن القيم[(١)].

والأظهر أن هذه الآيات عامة في نساء المؤمنين في الجنة من الحور العين المخلوقات للمؤمنين، ومن المؤمنات اللاتي دخلن الجنة بأعمالهن كالمؤمنين، فهؤلاء ينشأن خلقًا آخر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۝٣٧﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧].

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾ تقدم تفسيرها ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ﴾ أي: تلك النساء كأنهن الياقوت صفاء وبياضًا ﴿وَٱلۡمَرۡجَانُ ۝٥٨﴾ أي: وكأنهنَّ المرجان حُمرة وجمالًا ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧﴾ تقدم تفسيرها.

قوله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾ استفهام بمعنى

---

(١) حادي الأرواح (ص٢٢٢).

النفي، وهو مع أسلوب الحصر في الآية يفيدان تحقق موعود الله للمحسنين. المعنى: ما جزاء من أحسن في الدنيا في عمله وأحسن إلى الخلق ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝٦٠﴾ أي: يحسن الله إليه في الآخرة بنعيم الجنة العظيم، وهذا موجَب حكمه تعالى الشرعيِّ والجزائيِّ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾ تقدم تفسيرها.

**الفوائد والأحكام:**

١ ـ تعقيب الوعيد بالوعد، والنِّذارة بالبشارة، وهذا هو الغالب في سياق الوعد والوعيد في القرآن.

٢ ـ فضل الخوف من مقام الله.

٣ ـ أن صالحي الجن يدخلون الجنة.

٤ ـ أن كل واحد من أهل الجنة له جنتان.

٥ ـ أن كل واحدة من الجنتين ذات أفنان.

٦ ـ أن كل واحدة من الجنتين فيها عينان تجريان.

٧ ـ أن كل واحدة منهما فيها من كل فاكهة زوجان.

٨ ـ أن الفاكهة من أفضل الطعام، ولذا كثر ذكرها في نعيم أهل الجنة.

٩ ـ أن كل واحدة منهما فيها فرش بطائنها من إستبرق.

١٠ ـ أن ثمر الجنة دانية منهم وهم على فرشهم.

١١ ـ أن في الفرش أزواجًا هي الحور العين.

١٢ ـ أن أهل الجنة في سرور؛ لقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ﴾.

١٣ ـ أن أزواجهم قاصرات الطرف عليهم لحسنهم ورضاهُنَّ بهم.

١٤ ـ أنهن أبكار، لم يطمثهن إنس ولا جان.

١٥ ـ إمكان وطء الجني للمرأة الإنسية، فلذا نفي عن نساء الجنة ذلك.

١٦ ـ أنهن بألوان الياقوت والمرجان صفاء وبياضًا وحمرة.

١٧ ـ الرد على الفلاسفة المنكرين لبعث الأبدان القائلين بأن الثواب والعقاب روحيَّان لا حسيان.

١٨ ـ أن ثواب أهل الجنة جزاء على أعمالهم.

١٩ ـ أن الجزاء من جنس العمل.

٢٠ ـ أن الإحسان سبب لحسن الثواب، فدلَّ على:

٢١ ـ إثبات الأسباب.

٢٢ ـ الترغيب في إحسان العمل والإحسان إلى العباد.

***

اعلم أن ما مضى من آيات الوعد وذكر ثواب أهل الخوف من الله هو جزاء المقربين، ولهذا قدَّمه الله لشرف أصحابه وحسن جزائهم، وفي الآيات التالية ذكر ثواب أصحاب اليمين، وهو دون ثواب المقربين، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

### المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات ذكر جزاء الطبقة الثانية من أولياء الله، وهم أصحاب اليمين، وجزاؤهم جنتان، لكن دون الجنتين الأوليين، وذكَر سبحانه صفة الجنتين وما أعد الله فيهما من أنواع النعيم؛ عينان نضاختان، فاكهة ونخل ورمان، فيهما الأزواج خيرات حسان، مقصورات في الخيام، وهنَّ أبكار، وفيها بيان حالهم من الراحة والسرور، ثم ختم السورة بالثناء على نفسه ﷻ.

### التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي: ومن دون الجنتين السابقتين في الفضل والحسن، أي: أقل منهما ﴿جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ وهما لأصحاب اليمين، وهاتان الجنتان من فضة، وجنتا المقربين من ذهب؛ لقوله ﷺ: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما**»[1]، وروى ابن جرير بسنده عن حماد بن سلمة عن ثابت، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، قال حماد: لا أعلمه إلا رفعه في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن: ٤٦] قال: «**جنتان من ذهب للمقربين**» أو قال: «**للسابقين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين**»[2]، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾ تقدم تفسيرها.

قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ أي: تضربان إلى السواد من شدة الخُضرة والرِّيّ، وقد وصف الله الجنتين الأُولَيين بكثرة الأشجار والثمار،

---

(١) رواه البخاري (٤٥٩٧) ومسلم (٢٩٦) عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه.

(٢) جامع البيان (٢٢/ ٢٣٨)، قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٣١): «أخرجه الطبري وابن أبي حاتم ورجاله ثقات».

حيث قال: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ٤٨﴾، أما هاتان فوصفهما بشدة الخُضرة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٩﴾ تقدم تفسيرها.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا﴾ أي في هاتين الجنتين ﴿عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ٦٦﴾ أي: فوّارتان بالماء، وقال في الأُوليين: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ٥٠﴾ والنضخ دون الجري؛ لأنه يدل على مجرد الفوران، أما العين الجارية فتدل على فوران وجري ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥١﴾ تقدم تفسيرها.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا﴾ أي: في هاتين الجنتين ﴿فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ٦٨﴾ عطف النخل والرمان على الفاكهة من عطف الخاص على العام إظهارا لفضل النخل والرمان، وقوله في الأُوليين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ٥٢﴾ أكمل وأشمل، وأسماء هذه المأكولات وإن كانت موافقة لما نعرفه في الدنيا بالاسم فإن ما في الآخرة لا يشبهه ولا يماثله بل هو خير منه وأكمل وأطيب، وهو دائم لا ينقطع، وإنما الموافقة في الاسم فحسب، وأما الصفات والحقائق فمتباينة، ولذا قال ابن عباس: ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط[1]، وليست هذه الموافقة لفظية فقط، بل في الاسم والمعنى الكُلِّي العام، فهو من قبيل المشترك المعنوي ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٥﴾ تقدم تفسيرها.

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ٧٠﴾ أي: في الجنات الأربع زوجات طيبات الأخلاق حسنات الوجوه، تقول العرب: فلانة خَيْرة، بفتح فسكون، وخَيِّرة، بتشديد الياء المكسورة، والحسان جمع حسناء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧١﴾ تقدم تفسيرها.

قوله تعالى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ٧٢﴾ بدل من ﴿خَيۡرَٰتٌ﴾

---

(١) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة رقم (١٢٤).

والحُور جمع حوْراء، أي: واسعات العيون حسانهن، مأخوذ من الحَوَر في العين، وهو شدة بياضها مع شدة سوادها، فهو يتضمن الأمرين، وقوله تعالى: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ أي: مخدَّرات مستورات، والمرأة تمدح في الدنيا إذا كانت ملازمة بيتها، وهذا لا ينفي خروج هؤلاء الحور إلى بساتين الجنة ورياضها، كما تفعله بنات الملوك ﴿فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ هي خيام اللؤلؤ، كما يشير إليه قوله ﷺ: «**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوَّفة، طولها ستون ميلًا، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضُهم بعضا**»[(١)].

وقوله في الجنتين الأوليين: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أكمل في مدحهن من قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ﴾، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي: لم يطأْهنَّ ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾، وقوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾ تقدم تفسيرها.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ أي: في مجالسهم ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ أي: على وسائد نفيسة ذات أغطية خُضر، والرَّفْرف اسم جنس جمعي واحده رَفْرَفة ﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي: فُرُش بديعة، والعبقريُّ عند العرب كلُّ غريب موشًّى ومنقوش، وما وُصفت به الجنتان الأوليان أكمل وأوسع مما وصفت به هاتان؛ فهناك قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٤] فوصَف البطائن وترك الظهائر لتذهب فيها النفوس كل مذهب، وذكَر تدلِّي الثمار إليهم، ولم يذكره هنا، وقال هناك: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ ولم يذكره في هؤلاء، فدلَّ على أن أولئك بلغوا أعلى المراتب.

فظهر بهذه الوجوه فضل الجنتين المتقدمتين، وأنَّ الله اختص بهما

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٨) عن عبد الله بن قيس وأصله في البخاري (٤٥٩٨).

أولياءه المقربين من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، كما أنه سبحانه أنعم على سائر المؤمنين بالجنتين الأخريين، وهذه الجنات كلُّها هي محل كرامة الله ورضوانه، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: ٣١].

وقد ضَمَّت هذه الجنات من النعيم وأسباب السعادة ما لا يحيط به الوصف ولا تستوعبه العبارات، حتى إن كل واحد من أهل الجنة يرى أنه لا أحد أحسن منه، وهذا محض فضل الله ونعمته؛ فإن عملهم في الدنيا يسير في مقابل هذا الجزاء العظيم، فلهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾، أي: فبأيِّ نعمة من نعمه الكثيرة في الدنيا والآخرة تكذبان وتجحدان؟! ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ أي: تقدَّس اسم ربك وكثرت بركاته ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ هذا وصف للرب، أي: ذي العظمة والكبرياء والمجد ﴿وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ أي: صاحب الفضل والإنعام التام، وإضافة الربِّ إلى ضمير النبي ﷺ ﴿رَبِّكَ﴾ لتشريفه وبيان نعمة الله عليه، كما تقدم.

### الفوائد والأحكام:

١ ـ التفاضل بين أولياء الله، وكذا جزاؤهم.

٢ ـ أن كل واحد منهم له جنتان.

٣ ـ أن من صفة الجنتين أنهما مدهامتان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما فاكهة ونخل ورمان.

٤ ـ أن في الجنة نخلًا.

٥ ـ أن من فاكهة الجنة الرُّمَّان.

٦ ـ أن من صفة أزواج أهل الجنة، أنهن خيرات حور حسان.

٧ ـ أن في الجنة خيامًا، وفيها الأزواج أبكارًا لم يطمثهن أنس ولا جانٌّ.

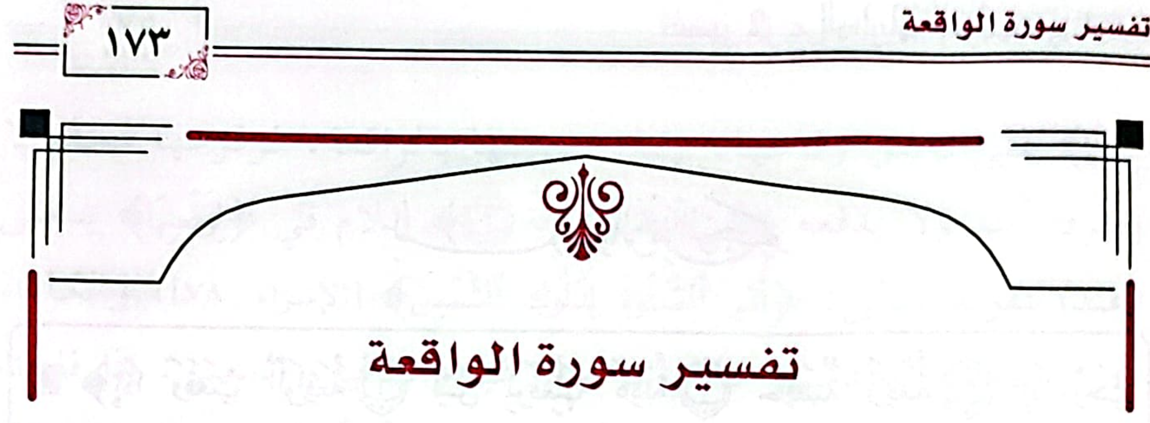
٨ ـ أن المؤمنين في الجنة في غاية من الروح والسرور، ولذا كانوا متكئين فيها على رفرف خضر وعبقري حسان.

٩ ـ تنزيه الله نفسه عن كل نقص وثناؤه على نفسه بالجلال والإكرام.

١٠ ـ أن لله أسماءً، ومن صفاته الجلال والإكرام.

١١ ـ التناسب بين أول السورة وآخرها؛ حيث بدئت وختمت بالثناء من الله على نفسه.





# تفسير سورة الواقعة

سورة الواقعة مكية، وعدد آياتها ست وتسعون، وتضمنت آياتها من الأولى إلى الآية السادسة والخمسين ذكر أحوال القيامة وأهوالها، وأن الناس فيها ثلاثة أصناف: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون، وذكرَ مصير كلٍّ صنف وجزائه، كما تضمنت الآيات من السابعة والخمسين إلى الآية الرابعة والسبعين ذكر أربعة من أدلة البعث:

١ ـ النشأة الأولى.

٢ ـ إخراج النبات.

٣ ـ إنزال الماء من المزن.

٤ ـ خلق النار من الشجر الأخضر.

وتضمنت الآيات من الخامسة والسبعين إلى آخر السورة تعظيم شأن القرآن بقسم عظيم، وبكتابته في الكتاب المكنون، وتوبيخ الكفار على تكذيبهم به، وتذكيرهم حال الاحتضار، وانقسامهم في هذه الحال إلى مقربين وأصحاب يمين ومكذبين ضالين، مع بيان عاقبة كل فريق، ثم ختمت السورة بالأمر بالتسبيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات ذكر القيامة الكبرى باسم الواقعة لتحققها، مع ذكر حال الأرض والجبال والناس في ذلك اليوم، وأن الناس في ذلك اليوم ثلاثة أزواج أي: أصناف: أصحابُ يمين، وأصحاب شمال، وسابقون مقربون، ثم ذكر تفصيل جزاء السابقين، وهو أصناف من النعيم؛ من السُّرر التي عليها يتكئون، والولدان الذين عليهم يطوفون بالفاكهة واللحم مما يشتهون، وأزواج من الحور العين، ومن كمال نعيمهم في الجنة أنهم لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا، بل لا يسمعون إلا سلامًا سلامًا.

## التفسير:

قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ أي: إذا قامت القيامة، وتدل

﴿إِذَا﴾ على تحقق وقوعها، وكذا تسميتها بالواقعة، فوقوعها محتَّم لا يصرفه أحد ولا يدفعه ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ اللام في ﴿لِوَقْعَتِهَا﴾ بمعنى (عند) كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، والكاذبة مصدر بمعنى التكذيب، كالخائنة واللاغية والعافية. المعنى: إذا قامت القيامة ليس عند وقوعها تكذيب، أي: لا يبقى أحدٌ يكذب بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الحج: ٥٥]، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤﴾ [غافر: ٨٤].

وحذف جواب الشرط ﴿إِذَا﴾ لتذهب النفس في تقديره كلَّ مذهب؛ أي: إذا وقعت الواقعة حصل هناك من الأهوال والشدائد ما تنخلع له القلوب وتتفتت له الأكباد وتشيب لهوله الأولاد، وقد ذكر الله شيئًا من ذلك في هذه السورة فقال سبحانه:

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ أي: هي خافضة رافعة، أي: يحصل عندها خفض أهل الكفر الأشقياء وإن كانوا مرفوعين في الدنيا، ورفعُ أهل الإيمان السعداء، وإن كانوا وضيعين في الدنيا، وتقديم خافضة لكثرة متعلَّقه يومئذ، ولأنه أدخل في تقرير عظمة القيامة ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ هذا بدلٌ من قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾، أي: إذا زلزلت الأرض زلزالًا شديدًا، كما قال سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة: ١]، وكما قال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [المزمل: ١٤]

قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ أي: فُتِّتت تفتيتًا ﴿فَكَانَتْ﴾ أي: صارت الجبال بسبب ذلك ﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ أي: كالهباء المتطاير في الهواء، وهو ما يلوح مع شعاع الشمس إذا دخل من كُوَّة، وقد جاء

في القرآن أن الجبال تمر بأطوار يوم القيامة؛ من ذلك أنها تكون كالرمل المهيل، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤]، ثم تكون كالعهن، كما في هذه السورة، ثم تكون كالهباء، كما قال هنا: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾، وتسيَّر كالسحاب، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وتكون على وجه الأرض كالسَّراب، قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠]، وتسوَّى مع الأرض حتى تكون قاعًا صفصفًا، قال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ [طه ١٠٥ ـ ١٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً ﴿٧﴾﴾ أي: وصرتم أصنافًا ثلاثة بحسب أعمالكم في الدنيا، فصنفان في الجنة وصنف في النار، ثم بيَّن هذه الأصناف فقال: ﴿فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي: أصحاب اليمين، واشتقاق الميمنة من اليُمن، وهو الشيء المحبوب النافع ﴿مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾ استفهام للتفخيم والتعجيب من رفعة شأنهم عند الله ومدحهم، أي: أيُّ شيء أصحاب الميمنة؟! إنهم أصحاب المنزلة العالية الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: أصحاب الشمال، واشتقاق المشأمة من الشؤم، وهو المكروه ﴿مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ استفهام للتفظيع والتعجيب من حالهم وذمِّهم، أي: أيُّ شيء أصحاب الشِّمال؟! إنهم أصحاب المنزلة الدنيئة الذين يعطون كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشِّمال.

ثم ذكر الله الصنف الثالث فقال: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ السابقون الأول مبتدأ والثاني خبره على وجه التعظيم كقولك: أنت أنت، المعنى: أن السابقين إلى الخيرات في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات العلى في

الآخرة، وأُخِّر ذكرهم مع أنهم الأفضل ليقترن ذكرهم ببيان جزائهم مفصَّلًا، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أشار إليهم باسم إشارة البعيد للدلالة على علو رتبتهم ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾ أي: المقربون عند الله، فهم لما تقربوا إلى الله بالأعمال الصالحة وجدُّوا في ذلك كافأهم سبحانه فجعلهم مقربين عنده، فهم في أعلى الجنان، ولذا قال:

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾ أي: الجنات ذات النعيم، من إضافة الموصوف إلى الصفة، والجنات جمع جنة، وهي الدار التي أعدها الله لعباده المتقين في الآخرة، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والنعيم: اسم لكل ما يُتنعَّم به من مأكل ومشرب وغير ذلك، وأضيفت الجنات إلى النعيم لأنه ليس فيها إلا النعيم الخالص الذي لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب نعيم الدنيا، فساكن جنات الآخرة منعَّم في بدنه ومنعَّم في قلبه، كما قال سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١﴾ [الإنسان: ١١] أي: نضرةً في وجوههم وسرورا في قلوبهم، وقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨﴾ [الحجر: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾ أي: السابقون المقربون هم ﴿ثُلَّةٞ﴾ أي: جماعة كثيرة ﴿مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾ أي: من صدر هذه الأمة وسلفها المبارك ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٤﴾ أي: والسابقون قليلون في آخر هذه الأمة، وإنما كثُر السابقون في أول هذه الأمة لقربهم من عهد النبوة، قال ﷺ: **«خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»**[1].

وقيل: إن المراد بالأولين الأممُ السالفة، وبالآخِرين هذه الأمة، وليس بغريب أن يكون السابقون من الأمم الماضية أكثر من السابقين في

(١) أخرجه البخاري (٢٥٠٩) ومسلم (٢٥٣٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أمة محمد؛ لأن هاتيك الأمم فيهم أنبياء كثيرون ورسل، فلا مانع من أن يجتمع من سابقيها من لدن آدم إلى محمد ﷺ أكثر من سابقي هذه الأمة وحدها، ويؤيد هذا القول أن الخطاب عام من بداية السورة في قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾، فهو لجميع الناس، والله أعلم.

وأما أصحاب اليمين في هذه الأمة الخاتمة فهم كثير؛ لأنهم كلُّ من آمن بالله وعمل صالحًا، ولهذا قال في شأن أهل اليمين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤﴾.

قوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ أي: هم على سُرر، جمع سرير، وهو ما يجلس عليه المتكئ ﴿مَّوْضُونَةٍ ۝١٥﴾ أي: منسوجة بالذهب ﴿مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ أي: متكئين حال جلوسهم على السرر مطمئنين في راحة وسرور وخلو من الهموم شأنَ الملوك ﴿مُتَقَابِلِينَ ۝١٦﴾ بوجوههم، ينظر بعضهم إلى بعض، وهذا من كمال الأنس والنعيم والمودة بينهم، وقد أخبر الله في كتابه العظيم أن أهل الجنة يجلسون مع أزواجهم على الأرائك، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ۝٥٦﴾ [يس: ٥٥ - ٥٦]، كما أخبر تعالى أن أهل الجنة يجلسون على السرر مع إخوانهم متقابلين فقال سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝٤٧﴾ [الحجر: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يدور حولهم ويتنقل بينهم لخدمتهم، والفعل المضارع يدل على أن هذا شأنهم دائمًا، وأنهم لا ينفكون عنهم ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾ أي: غِلمان شببَة باقون أبدًا على هذا الوصف من النعومة والنشاط ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ جمع قلة لكوب يراد به الكثرة، وهو إناء لا عروة له ولا خرطوم، وما له عروة وخرطوم يسمى إبريقًا ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ مملوءة من أشربة الجنة، فيُصب من هذه الأباريق في الأكواب

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ أي: وخمر من عين جارية لا تنضب أبدًا، وجاء عن غير واحد من السلف أن كل كأس في القرآن هي الخمر.

وقد وُصفت الكأس التي في الجنة بعدة صفات في كتاب الله العظيم؛ فمن ذلك ما جاء في سورة الصافات في قوله سبحانه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٥ ـ ٤٧]، وفي سورة الطور في قوله سبحانه: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور: ٢٣]، ووصفت في سورة الإنسان بالمزج بالكافور والزنجبيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الإنسان: ٥]، وفي قوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾ [الإنسان: ١٧]، وفي سورة النبأ في قوله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ [النبأ: ٣٤] أي: ممتلئة.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: لا يصيبهم صُداع ناشئ عنها كخمر الدنيا، فهي لذة بلا أذى، و(عن) بمعنى باء السببية ﴿وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: لا تذهب عقولهم، من أنزف الشاربُ إذا ذهب عقله ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: يختارون من أصنافها، يقال: تخيرّتُ الشيء إذا أخذتَ خيره، وهذا يدل على كثرة فواكه الجنة وتنوعها؛ لأنه لا يُتخير إلا من الشيء الكثير، وقال في المرسلات: ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [المرسلات: ٤٢]، وهذا من التنويع في الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: مما ترغب فيه نفوسهم، وخصت الفاكهة بالتخيُّر واللحم بالاشتهاء ـ والله أعلم ـ لكثرة أنواع الفاكهة وألوانها وطعومها بين أيديهم، بخلاف اللحم، فهذا كله مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم.

قوله سبحانه: ﴿وَحُورٌ﴾ أي: وعندهم حُورٌ، جمع حَوراء، وهي

شديدة بياض العين شديدة سوادها، فهو يتضمن الأمرين ﴿عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ جمع عَيْناء، وهي ذات العين الواسعة الحسنة، وحوَر العين مع سعتها نهاية الجمال في النساء ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ﴾ أي: كأنهن اللؤلؤ في البياض والصفاء والنَّفاسة ﴿ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: المصون في أصدافه الذي لم تمسَّه الأيدي، ولم تصبه الشمس ولا الهواء، وتشبيه الحُور باللؤلؤ لكونه معلوما لنا، فهو وصف للتقريب، وإلا فشتان ما بين الصفاءين والبياضين.

قوله سبحانه: ﴿جَزَآءً﴾ أي: جزاهم الله جزاءً ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: بسبب الذي عملوا في الدنيا من الأعمال الصالحة. ولما أثبت لهم الكمال نفى عنهم النقص فقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿لَغْوًا﴾ أي: ما لا معنى له وما لا فائدة في سماعه ﴿وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: ولا ما يستوجب الإثم، وعدم سماع ذلك في الجنة لأنه لا لغوٌ فيها ولا تأثيم أصلا، فهو من باب الكناية اللطيفة، كقول عمرو بن أحمر:

لَا تُفْزِعُ الْأَرْنَبَ أَهْوَالُهَا ... وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ[1]

أي: لا أرنب بها أصلا ولا ضبَّ.

قوله: ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي: قولا ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ استثناء منقطع، وهذا بيان للقول، أي: سلاما إثر سلام، فهم لا يسمعون في الجنة شيئًا مكروهًا، بل يسمعون السلام الذي تحبه نفوسهم، فتسلم عليهم الملائكة، ويسلم بعضهم على بعض، وهذا يدل على فشو السلام فيهم وكثرته. وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ هو من تأكيد المدح بما يشبه الذم، وهو من البلاغة بمكان عظيم، وهو كقول نابغة بني ذبيان:

---

(١) ديوانه (ص٦٧).

ولا عَيبَ فيهِمْ غيرَ أنّ سُيُوفَهُمْ بهنّ فلولٌ منْ قراعِ الكتائبِ[١]

## الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الواقعة من أسماء القيامة كالحاقة والغاشية.

٢ ـ أن وقعة القيامة حقٌّ.

٣ ـ أن القيامة ترفع أقواما وتخفض آخرين، يعني في ذلك اليوم يخفض الله أقواما ويرفع آخرين.

٤ ـ أن الأرض يوم القيامة تُرجُّ، أي: تُزلزل وتضطرب.

٥ ـ أن من أحوال الجبال يوم القيامة أنها تُبسُّ أي: تُفتت فتصير هباءً، أي: كالهباء.

٦ ـ أن الناس يكونون يوم القيامة ثلاثة أصناف؛ صنفان سعداء، وهم أصحاب اليمين والسابقون، والثالث هم الأشقياء، وهم أصحاب الشمال.

٧ ـ أن أفضل السعداء هم السابقون، ولذا قدموا في تفصيل ثوابهم.

٨ ـ أن السابقين هم المقربون.

٩ ـ أن السابقين في سلف الأمة كثيرون، وفي آخرها قليلون. على أحد القولين في المراد بالأولين والآخرين.

١٠ ـ تفصيل ثوابهم في الجنة: سررٌ وخدمٌ ومآكلُ؛ لحم وفاكهة.

١١ ـ أن لهم أزواجًا في الجنة، وهنَّ الحور العين.

١٢ ـ وصف أزواجهم بأنهن حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون.

---

(١) ديوانه (ص٦).

١٣ ـ سلامة ما يقولون أو يسمعون من اللغو والتأثيم.

١٤ ـ أن الأعمال الصالحة سبب الثواب؛ ففيه:

١٥ ـ إثبات الأسباب.

ولما ذكر الله السابقين، وما أعد لهم في الجنة أتبعه بذكر أصحاب اليمين وما لهم من الجزاء عند ربهم، وهم دون السابقين؛ فقال سبحانه:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات تفصيل ثواب أصحاب اليمين من المآكل والمشارب والظل الظليل والأزواج الأبكار المتحببات إلى أزواجهن.

## التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ عبَّر عنهم أوَّلًا بأصحاب الميمنة وهنا بأصحاب اليمين لتنويع العبارة، وأصحاب اليمين هم المذكورون باسم الأبرار في سورة الإنسان وفي المطففين ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ استفهام تفخيم وتعجيب من شأنهم أي: ما أدراك ما هم، وما حالهم ﴿فِى سِدْرٍ﴾ أي: هم في سِدْر، وهو شجر النَّبْق واحده سِدْرة ﴿مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي: لا شوك فيه، وهذا الشجر له خصائص من طيب الظل وحسن الثمرة، ومن فضل هذا النوع من الشجر أن منه سدرة المنتهى التي نوَّه الله بشأنها في قوله: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾

[النجم: ١٤ـ ١٥]، والظرفية في قوله: ﴿فِى سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾﴾ تشير إلى انغماسهم في النعيم وتمكنهم منه.

قوله سبحانه: ﴿وَطَلۡحٖ﴾ هو شجر الموز ﴿مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾﴾ أي: ثمره منضود، أي: متراكب بعضه فوق بعض ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾﴾ أي: ممتد منبسط لا يزول، والجنة كلها ظل كما قال سبحانه: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧]، والجنة لا شمس فيها، كما قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾﴾ أي: جار دائمًا لا ينقطع ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾﴾ أي: كثيرة الأنواع والأصناف ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ﴾ في وقت من الأوقات كفاكهة الدنيا ﴿وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾﴾ عمَّن يريدها، فهي مبذولة لهم دائمًا ﴿وَفُرُشٖ﴾ جمع فِراش ﴿مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ أي: مرفوعة على الأسرة، وفي ذكر الفُرش إشارة لطيفة إلى نساء الجنة، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾﴾ أي: خلقناهنَّ خلقا بديعًا عجيبًا لا يقبل الفناء ولا التغيُّر، وهذا يشمل الإنشاء الابتدائي الذي هو للحور العين، والإنشاء الثاني وهو لنساء الدنيا فإنهن يُنشَأن في الجنة فيصبحن كالحور العين، فظهر بذلك أن الآية عامة لنساء الجنة من الحور ومن المؤمنات، فجميعهن ينشئهن الله على سن واحدة هي ثلاث وثلاثون، وهي شرخ الشباب، وعلى صفة واحدة من الجمال والدلال وحسن التبعل، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: صيَّرناهن عَذارى ﴿عُرُبًا﴾ جمع عَروب، وهي المرأة الشديدة الحبِّ لزوجها ﴿أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾﴾ أي: مستويات في السن، جمع تِرب، وهو المساوي لصاحبه في السن؛ قيل: لأن التراب يمسُّ جلدهما في وقت واحد.

فكل ما ذكره الله من هذا الثواب العظيم هو ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾

وهم ﴿ثُلَّةٌ﴾ أي: جماعة كثيرة ﴿أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ أي: من الأمم السابقة أو من صدر هذه الأمة المحمدية ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾ أي: من هذه الأمة أو من آخر هذه الأمة، على ما تقدم في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ أن في الجنة سدرًا.

٢ ـ أنه لا شوك فيه.

٣ ـ أن في الجنة طلحًا، وهو شجر الموز.

٤ ـ أن ظل الجنة ممدود لا تمحوه شمس، قال تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ [الإنسان: ١٣].

٥ ـ أن من ثواب أهل اليمين فاكهة كثيرة، فكيف بالسابقين؟!

٦ ـ أن هذه الفاكهة دائمة لا تنقطع.

٧ ـ أن لأصحاب اليمين في الجنة أزواجًا أنشأهنَّ الله لهم.

٨ ـ أنهن أبكار.

٩ ـ أنهن أتراب على سن واحدة.

١٠ ـ أنهن متحببات إلى أزواجهن؛ لقوله: ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب.

١١ ـ أن أصحاب اليمين كثيرون من الأمم الماضية ومن هذه الأمة.

***

لما ذكر الله صنفي السعداء السابقين وأصحاب اليمين عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال؛ ليتبين الفرق بين المؤمنين والكافرين وتحصل بذلك العبرة للمعتبرين؛ فقال سبحانه:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات الإخبار عن جزاء أهل الشِّمال، وذكر أحوالهم وأعمالهم في الدنيا وأقوالهم، والإخبار عن جمع الأولين والآخرين في يوم معلوم، ثم تهديد المشركين الجاحدين للبعث بما سيلقون من ألوان العذاب، كما تضمنت تأكيد التهديد بالخبر بأن ذلك نزل المكذبين.

## التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ هم الكفار المذكورون أولًا بأصحاب المشأمة، وأضافهم هنا إلى الشمال لأنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم ويؤخذ بهم ذات الشمال ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ استفهام ذمٍّ لهم وتفظيع وتعجب، أي: ما أسوأ حالهم وأقبح مصيرهم! ﴿فِى سَمُومٍ﴾ أي: هم في سموم، أي: ريحٍ حارة تدخل في مسام أبدانهم وتحيط بهم ﴿وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾ أي: ماءٍ حار متناهٍ في الحرارة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

قوله سبحانه: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ أي: ظلٌّ من دخان شديد

السواد، مأخوذ من الحُمَم، وهو الفَحم، وفي هذا التعبير تهكم بهم وسخرية؛ حيث جعل لهم ظلًّا كأصحاب اليمين، ولكنه ظلٌّ من دخان، فهو ظل لا خير فيه، ولهذا قال: ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ أي: ليس ظلًّا باردًا مما يُستروح به ﴿وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ولا حسن المنظر فيؤنس به، وفي الكلام تعريض بأن الذي يستأهل الظل الكريم غيرهم، والآيات من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإذا كان هذا المذكور في عذابهم هو الهواء والماء الذي يُسقونه، فما ظنُّك بالنار التي يصلونها ويقاسون شدائدها؟!

ثم إنه تعالى ذكر أعمالهم التي استحقوا بها هذا العذاب؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: منعَّمِين مسرفين في الشهوات معرضين عن الإيمان، وصدور المعصية ممن كثرت عنده النعم أقبح ممن عصى ولا نعمة لديه؛ لأن النعم تستوجب الشكر والطاعة ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ أي: يقيمون ويداومون ﴿عَلَى الْحِنثِ﴾ أي: الإثم ﴿الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ أي: الذي لا مثيل له، وهو الشرك ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ﴾ في الدنيا مع شركهم ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: هل نُبعث إلى الحياة مرة أخرى بعد أن نكون ترابًا وعظامًا نخرة؟! فالاستفهام في قوله: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ للإنكار والاستبعاد والتعجب، والاستفهام الثاني وهو قولهم: ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ توكيد للإنكار الأول، وجمْعُهم بين التراب والعظام مبالغة منهم في تصوير الفناء الذي يصيرون إليه، وتقديم التراب على العظام لأنه أدخل في تعليل الإنكار حسب زعمهم ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ استفهام استنكار واستبعاد أيضًا منهم، فهو تأكيد ثالث للإنكار الأول ومبالغة في الاستبعاد، أي: هل يُبعث آباؤنا الأولون وقد بليت أجسادهم وصاروا ترابًا؟! إن ذلك لأشدُّ العجب.

ويأمر الله نبيه أن يردَّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: قل لهم: إن جميع الخلائق من الأمم الغابرة ومن هذه الأمة ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ أي: يجمعون ويحشرون لا محالة في وقت معين لا يتجاوزونه، وهو يوم القيامة، وقوله: ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ يتعدى بـ (في)، ولكنه ضمِّن معنى مَسُوقون، فعُدي بإلى، وإضافة ميقات إلى يوم بيانية بمعنى (مِن)، كما في قولهم: خاتم فضة وجدار طين، ومعنى كونه معلوما أنه معيَّن عند الله ﷻ.

قوله سبحانه ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ هذا من القول الذي أمر النبي ﷺ أن يبلغه إلى قومه المكذبين بالبعث، أي: قل لهم - أيها الرسول - إنكم أيها الجاحدون الضالون عن سبيل الهدى ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ بالبعث ﴿لَآكِلُونَ﴾ بعد البعث ودخول جهنم ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ وهي شجرة تنبت في جهنم كريهة المنظر والطعم والرائحة طلعها كأنه رؤوس الشياطين، فهي كريهة من جميع الوجوه، قال ﷺ: «**لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض لأمرَّت على أهل الدنيا معيشتهم، فكيف بمن هو طعامه، وليس له طعام غيره؟!**»[١].

قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: مالئون منها بطونكم، فهم - والعياذ بالله - يأكلون من هذه الشجرة الخبيثة اضطرارا؛ لأنهم في غاية الجوع، ثم يشربون على هذا الذي أكلوا ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ أي: من الماء الحار الذي اشتد غليانه لشدة عطشهم ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣١٣٦) عن ابن عباس، قال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وورواه الترمذي (٢٥٨٥) وابن ماجه: (٤٣٢٥)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

أي: الإبل، جمع أَهْيَم وهَيْماء، وهو الجمل والناقة التي أصابها الهِيام، مثل بِيض جمع أبيض وبيضاء، والهِيام داء معطِّش تشرب منه الإبل إلى أن تموت أو تسقم سُقمًا شديدًا، أي: يشربون كشرب الإبل الهِيم، فهم يظلون يشربون الحميم شربًا لا ينقطع.

وقوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ معطوف على قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾، والمعطوف والمعطوف عليه شيء واحد، ولكن متعلَّق الوصفين مختلف؛ فالأول ذكر فيه المشروب منه وهو الحميم، والثاني ذكر فيه صفة الشرب، فهو من قبيل عطف الصفات.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ أي: الذي ذكر من ألوان العذاب ﴿نُزُلُهُمْ﴾ أي: الزاد الذي يقدم لهم ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: يوم القيامة، وهذا تهكم به واستهزاء؛ فإن النُّزُل يعدُّ في الأصل للأضياف إكراما لهم، وهذا جزاء موافق لاستهزائهم في الدنيا بالبعث وبالرسول ﷺ.

## الفوائد والأحكام:

١ - أن أصحاب الشمال هم أصحاب المشأمة.

٢ - تفصيل جزائهم؛ سموم وحميم وظل من يحموم.

٣ - أن أصحاب الشمال هم المكذبون بيوم البعث.

٤ - أن من أحوالهم النعيمَ والترفَ في الدنيا، فعذابهم أشد على نفوسهم مما لو كانوا غير مترفين.

٥ - أن من إجرامهم ارتكابَ الإثم العظيم، وهو الشرك والتكذيب بالبعث وغيرهما من كبائر الذنوب، والإصرار على ذلك.

٦ - الرد على المكذبين بالبعث بذكر الخبر المؤكد.

٧ ـ جمع الأولين والآخرين في يوم القيامة، ولذا سمّي يوم الجمع.

٨ ـ مواجهة المكذبين تهديدا لهم بما سيلقونه من أنواع النكال.

٩ ـ أن من أنواع العذاب في جهنم الأكل من شجرة الزقوم والشرب من الحميم، والتعذيب بأشد الجوع وأشد العطش.

١٠ ـ أن خروج شجرة الزقوم من أصل الجحيم آية من الآيات الدالة على قدرته تعالى.

١١ ـ أن من أنواع البيان في القرآن التشبيه بما يعرفه الناس في هذه الدنيا؛ لقوله: ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

١٢ ـ أن أهل النار يأكلون ويشربون، وذلك من أنواع عذابهم.

١٣ ـ أن من أدلة قدرة الله أن أهل النار الذين هم أهلها لا يحترقون فيموتون، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ [فاطر: ٣٦].

١٤ ـ التهكم بالكافرين.

١٥ ـ أن عذاب أهل النار في النار غايةٌ في الهول والفظاعة.

١٦ ـ أن ذكر ذلك إنذارٌ للمكذبين الضالين، وتحذيرٌ للمؤمنين من سلوك طريقهم.

١٧ ـ في الآيات شاهد لقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥ ـ ٢٦].

* * *

ولما ذكر الله حال الأشقياء في النار، وبيّن أن من أعظم أسباب عذابهم إنكارهم البعث، ذكر الأدلة والبراهين على إثبات البعث فقال سبحانه:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات تقرير أربعة من أدلة قدرته تعالى احتجاجًا على منكري البعث، وإلزامًا لهم بموجَب إقرارهم بهذه الأمور الأربعة المذكورة:

**أحدها**: خلق الله إياهم من النُّطَف التي يُمنون.

**الثاني**: إنباته تعالى ما يحرث الناس، وإنماؤه لبلوغ تمامه.

**الثالث**: إنزاله تعالى الماء من المزن عذبًا زلالًا للشاربين.

**الرابع**: خلقه تعالى النار من الشجر التي أنشأها سبحانه.

## التفسير:

قوله سبحانه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ لولا حرف تحضيض، وهو تحضيض على التصديق؛ أي: نحن أوجدناكم بعد العدم فهلّا تصدقون بالبعث بعد الموت؛ فإن من قدر على الخلق الأول فهو على الإعادة أقدر.

ثم يذكر الله الأدلة على إثبات البعث بطريق إلزامهم ما ينكرونه بما يقرون به، فيقول سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: أخبروني عن هذا الماء الذي ﴿تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: تقذفونه في الأرحام ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: أأنتم توجدونه وتتعاهدونه في أطواره الغيبية حتى يصير بشرًا سويًا أم نحن الخالقون له، فهذا احتجاج عليهم بما يقرون به؛ فإنهم يؤمنون بأن الله هو الخالق، ولا يسعهم حينئذ إلا أن يقروا بأن الله الذي خلقهم في النشأة الأولى لا يعجز عن خلقهم في نشأة البعث الثانية، والاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ إنكاريٌّ، و﴿أَمْ﴾ متصلة، وما بعدها معادل لما بعد الهمزة، والاستفهام في قوله: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ تقريريٌّ؛ لأنهم لا بد أن يقولوا: أنتم الخالقون، وهكذا يقال في نظائر هذه الآية من الآيات الآتية.

قوله سبحانه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: نحن حكمنا عليكم بالموت مقدَّرًا لكلِّ أحدٍ نصيبُه، موقتٌ بميقات لا يتعداه ولا يتقدمه ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقد ضُمِّن الفعل ﴿قَدَّرْنَا﴾ معنى (قسمنا) لذلك عمل في الظرف (بين) الدال على القَسْم، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فالموت مقسوم بين العباد لا يفوت أحدًا نصيبُه منه حسب تقدير الله ومشيئته النافذة، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قوله سبحانه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: وما نحن بعاجزين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي: نغيِّر صوركم يوم القيامة ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: ونعيدكم في صور لا تعلمونها ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ولقد أيقنتم أن الله هو الذي أنشأكم النشأة الأولى، وهي خلقُهم أول مرة في الدنيا ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: فهلَّا تتذكرون أن الله قادر على أن ينشئكم النشأة الثانية، وهي بعثهم يوم القيامة.

ثم ذكر الله دليلًا آخر على وحدانيته تعالى وقدرته على البعث والإنشاء بعد العدم، فقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: أخبروني عن هذا الحرث الذي تحرثونه في الأرض، وتلقون فيه البَذر ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ أي: أأنتم تُنبتونه وتنشئونه حتى يكون فيه الحبُّ والسنبل ويتهيَّأ للحصاد ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: أم نحن المنبتون له وحدنا، وقد نسب الله الحرث للناس ونسب الإنبات لنفسه، فهو زارعُه ومنمِّيه.

قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: لو نشاء لصيَّرنا هذا الزرع النَّضِر ﴿حُطَٰمًا﴾ أي: يابسًا متكسِّرا لا ينتفع به ﴿فَظَلْتُمْ﴾ أي: صرتم، وأصله ظَلِلْتم، حذفت اللام الأولى تخفيفًا ﴿تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: تتعجبون من سوء حاله نادمين قائلين: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: أصابنا الغُرم والخَسار بهذا الزرع التالف ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: حُرمنا زرعَنا ورزقَنا كلَّه، فـ ﴿بَلْ﴾ للترقي.

وذكر الله دليلًا ثالثًا على البعث فقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: أخبروني عن هذا الماء الذي تشربونه عذبًا سائغًا ميسورًا لكم في كل وقت ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي: من السَّحاب جمع مُزْنة ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: أم نحن المنزلون له عليكم بقدرتنا ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أي: لو نشاء صيَّرناه شديد الملوحة زُعاقًا أو مُرًّا فلا تنتفعون به ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ تحضيض لهم على الشُّكر، أي: فهلّا توحدون الله وتشكرونه على نعمه.

وجاء جواب ﴿لَوْ﴾ في الزرع في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ مقترنا باللام، ولم تأت اللام في جواب ﴿لَوْ﴾ في قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، وهذا من باب التنويع في الكلام، وهو موافق

للقاعدة المعروفة، وهي أن جواب ﴿لَوْ﴾ إذا كان مثبتًا فيجوز فيه الوجهان: إثبات اللام وحذفها، وإذا كان منفيًّا فلا تدخله اللام. هذه هي اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

قوله سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ هذا هو الدليل الرابع من أدلة البعث، أي: أخبروني عن هذه النار التي تقدحونها من الشجر الرطب ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: أأنتم خلقتم شجرتها أم نحن الموجدون لها بقدرتنا، وكانت طريقة العرب في إيقاد النار أنهم يأخذون عودا من شجر المَرْخ - بفتح الميم وسكون الراء - وعودا من شجر العَفار - بفتح العين - ويحكُّون الأعلى بالأسفل حكًّا شديدًا فيخرج من ذلك الحكِّ شررُ النار، فالله يحتج عليهم في إمكان البعث بخروج النار من هذه الأعواد الرطبة الخضراء بقدرته تعالى، فهذا برهان محسوس على كمال قدرة الخالق بإيجاد الشيء من ضده، ومَن هذا شأنه لا يعجزه إحياء الموتى.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾ أي: هذه النار التي توقدون في الدنيا ﴿تَذْكِرَةً﴾ أي: مُذكِّرة بنار جهنم ﴿وَمَتَٰعًا﴾ أي: بُلغةً ومنفعةً ﴿لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: المسافرين، وأصل المُقوي هو النازل في القَواء وهو القَفر، فالمسافر يحمل أعواد الإيقاد معه، فينتفع بالنار في طعامه واصطلائه وإضاءته، وإذا كانت النار ميسورة للمسافر، فالمقيم من باب أولى، ولهذا جاء عن مجاهد وغيره في قوله تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: للناس جميعا من حاضر وباد[1]، وفي هذا إشارة إلى أن الناس كلهم في هذه الحياة الدنيا على سفر، فليسوا مقيمين ولا مستوطنين، وقدَّم الله

---

(١) رواه ابن جرير (٢٢/ ٣٥٧).

كونها تذكرة على كونها متاعًا ـ والله أعلم ـ ليعلم أن الفائدة الأخروية أتمُّ، وبالذكر أهمُّ.

وما ذكره الله في هذه الآيات من دلائل قدرته وربوبيته في خلق الإنسان والنبات والماء والنار يوجب للعبد تمجيد ربه العظيم الكامل الصفات، الواسع الخيرات، رب الأرض والسماوات، ويستدعي شكره وتنزيهه عن كل نقص وعيب، ولهذا أمر الله نبيه أن يسبح باسمه فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ وهو أمر عام لكل مؤمن، أي: نزِّه ربك عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله، واذكره باسمه العظيم، والباء للتعدية في ﴿بِٱسْمِ﴾، وذكرُ اسمه تعالى ﴿ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦﴾ يقتضي ذكره بهذا الاسم، وجاء عنه ﷺ أنه لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ قال: «اجعلوها في ركوعكم»[(١)]، وقال ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[(٢)].

## الفوائد والأحكام:

١ ـ التمهيد لذكر أظهر الأدلة على البعث بذكره على وجه الإجمال في قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾.

٢ ـ دعوة المكذبين إلى التصديق بالبعث، مع ذكر الحجة عليهم مما يقرون به، مما هو داعٍ إلى التصديق في قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾.

٣ ـ تفصيل الاستدلال على البعث بخلق الإنسان من الماء الذي يُمنون.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٧٤١٤) وأبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) والدارمي (١٣٤٤) والحاكم (٢/٤٧٧) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٤) ومسلم (٢٦٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٤ ـ تقرير المخاطبين بخلق الله لهم من ذلك الماء.

٥ ـ التوطئة لذكر البعث بذكر الموت؛ لقوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ الآيتين، ولهذا نظائر في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٥ ـ ١٦]، أو هو من الجمع بين القيامتين كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ [ق: ١٩ ـ ٢٠].

٦ ـ قضاء الله الموت بين العباد، وجعله مقسوما بينهم، فكل نفس ذائقة الموت، ولكلٍّ أجلٌ محتوم.

٧ ـ إثبات صفة القدرة لله تعالى.

٨ ـ إثبات قدرته تعالى على البعث.

٩ ـ نفي العجز عنه سبحانه وتعالى لكمال قدرته.

١٠ ـ أن الله لا يغلبه على ما يريد غالب.

١١ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل.

١٢ ـ ذكر النشأتين وعلم العباد بالأولى دون الأخرى، وأن الله فاعلهما.

١٣ ـ تنبيه المخاطبين على دلالة الأولى على الأخرى.

١٤ ـ في الآيات شاهد لقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

١٥ ـ إثبات قياس الأولى؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

١٦ ـ الإشارة إلى أحد أدلة البعث، وهو إحياء الأرض بعد موتها بإخراج النبات.

١٧ ـ أنه ليس للعباد فيما يزرعونه إلا الحرث، وما يتبعه من البذر، دون الإنبات والإنماء والإتمام؛ فإنه إلى الله، لذلك فهو الزارع على الحقيقة.

١٨ ـ أن الزرع ولو تمَّ نماؤه لو شاء الله لجعله حطاما بآفة أو ريح أو ما شاء الله تعالى.

١٩ ـ وصف حال الزارعين إذا أصيبت حروثهم، وقد عملوا فيها وأنفقوا الأموال، حزنًا وشعورًا بالحرمان، وذلك في قوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧﴾.

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢].

٢١ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٢٢ ـ ذكر دليل من أدلة قدرته ورحمته بعباده، وهو إنزال الماء من السحاب عذبا فراتًا، ولو شاء لجعله أجاجًا.

٢٣ ـ دعوة العباد إلى ما يقتضيه الإنعام من شكره تعالى.

٢٤ ـ ضعف العباد وعجزهم عن دفع ما يريده الله بهم من سوء.

٢٥ ـ أن من أدلة قدرته تعالى على البعث إنشاء الشجر التي تستخرج منها النار.

٢٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس: ٨٠].

٢٧ ـ الامتنان على العباد بجعل النار لهم تذكرة بنار الآخرة، ومتاعا لهم في الدنيا.

٢٨ ـ أن الخلق والزرع وإنزال الماء وإنشاء الشجر من أفعاله تعالى.

٢٩ ـ مشروعية تذكر نار الآخرة عند رؤية نار الدنيا أو ملابستها.

٣٠ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى؛ لقوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

٣١ ـ أن هذه النعم والآيات من آثار ربوبيته وعظمته فتقتضي التسبيح.

٣٢ ـ الأمر بتسبيحه تعالى بذكر اسمه سبحانه.

٣٣ ـ وجوب تنزيهه تعالى عن كل نقص وعيب.

٣٤ ـ إثبات الربوبية الخاصة لله تعالى؛ لقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وهي ربوبيته للنبي ﷺ، كما تفيده الإضافة، وحكم التسبيح عام لأمته، وجاء عنه ﷺ أنه لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ قال: «**اجعلوها في ركوعكم**»[1].

٣٥ ـ إثبات اسم الله العظيم لقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

لما ذكر الله الأدلة على الألوهية والبعث أتبع ذلك بذكر الأدلة على صدق القرآن، وأنه منزَّلٌ من رب العالمين؛ فقال سبحانه:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

(١) تقدم تخريجه.

**المعنى الإجمالي:**

تضمنت هذه الآيات قَسَمًا عظيمًا من الله تعالى، وهو القسم بمواقع النجوم على أن هذا الكتاب قرآن كريم، وأنه في كتاب مكنون وهو اللوح المحفوظ، وهذا الكتاب لا يصل إليه أحد ولا يمسه إلا المطهرون، وهذا القرآن تنزيل من رب العالمين، ثم ينكر تعالى على الكفار إدهانهم أي: تكذيبهم بالقرآن، وجعلهم حظَّهم من هذا الكتاب العظيم النفع هو التكذيب به، وهذا كفر بأعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، وكان واجبهم أن يشكروا الله عليها بالإيمان.

**التفسير:**

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ أي: أقسم بمواقع النجوم، و(لا) زائدة للتأكيد وليست لنفي القسم، بدليل قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾، وهذا أسلوب معروف في كلام العرب يأتون بـ (لا) مع القسم لتقوية الكلام وتأكيده، كما قال الشاعر:

فلا ـ وأبيكِ ـ ابنةَ العامريِّ (م) لا يدَّعي القومُ أني أفِرّْ[1]

فالله يقسم ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ أي: مواضع سقوطها وغروبها، والإقسام بمواقع النجوم تنويه بالنجوم نفسها، وتنبيه للعباد إلى ما تنطوي عليه من العجائب في سيرها وطلوعها وغروبها بنظام دقيق تحار فيه العقول، وكلٌّ ذلك مما يدل على كمال قدرة خالقها وحكمته وعلمه وبديع صنعه، قال تعالى: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ أي: هذا القسم بمواقع النجوم ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ الجملة معترضة لتفخيم القسم ﴿عَظِيمٌ ٧٦﴾ أي: قسَمٌ عظيمٌ؛

(١) لامرئ القيس في ديوانه (ص١٥٤).

لما يدل عليه من آيات الله في النجوم من مطالعها ومغاربها ومجاريها في السماء، ثم ذكر الله جواب القسم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ من الكَرَم وهو الحُسن والشَّرف، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أي: شرَف لك ولهم، فالقرآن كريم بالغ الكرم؛ فإنه جامع لكل خير، كثير المنافع؛ لما تضمنه من العلوم العظيمة والشرائع القويمة، ولاشتماله على جميع أسباب السعادة العاجلة والآجلة، ولما هو عليه من فصاحة ألفاظه وإشراق معانيه وتجدد هداياته في القلوب، وعلى الجملة فهو كتاب مبارك، وهو أحسن الكتب المنزلّة وأعظمها على الإطلاق، وهذا القرآن مثبت ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾ أي: كتاب محفوظٍ مصونٍ من التبديل والتغيير، والمراد به اللوح المحفوظ الذي في السماء.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ أي: لا يمسُّ الكتاب المكنون وهو اللوح المحفوظ ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ وهم الملائكة المنزَّهون من الشرك والذنوب وسائر الأحداث، ولا تدل الآية على التطهر عند مس المصحف؛ لأن الضمير في ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ يعود على اللوح المحفوظ، وإن كان التطهر من الحدثين الأصغر والأكبر واجبًا عند مس المصحف من أدلة أخرى، كما هو قول جمهور العلماء، أما هذه الآية فلا تدل على وجوب الطهارة عند مس المصحف.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ هذا وصف للقرآن، أي: هو منزَّلٌ أحسنَ تنزيل من عند الله العليم بمصالح خلقه وبما يكون سببا لسعادتهم في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

وإذْ وَصف الله القرآن بهذه الأوصاف الحميدة فيجب الإيمان به، وتصديق أخباره، والعمل بأحكامه، وأن يعظم بأنواع التعظيم، ولهذا وجَّه الله الخطاب إلى الكفار المكذبين بالقرآن موبخًا لهم ومنكرًا عليهم؛ فقال سبحانه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي مكذِّبون جاحدون ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: تجعلون بدل شكر هذا النعمة العظيمة ـ القرآن ـ التكذيبَ به، وهذا من التهكم بهم؛ إذْ سمَّى تكذيبهم رزقًا.

**الفوائد والأحكام:**

١ ـ أن من أقسام الله تعالى إقسامَه بمواقع النجوم.

٢ ـ عظمة هذا القَسَم في حكم الله.

٣ ـ أن المشركين لا يدركون عِظَم شأن هذا القَسم.

٤ ـ أن إدراك حقيقة الشيء توجب معرفة قدره.

٥ ـ التناسب بين المقسَم به والمقسَم عليه؛ لأن كلًّا من النجوم والقرآن يُهتدَى به؛ فالنجوم يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، والقرآن يُهتدى به في ظلمات الجهل والكفر.

٦ ـ وصف القرآن بأنه كريم، كوصفه بعزيز وحكيم ومجيد.

٧ ـ أن هذا القرآن مثبت في الكتاب المكنون، وهو اللوح المحفوظ.

٨ ـ أن اللوح مكنون، أي: مصون.

٩ ـ أن الكتاب المكنون لا يمسه إلا المطهرون، وهم الملائكة.

١٠ ـ أنه ليس في الآية تحريم مسِّ المحدث للمصحف؛ لأن

الضمير المنصوب في ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ عائد إلى الكتاب المكنون، كما تقدم بيانه في التفسير.

١١ - الثناء على الملائكة بالطهر من كل قبيح حسيٍّ ومعنويٍّ.

١٢ - أن القرآن منزل من رب العالمين ليس بمخلوق.

١٣ - إثبات علو الله على خلقه؛ لقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾.

١٤ - إثبات الربوبية العامة لله تعالى.

١٥ - إنكار الله على المشركين تكذيبهم بالقرآن.

١٦ - تسفيه عقول المشركين أن جعلوا حظهم من هذا القرآن العظيم المبارك التكذيب.

---

ثم ذكر الله بعضا من دلائل ربوبيته ووحدانيته، ومن مظاهر عجز المشركين بل الخلق أجمعين، وما يصيرون إليه بعد الموت، فقال سبحانه:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات ذكر القيامة الصغرى، وهي الموت، وأقسام

الناس فيها، وذكرَ جزائهم، كما ذُكرت القيامة الكبرى في أول السورة، وافتتحت هذه الآيات بتحدي المنكرين للبعث والجزاء إن كانوا صادقين أن يردُّوا الروح التي بلغت الحلقوم فشارفت على فراق بدنها، والناس في هذه القيامة ثلاثة أصناف، كما هم في القيامة الكبرى:

**الأول**: مقرَّبون، وهم السابقون في أول السورة، وجزاؤهم رَوح وريحان وجنة نعيم.

**الثاني**: أصحاب يمين، وهم أصحاب الميمنة في أول السورة، ومن جزائهم أن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم.

**الثالث**: المكذبون الضالون، وهم أصحاب المشأمة في أول السورة، وجزاؤهم نُزُل حميم وتصلية جحيم، ثم ختمت الآيات بتأكيد الخبر والأمر بالتسبيح.

**التفسير:**

قوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣﴾ لولا حرف تحضيض في الأصل، أي: طلب حصول ما بعده، ولكن أريد بها هنا التعجيز والتبكيت لمنكري البعث والجزاء، أي: هلَّا إذا بلغت روح أحدكم الحلقوم، وهو مجرى النفس، حال الاحتضار ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤﴾ إلى المحتضر وهو يعاني سكرات الموت، ولا تنفعونه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يعني قرب الملائكة ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾ أي: لا تبصرون الملائكة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦]، ويرى بعض العلماء أن هذا القرب المضاف إلى الله هو القرب عام، وأن هناك قربًا خاصًّا من الله يكون لعباده المؤمنين، فيجعلون القرب كالمعية في انقسامها إلى عامة وخاصة.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦﴾ أعيدت ﴿فَلَوْلَآ﴾ تأكيدًا

للأولى ولطول الفصل، أي: فهلَّا إن كنتم غير مجزيين ولا مبعوثين ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي: تردُّون روح المحتضَر إليه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: في زعمكم أنكم لا تبعثون ولا تحاسبون، فهذا احتجاج على البشر وإظهار لعجزهم؛ لأنهم إذا حضر أحدهم الموت لم يقدروا أن يردوا روحه إلى جسده، وذلك دليل على أنهم عبيد مقهورون، مربوبون لله تعالى.

ثم يذكر الله حال الناس بعد الموت، ويجعلهم أزواجًا ثلاثة بحسب أعمالهم في الدنيا، فيقول سبحانه: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ وهم السابقون إلى الخيرات، المذكورون في أول السورة في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾، فمَن كان مِن هؤلاء ﴿فَرَوْحٌ﴾ أي: فله رحمة واسعة من الله وفرحٌ واطمئنانُ نفس ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ أي: ورزق طيِّب ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي: جنةُ ذاتُ نعيم؛ من إضافة الموصوف إلى الصفة، فيتنعَّم صاحبها ببدنه وقلبه، وتبشره الملائكة بذلك عند الموت.

قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ أي: المتوفَّى ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾ وهم سائر المؤمنين، سمُّوا بذلك لأنهم يأخذون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ أي: تقول له الملائكة: سلام لك، أي: سلامة لك ونجاة وأمن، وفيه معنى الدعاء ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾ أي: أنت من أصحاب اليمين، أو سلام لك من إخوانك أصحاب اليمين، أي: يسلمون عليك، وتسلِّم الملائكة عليه أيضًا تحية وتكريمًا كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾ أي: الكافرين، أي: أصحاب الشمال، ونعَتهم بالتكذيب والضلال، بفساد الاعتقاد

وفساد العمل ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣﴾ أي: فله نُزُلٌ أي: ضيافة من ماء جهنم الشديد الحرارة، وفي الآية تهكم به، لأن أصل النُّزُل هو القِرَى الذي يُعد للضيف إكرامًا له، وهذا في مقابل استهزائه بالبعث، فبئس النُّزُل ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾ أي: إحراقٌ له بالنار ليذوق حرَّها، ويقاسي أنواع عذابها ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الذي ذكر في الآيات ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝٩٥﴾ أي: الحقُ اليقين، أي: الثابت المحقق الذي لاشك فيه، وهو أعلى درجات اليقين، فهو كالشيء المشاهَد، وإضافة حقٍّ إلى اليقين من إضافة الموصوف إلى الصفة.

قوله سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝٩٦﴾ أي: نزِّه ربك المحسن إليك بأنواع النعم عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله، واذكره باسمه العظيم، وهذا خطاب عام لكل أحد، كما تقدم، ومناسبة ختم السورة بهذه الآية أن ما ذكر فيها من الأخبار والوعد والوعيد دالٌّ على صفات كماله تعالى العظيمة، وبديع صنعه وعدله ورحمته وحكمته جل جلاله، فسبحان ربنا العظيم!

## الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات الروح التي جعلها الله قياما للبدن.

٢ ـ أن الروح ليست عرَضًا، بل هي شيء قائم بنفسه.

٣ ـ أن الروح عند الموت تخرج من أسفل البدن شيئًا فشيئًا حتى تبلغ الحلقوم، وهو مجرى النفَس، وتلك ساعة الغرغرة التي لا تُقبل التوبة عندها، وهذه الكيفية باعتبار أكثر أحوال الموتى.

٤ ـ فقد الإنسان حال الاحتضار لجميع قواه.

٥ ـ أن أهل الميت ينظرون إليه في تلك الحال حائرين عاجزين.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٢٨].

٧ ـ أن ملك الموت وأعوانه أقرب إلى الميت من أهله.

٨ ـ أنهم مع قربهم لا يراهم الذين حول الميت.

٩ ـ أن هذا القرب المضاف إلى الله هو قربه تعالى بملائكته.

١٠ ـ تحدي منكري البعث أن يردوا الروح إلى بدنها إن كانوا صادقين في جحد البعث والجزاء.

١١ ـ أن الناس في هذا المقام ثلاثةُ أصناف: مقربون وأصحاب يمين وأصحاب شمال، وهم المكذبون الضالون.

١٢ ـ أن انقسام الناس في القيامة الصغرى إلى ثلاثة أصناف، كانقسامهم إلى ثلاثة أصناف في القيامة الكبرى.

١٣ ـ ذكر عاقبة كل صنف.

١٤ ـ أن كل صنف يُبشر بما أعد له.

١٥ ـ التناسب بين أول السورة وآخرها.

١٦ ـ التفصيل فيما أعد للمقربين وما أعد للمكذبين الضالين.

١٧ ـ أن الملائكة تسلِّم على المؤمن، وتبشره بالسلامة والنجاة.

١٨ ـ حذف فعل القول إذا دلَّ عليه الدليل؛ لقوله: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾، أي: يقال له: سلام لك، وهو كثير في القرآن.

١٩ ـ أن كل ما يحصل للميت من خير أو شر هو مقدمة لما بعده، وبعضٌ منه.

٢٠ ـ أن السعداء صنفان: مقربون وأصحاب يمين، كما في أول السورة.

٢١ ـ أن الروح بعد فراقها البدن إما معذَّبة أو منعَّمة.

٢٢ ـ أن أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكفار في النار.

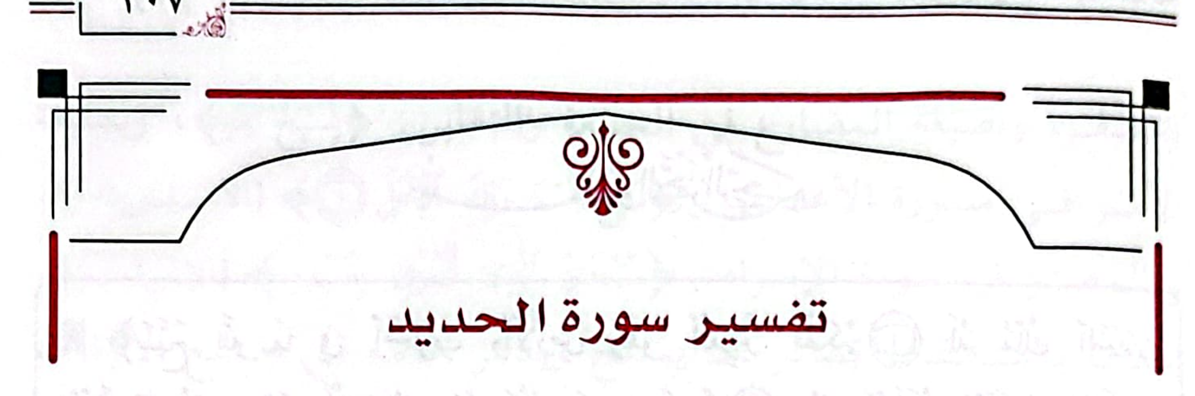
٢٣ ـ إثبات البعث والجزاء والثواب والعقاب.

٢٤ ـ إثبات الجنة والنار.

٢٥ ـ أن هذه الأخبار باعتبار تحققها بمنزلة حق اليقين.

٢٦ ـ أنه تعالى بهذه الأحكام القدَرية والجزائية يستحق التنزيه والتعظيم بقول: سبحان الله العظيم.





# تفسير سورة الحديد

هذه السورة مدنية على قول الجمهور، وآياتها تسع وعشرون، افتتحت بالخبر بتسبيح العوالم له سبحانه، وبثنائه تعالى على نفسه بأفعاله وصفات كماله، ثم الأمر بالإيمان والإنفاق، وأنه لا عذر للمقصرين، مع التنبيه على تفاضل المؤمنين والمنفقين، ثم ذكر أحوال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في سيرهم إلى مصائرهم يوم القيامة، ثم ذكر تعالى عتبه على المؤمنين أن تأخروا في خشوع قلوبهم لذكر الله، لئلا يشبهوا أهل الكتاب الذين قست قلوبهم، ثم أثنى على المتصدقين والمؤمنين بالله ورسله.

ثم عرَّف العباد بحقيقة هذه الدنيا، تحذيرا لهم من الاغترار بها، وأمرهم بالسباق إلى جنة عرضها السماوات والأرض، ثم نبَّه تعالى على أن كل ما يجري على الناس، فهو مثبت في كتاب قبل وجودهم، ثم أخبر عن إرسال الرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والميزان، وخصَّ بالذكر نوحًا وإبراهيم وعيسى ﵈، وختمت السورة بأمر المؤمنين بالتقوى والإيمان برسوله ﷺ، وذكْر ما يجزيهم الله به على ذلك، والحكمة في ذلك، وكلُّ ذلك من فضله سبحانه، وهو ذو الفضل العظيم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾.

## المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى عن تسبيح أهل السماوات والأرض له سبحانه، ويثني على نفسه بملك السماوات والأرض، وأنه الذي يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: نزَّه الله ومجَّدَه وقدَّسَه عن كلِّ ما لا يليق به جميعُ ما في السماوات وما في الأرض من العوالم من الملائكة والإنس والجن والأحياء والجمادات وسائر المخلوقات، والفعل ﴿سَبَّحَ﴾ يتعدى بنفسه، كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ﴾ [الإنسان: ٢٦]، لكن ضمِّن معنى التقديس فعدِّي باللام، كما يدل له قوله: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠].

وافتتاح السورة بذكر تسبيح الله وتنزيهه من حسن الافتتاح المعروف عند البلغاء؛ إذ يؤذن الافتتاح بالتسبيح بموضوعات السورة التي أشير إليها آنفًا، وهي من آثار عظمته تعالى ومجده وعزَّته وحكمته.

وجاء التسبيح بصيغة الماضي في هذه السورة، وفي سورة الحشر

والصف، وبصيغة المضارع في الجمعة والتغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾، وبصيغة الأمر في سورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، وبالمصدر في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، إعلاما باستحقاقه تعالى أن يسبَّح ويذكر اسمه في جميع الأوقات والأحوال، وفيه تنبيه المكلفين ألا يفتروا عن التسبيح والذكر، كما أخبر الله عن الملائكة أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وإن كان المكلفون لا يقوون على مثل فعل الملائكة؛ لضعف قواهم.

وهذا التسبيح المخبر عنه في الآية واقع بلسان الحال والمقال؛ فالعوالم العلوية والسفلية كلُّها تسبح الله، وإن لم ندرك كيفيات تسبيحها كلها؛ لأن الله قال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اسم موصول يعم العقلاء وغيرهم؛ لأن المعروف في العربية أن ما يَعقل إذا اختلط بما لا يعقل جاز أن يعبَّر عن الجميع بـ ﴿مَا﴾، وقدِّمت السماوات لعظمها وعلوها وشرف سكانها، وجمعت السماوات ـ والله أعلم ـ لأن كل سماء مستقلة عن السماء الأخرى، وأفردت الأرض لأنها بخلاف ذلك، أي: متصل بعضها ببعض.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ الواو للحال أو للاستئناف ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القوي الذي له القدرة التامة والإرادة النافذة فلا يُغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ أي: الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، فلا يفعل تعالى إلا ما تقتضيه الحكمة، ويلاحظ اقتران هذين الاسمين الكريمين في كثير من آيات القرآن، وذلك أنه تعالى يضع مقتضَى عزته في موضعه، خلافًا للمخلوق؛ فإنه قد يكون عزيزًا غير حكيم، أو حكيمًا غير عزيز،

ومناسبة ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين إشارة إلى أن عزَّته وحكمته من موجِبات تسبيحه وتقديسه.

ثم ذكر تعالى مِن معاني عزته وحكمته، فقال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا ومُلكًا وتدبيرًا، فكل ما سواه مفتقر إليه، وهو مستغن عن كل ما سواه، وله سبحانه التصرف المطلق في خلقه، فهو ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي من يشاء ويميت من يشاء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾ أي: كامل القدرة، فلا يعجزه شيء، ولا يخرج عن قدرته شيء ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ أي: سابق لجميع الموجودات، وليس لوجوده بداية ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ أي: الباقي بعد فناء كل شيء، وليس لبقائه نهاية ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ أي: الذي ليس فوقه شيء ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ أي: الذي ليس دونه شيء، وبهذا فسَّرها النبي ﷺ بقوله: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»(١).

واقتران الاسمين الكريمين ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ يتضمن إحاطته تعالى بكل شيء الإحاطة الزمانية، كما أن اقتران ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بـ ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ يدل على إحاطته المكانية بجميع المخلوقات ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ أي: محيطٌ علمُه بالأشياء كلها خفيِّها وجليِّها قبل وجودها وبعد وجودها، لا يخفى عليه منها شيء، وهذا عموم لا أعمَّ منه، ولا مخصص له، فهي أعم صيغة في القرآن، فهي أعم من قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾؛ لأن القدرة من حيث هي لا تتعلق إلا بالممكنات، بخلاف العلم؛ فإنه يتعلق بالموجود والمعدوم والممكن والمستحيل.

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

## ❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ تسبيح ما في السماوات وما في الأرض من الملائكة والجن والإنس والحيوانات والجمادات لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٢ ـ أن الله منزَّه عن جميع النقائص والعيوب في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

٣ ـ إثبات جميع صفات الكمال لله.

٤ ـ إثبات ربوبيته تعالى وإلهيته وتوحيده؛ لأن خضوع هذه العوالم لله سبحانه من أجل أنه خالقها ومالكها ومدبرها، وهذا معنى أنه ربُّها، وهو مستلزم أنه الإله الحق الذي لا يستحق العبادة سواه.

٥ ـ إثبات اسمين من أسمائه تعالى وهما العزيز والحكيم، وصفتين من صفاته، وهما العزَّة والحكمة.

٦ ـ أنه تعالى القوي الغالب الذي لا نظير له.

٧ ـ أنه تعالى حكيم في شرعه وقدَره، يضع الأشياء في مواضعها.

٨ ـ أنه تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض وتدبيرهما وما فيهما.

٩ ـ أنه تعالى يحيي من يشاء ويميت من يشاء.

١٠ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى؛ لقوله: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

١١ ـ أنه على كل شيء قدير.

١٢ ـ الرد على القدرية النافين لقدرة الله على أفعال العباد.

١٣ ـ أن من أسمائه تعالى الأول والآخر والظاهر والباطن.

١٤ ـ إثبات أزليته تعالى وأبديته.

١٥ ـ الردُّ على الفلاسفة القائلين بقدم العالم ودوامه.

١٦ ـ إثبات علوِّه تعالى فوق كل شيء، وهو معنى اسمه الظاهر.

١٧ ـ قربه تعالى بعلمه وسمعه وبصره وقدرته من كل شيء، وهو معنى اسمه الباطن.

١٨ ـ إحاطة علمه تعالى بكل شيء.

١٩ ـ اختلاف عموم ﴿كُلِّ﴾ باختلاف مُتعلَّقها، كما يظهر ذلك بين قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾.

***

ولما ذكر الله ملكه للسَّماوات والأرض بيَّن هذا الملك؛ فقال سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات جملة من صفاته تعالى وأفعاله؛ من خلقه للسماوات والأرض وملكه لهما، وعلمه بما فيهما، وما في الصدور، وأنه مع عباده أينما كانوا، وإليه ترجع الأمور، وأنه الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل.

## التفسير:

قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي:

من أيامنا المعهودة في هذه الحياة الدنيا، أولها الأحد، وآخرها الجمعة، وهو سبحانه قادر على أن يخلق السماوات والأرض في أقل من لمح البصر، لأن أمره تعالى إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن، فيكون، ولكن خلقها في ستة أيام لحِكَم، قال بعض العلماء: منها أن يُعلِّم العباد التأني في الأمور، والله أعلم، وقد أخبر سبحانه أنه ما مسَّه في خلقهما من لُغوب أي: تعب، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ أي: ارتفع وعلا ﷻ ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً حقيقيًّا يليق بجلاله وكماله، والعرش في اللغة سرير المُلك، وعرش الرحمن: سرير عظيم لا يعلم قدره وكيفيته إلا الله، وهو أعلى المخلوقات وسقفها، وهو أوسعها، موصوف بالمجد والكرم والعظمة، وهو فوق السَّماوات كالقُبَّة، وهو ذو قوائم، وله حمَلة ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يعلم سبحانه ما يدخل في الأرض من الحبِّ والمطر والكنوز والأموات وغيرها ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: ويعلم تعالى ما يخرج من الأرض من النبات والزروع والثمار والمعادن ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مثل المطر والملائكة والشرائع ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: يصعد إليها ويدخل فيها من الملائكة والأرواح والأعمال الصالحة، كما قال سبحانه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله ﷻ ﴿مَعَكُمْ﴾ أي: معكم بعلمه ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي: في أيِّ مكان كنتم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ أي: عالم بأحوالكم ومطَّلع على جميع أعمالكم، فلا يخفى عليه من ذلك شيء، وسيجازيكم عليه، وهذا وعد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له وحده ملك السماوات والأرض وما فيهن، وأعاد هذه الجملة تأكيدا لما سبق، وليبنَى عليه قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥﴾ أي: وإليه ـ وحده ـ ترجع أمور خلقه يوم القيامة فيحاسبهم، فأفادت الآية أن له تعالى ملك الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣﴾ [الليل: ١٣].

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ أي: يُدخِل الليل في النهار فيقصُر الليل ويطول النهار ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يُدخِل النهار في الليل فيقصُر النهار ويطول الليل، وكل ذلك دالٌّ على كمال قدرته تعالى وبديع حكمته ورحمته، ولو اجتمعت الخلائق كلها على أن تصنع ذلك ما استطاعت ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾ أي: بصاحبة الصدور، فـ (ذات) مؤنث (ذو)، وصاحبة الصدور هي الأسرار والخواطر النفسية، وجُعِلت صاحبةً للصدور لأنها ملازمة لها لا تنفك عنها، نحو: أصحاب الجنة وأصحاب النار، فعلمه تعالى محيطٌ بكل شيء؛ فإذا كان يعلم ما يضمره الإنسان في صدره فمن باب أولى أنه تعالى يعلم ما يظهره للناس وما يتكلم به.

### الفوائد والأحكام:

١ ـ أن السماوات والأرض مخلوقة.

٢ ـ أن الله خالقُهما.

٣ ـ أن خلقهما في ستة أيام.

٤ ـ أنه تعالى مستو على العرش.

٥ ـ أن استواءه على العرش بعد خلقه للسماوات والأرض.

٦ ـ إثبات العرش.

٧ ـ علمه تعالى بما يدخل في الأرض وما يخرج منها.

٨ ـ علمه تعالى بما ينزل من السماء وما يعرج فيها.

٩ ـ إثبات المعية العامة لله تعالى.

١٠ ـ بصره بأعمال العباد.

١١ ـ أن مُلك السماوات والأرض لله وحده.

١٢ ـ أن جميع الأمور راجعة إليه سبحانه.

١٣ ـ أنه تعالى المتصرف في الليل والنهار بالزيادة والنقص بإدخال الليل في النهار والنهار في الليل.

١٤ ـ الإشارة إلى ما في ذلك من المصالح للعباد.

١٥ ـ علمه تعالى بما في صدور العباد.

١٦ ـ التناسب بين هذه المعاني بذكر خلق السماوات والأرض وملكِه تعالى للسماوات والأرض، وتصرُّفِه في الليل والنهار، وذكرِ استوائه على العرش ومعيتِه لعباده.

١٧ ـ تنويع أدلة ربوبيته تعالى وإلاهيته.

* * *

ولما ذكر الله أنواعًا من الأدلة على عظمته وقدرته أمر المؤمنين بالثبات على الإيمان والبذل في سبيله، فقال سبحانه:

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإيمان بالله ورسوله، وبالإنفاق مما استخلفهم الله فيه، ووعدهم على ذلك الأجر الكبير، وبيَّن أنه لا عذر لهم في عدم الإيمان بالله ورسوله، والحال أن الرسول يدعوهم للإيمان بربهم، وقد أخذ عليهم الميثاق في ذلك، إن كانوا مؤمنين حقًّا فليؤمنوا بكل ما جاء عن الله ورسوله ﷺ، ثم ذكَّرهم نعمته العظيمة عليهم، وهي إنزال هذا القرآن ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ثم أخبر أنه بالمؤمنين رؤوف رحيم؛ فدلَّ على أن ما تقدم من الأمر بالإيمان والإنفاق وما منَّ به من إنزال القرآن، كلُّ ذلك من آثار رأفته ورحمته بالمؤمنين.

## التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: اثبتوا على الإيمان وازدادوا منه، والسورة مدنية فالخطاب للمؤمنين، ويدلُّ على هذا قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾؛ لأن الكافر لا يؤمر بالإنفاق، ولو أنفق لم يقبل منه لعدم أصل الإيمان ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: وأنفقوا مما بأيديكم من المال الذي جعلكم الله خلفاء فيه بعد من كان مالكا قبلكم، والمال في الحقيقة لله تعالى، كما أن أصحاب المال عبيدُه سبحانه، ولم يذكر الله نوع المنفَق ولا عدده، فيشمل ذلك الإنفاق الواجب والمندوب، والقليل والكثير، وفي الآية تهوين من شأن المال، وتحريض على بذله، وأنه إذا لم يبذل في سبيل الله صار إلى غيرهم ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله والإنفاق في سبيله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ لهم ثواب عظيم، وهو مضاعفة الحسنات، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ [البقرة: ٢٦١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ استفهام إنكاريٌّ تعجبيٌّ، أي: وأيُّ عذرٍ يمنعكم من تجديد الإيمان والازدياد منه ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي: والحال أن الرسول وهو محمد ﷺ بين أظهركم يدعوكم في كل وقت للإيمان بربكم وخالقكم، وذكره بصفة الرسالة في هذا المقام لأن الرسالة متعلَّق الإيمان ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ أي: وقد أخذ الله عليكم الميثاق، أي: العهد، وذلك بما نصب من الأدلة على ربوبيته وإلاهيته وتوحيده، وبما أودع فينا من العقول والأفهام، وبما فطرنا عليه من التوحيد، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقيل: إن الميثاق هو الذي أخذه الله من ذرية آدم حين أخرجهم من ظهره كالذَّرِّ، والله أعلم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ أي: إن كنتم مؤمنين بالله ربكم فالزموا الإيمان واثبتوا عليه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ﴾ أي: الله ﷻ ﴿الَّذِي يُنَزِّلُ﴾ بإرسال جبريل عليه السلام ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات الدلالة والمقاصد تقوم بها الحجة، وهي آيات القرآن ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: لأجل أن يخرجكم من ظلمات الكفر والجهل والشك إلى نور الهدى والإيمان واليقين ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝٩﴾ أي: بالغ الرأفة واسع الرحمة، والرأفة أرق من الرحمة فهي أخصُّ منها.

**الفوائد والأحكام:**

١ ـ أن المؤمن يؤمر بالإيمان ليثبُت عليه، ويأخذَ بأسباب زيادته.

٢ ـ أنه يؤمر بالإنفاق مما رزقه الله.

٣ ـ أن اقتران الأمر بالإيمان والإنفاق نظيرُ اقتران الأمر بإقام

الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو يدل على عظم شأن الإنفاق في سبيل الله.

٤ ـ الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ﴾.

٥ ـ التحريض على الإنفاق بذكر أن المال رزقٌ من الله؛ لقوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾.

٦ ـ أن المال الذي في أيدي العباد هو من الله، فلا ينفق إلا فيما يحب الله.

٧ ـ وعْد الله المؤمنين والمنفقين بالأجر العظيم.

٨ ـ تسمية الثواب أجرًا؛ ففيه:

٩ ـ إثبات كرم الله حيث سمَّى هذا الجزاء أجرًا، وإن كان سببُه منه، فهو تعالى المانُّ بالثواب وسببه.

١٠ ـ أنه لا عذر لمن لم يؤمن بالله، وقد قامت عليه حجة الله بدعوة الرسول ﷺ وبالميثاق.

١١ ـ أن وجود النبي ﷺ بين أظهر الناس داعيًا لهم إلى الإيمان بالله من أعظم الحجج عليهم.

١٢ ـ أن النبي ﷺ قام بما يجب عليه من الدعوة؛ لقوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾.

١٣ ـ إثبات الربوبية الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله: ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾.

١٤ ـ أن من أعظم الحجج على المخالف ما أعطاه من الميثاق، أي: العهد.

١٥ ـ أن أصل الإيمان السابق يدعو إلى كمال الإيمان؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨﴾، ففيها شاهد لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

١٦ ـ وصف النبي ﷺ بالعبودية، وهي العبودية الخاصة، وتشريف النبي ﷺ بذلك.

١٧ ـ الامتنان من الله بإنزال القرآن آياتٍ بينات.

١٨ ـ أن آيات القرآن واضحة المعنى ميسَّرة للفهم.

١٩ ـ الحكمة من إنزال القرآن.

٢٠ ـ إثبات الحكمة لله في أفعاله؛ لقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾.

٢١ ـ أن الكفر ظلمات والإيمان نور.

٢٢ ـ أن الباطل أنواع والحقَّ واحد؛ لقوله: ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾.

٢٣ ـ أن الله هو الذي يهدي من يشاء، ففيه:

٢٤ ـ الرد على القدرية؛ لقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾.

٢٥ ـ أن ما حصل من إنزال القرآن وما يحصل به هو من آثار رأفته ورحمته تعالى بعباده.

٢٦ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما الرؤوف والرحيم، وما دلَّا عليه من صفتي الرأفة والرحمة.

قال سبحانه:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان عتاب الله للمؤمنين على عدم الإنفاق في سبيل الله، والله واهب ما في أيديهم من المال، وهو وارثه، وبيان التفاضل بين المنفقين في وقت العُسر وضعف المسلمين ووقت السعة وعز الإسلام والمسلمين، وكذا في القتال، ثم الدعوة مرة أخرى إلى الإنفاق احتسابًا للثواب المضاعف والأجر الكريم.

## التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا عطف على قوله: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] أي: وأيُّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، أي: في مرضاة الله وطاعته من الجهاد في سبيل الله وغيره ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جملة حالية فيها حثٌّ شديد على الإنفاق، أي: والحال أنَّ لله كلَّ ما في السماوات والأرض، وهو سبحانه يرث كل ما فيها؛ لأنه الباقي بعد كل شيء، فما بأيديكم من الأموال صائر إلى الله، ولا يبقى لأحد ملك شيء منها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠]، فالإنفاق يعود على صاحبه بالخير في الدنيا والآخرة، وفيه تزكية النفس عن البخل والشح بالمال، أما الإمساك ففيه ضياع المال والأجر معًا.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ أي: لا يستوي في الثواب والمنزلة عند الله منكم ـ أيها المؤمنون ـ من أنفق ماله في سبيل الله، وقاتل الكافرين قبل الفتح في وقت الشدة والضنك وقلة العدد والعتاد، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، لا يستوي هؤلاء ومن جاء بعدهم ممن أنفق وقاتل بعد الفتح وقت السعة والرخاء والقوة.

والمراد بالفتح صلح الحديبية الذي وقع سنة ست من الهجرة بين رسول الله ﷺ وقريش، ورجَّح ذلك ابن جرير الطبري، وسماه الله فتحًا لأنه كان سببًا لفتح مكة سنة ثمان، ولما فيه من الاعتراف الضمني بقوة المسلمين، ولما حصل فيه من الخير من أمن المسلمين على أنفسهم، ومن الدعوة إلى الله، وتفرغ المسلمين للغزو، ودخول الناس في الإسلام.

قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الأولون، وأشار إليهم بإشارة البعيد لعلو شأنهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ أي: أرفع منزلة عند الله وأكثر أجرًا ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: مِن بعد الفتح ﴿وَقَٰتَلُواْۚ﴾ أي: وقاتلوا في سبيل الله، ولما كان هذا التفضيل للأولين قد يُتوهم منه عدم إثابة المنفقين والمقاتلين بعد الفتح قال على سبيل الاحتراس: ﴿وَكُلًّا﴾ أي: من الفريقين، وهو منصوب على أنه مفعول به مقدَّم للفعل ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ أي: وعده الله العاقبة الحسنى، وهي الجنة، مع تفاوت درجاتهم فيها ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ أي: عالم بجميع أعمالكم ومطَّلع على نواياكم فيجازي كلًّا بما يستحق.

ثم ندب الله إلى الإنفاق في سبيل الله مرة أخرى بصيغة الاستفهام الدالة على التحريض البالغ، فقال سبحانه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: مَنِ المؤمن الذي ينفق ماله في سبيل الله وابتغاء وجهه طيبة بذلك نفسه، شبَّه الإنفاق في سبيل الله بالقرض بجامع عود المال إلى صاحبه في كلٍّ منهما، وهذا من كرمه تعالى حيث سمَّى البذل في سبيله قرضا، والمالُ مالُه تعالى، وهو سبحانه واهب المال، والموفق عبدَه للإنفاق ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي: يجزيَه على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ أي: عظيم حسَن.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ عتاب الله للباخلين عن الإنفاق في سبيل الله.

٢ ـ أن من لم ينفق في سبيل الله وهو وقادر فإنه ملوم.

٣ ـ أن الله باق ووارثٌ لكلِّ هالك.

٤ ـ أن ميراثه تعالى للسماوات والأرض هو من معنى اسمه الآخر.

٥ ـ أن التذكير بالرحيل عن الدنيا وتخليفَ ما نيل منها، باعثٌ على بذله في عمل الآخرة.

٦ ـ فضل الإنفاق والقتال في سبيل الله في حال العُسرة.

٧ ـ تفاضل الأعمال باختلاف الأحوال.

٨ ـ فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على من جاء بعدهم.

٩ ـ أن السابقين الأولين هم من أنفق وقاتل قبل الفتح، والمراد به صلحُ الحديبية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]، وقوله: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧﴾ [الفتح: ٢٧].

١٠ ـ تفاضل الصحابة بحسب إيمانهم وأعمالهم.

١١ ـ أن كُلًّا من السابقين واللاحقين من الصحابة موعودٌ بالحسنى، وهي الجزاء الأحسن بمضاعفة الحسنات ودخول الجنات.

١٢ ـ إثبات كمال علمه تعالى بأحوال العباد وأعمالهم.

١٣ ـ تسمية النفقة في سبيل الله قرضًا.

١٤ ـ أن من كرم الله مضاعفة الحسنات والنفقات.

١٥ ـ اعتبار شرط الحُسن في القرض لمضاعفته وحصول الأجر،

ويعتبر في حسن القرض أن يكون من كسب طيب، وعن طيب نفس، وأن يكون خالصًا لوجه الله، وموافقًا للشرع.

١٦ - الدعوة إلى الإنفاق وفعل الخير بصيغة الاستفهام حثًّا وترغيبًا.

١٧ - أن الأجر الكريم الموعود جزاءٌ على أصل العمل وعلى مضاعفاته.

١٨ - حسن أجر العاملين؛ لقوله: ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ ⑪﴾.

ولما وعد الله المقرض بالجزاء الحسن والمضاعفة بيَّن الوقت الذي يكون فيه الجزاء، وهو يوم القيامة؛ فقال سبحانه:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ⑫ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ⑬ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ⑭ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ⑮﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات الخبر ببعض أحوال المؤمنين والمنافقين والكافرين يوم القيامة، فتضمنت أن المؤمنين يبشَّرون بالجنة، ويعطَون هم والمنافقون أنوارًا؛ فيسعى نور المؤمنين بأيديهم وبأيمانهم، وينطفئ نور

المنافقين، فيسألون المؤمنين أن ينتظروهم ليقتبسوا من نورهم، فيضرب بينهم بسور، فلا يزالون ينادون المؤمنين: ألم نكن معكم؟ فيردُ عليهم المؤمنون بذكر سوء حالهم في الدنيا، وتيئيسًا لهم من الخَلاص يبيِّن لهم أنه لا يؤخذ منهم فديةٌ لو افتدوا أنفسهم، ولا من الكافرين، ثم منتهَى المنافقين والكافرين النار، وبئس المصير.

## التفسير:

قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: اذكر يومَ ترى المؤمنين والمؤمنات في القيامة، والخطاب لغير معيَّن فيفيد العموم ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أي: يضيءُ لهم نور إيمانهم وأعمالهم الصالحة في عَرصات القيامة وعلى الصراط ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم حيثما توجهوا ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أي: وعن أيمانهم وعن جميع جهاتهم، وهذا من قبيل الاكتفاء بالبعض، وخصَّت الأيمان بالذكر لشرفها، وتقول لهم الملائكة ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ أي: أبشروا بدخول جنات ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار تتمتعون فيها بسبب أعمالكم التي قدمتموها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: ما كثين فيها أبد الآباد لا تخرجون منها ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ أي: الذي لا فوز أعظم منه.

ولما ذكر حال المؤمنين ذكر حال المنافقين في ذلك اليوم، فقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا بدل من قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ﴿ٱنظُرُونَا﴾ أي: انتظرونا ولا تعجلوا في السير، وذلك أن المنافقين في ظلام دامس ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نأخذ من نوركم نستضيء به، وأصل الاقتباس أخذ قبَس أو جذوة من النار ﴿قِيلَ﴾ القائل المؤمنون أو الملائكة ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ أي: ارجعوا في الظلمة التي كنتم فيها فاطلبوا فيها نورا، وهذا استهزاء بهم،

كما كانوا يستهزئون بالمؤمنين في الدنيا ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾ أي: ففُصل بينهم بسور له باب بعد تلك المحاورة ﴿بَاطِنُهُ﴾ أي: الجانب الذي يلي مكان المؤمنين ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: فيه الثواب والنعيم ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ أي: وجانبه الذي يلي مكان المنافقين ﴿مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ أي: من جهته العذاب.

قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين قائلين لهم: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: في الدنيا، وعلى دين واحد، ونؤدي الشعائر من الصلاة وغيرها ﴿قَالُوا﴾ أي: قال المؤمنون ﴿بَلَىٰ﴾ كنتم معنا أي: في الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: أضللتموها وأهلكتموها بالنفاق ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: انتظرتم الحوادث المهلكة والمصائب بالرسول ﷺ والمؤمنين ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم في الدين ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أي: خَدعتْكم الآمال الكاذبة من زوال الإسلام ومن سعة رحمة الله وعفوه عنكم، والأمانيُّ جمع أمنيَّة ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: جاءكم الموت وأنتم على النفاق ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ وخدعكم بعفو الله ومغفرته الشيطانُ الرجيم.

قوله سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أي: فاليومَ لا يؤخذ منكم ـ أيها المنافقون ـ فدية تفتدون بها أنفسكم من العذاب أيًّا كانت الفدية، ولو كانت ملء الأرض ذهبا ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ولا يؤخذ أيضا فدية من الكافرين الجاحدين بآيات الله ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: مكانكم الذي تأوون إليه جميعًا النار ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ المولى هو الناصر والمعين، فجعْل النار مولى لهم تهكم بهم؛ حيث لم يجعل لهم ناصرًا إلا النار ﴿وَبِئْسَ﴾ أي: بلغ النهاية في البؤس والشر والضرر ﴿الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ أي: المآل الذي يصيرون إليه، و(بأس) فعل ماض لإنشاء الذم،

والمصير فاعل، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: بئس المصيرُ جهنم، نعوذ بالله منها.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ التذكير باليوم الذي يسير فيه المؤمنون على الصراط.

٢ ـ أن الصراط طريق مظلم.

٣ ـ أن المؤمنين يسيرون فيه بالنور الذي يعطَونه، ويسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

٤ ـ أن المنافقين يسيرون مع المؤمنين أول الأمر، ويعطَون نورًا، لكن سرعان ما ينطفئ.

٥ ـ أن المؤمنين يسبقونهم.

٦ ـ أن المؤمنات موعودات بالجنة والبشرى والرضوان، كالرجل.

٧ ـ أن المنافقين يسألون المؤمنين أن يَنْظُروهم ليقتبسوا من نورهم.

٨ ـ أنه يُفصل بين المنافقين والمؤمنين بسور.

٩ ـ أن باطن السور هو ما يلي المؤمنين، وفيه الرحمة، وظاهره يلي المنافقين، وفيه العذاب.

١٠ ـ أن المنافقين يذكِّرون المؤمنين بأنهم كانوا معهم في الدنيا.

١١ ـ أن المؤمنين يُقرِّون لهم، ولكن يذكُرون أحوالهم وأعمالهم السيئة.

١٢ ـ أن المنافقين غرَّتهم الأماني وغرَّهم الشيطان.

١٣ ـ أنهم لو افتدوا لايقبل منهم.

١٤ ـ أن النار مأوى المنافقين والكافرين.

١٥ ـ التهكم بالمنافقين والكافرين بجعل النار مولًى لهم.

١٦ ـ ذمُّ النار التي هي مأوى الكافرين.

لما ذكر الله حال المنافقين وما هم عليه من الغفلة والاغترار بالدنيا؛ حذَّر المؤمنين من مشابهتهم؛ فقال سبحانه:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

### المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان عتابًا من الله للمؤمنين أن لم تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق على رسوله، ثم نهاهم عن مشابهة أهل الكتاب في قسوة القلوب حين تطاول عليهم الأمد، ثم أخبر تعالى أنه الذي يحيي الأرض بعد موتها بما ينزل عليها من الماء، وفي هذا بشرى للمؤمنين بأن يحيي الله قلوبهم كما يحيي الأرض بعد موتها، ثم يمتن عليهم ببيان الآيات لعلهم يعقلون.

### التفسير:

قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هذا التركيب يراد به الحثُّ على ما بعده، أي: ألم يحِن الوقتُ للمؤمنين، أي: حان الوقت، يقال: أَنى الشيءُ يأنِي أَنْيًا، بوزن رمَى يرمِي رمْيًا، أي: جاء وقته ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تلين وتستكين، وإسناد الخشوع إلى القلب لأنه ملك

الجوارح فصلاحها وفسادها منوط به ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لأجل ذكر الله ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: القرآن، وهذا من عطف الخاص على العام؛ لأن القرآن من ذكر الله، وعطف القرآن عليه ووصفه بأنه حقٌّ وأنه منزَّل ـ أي: من عند الله ـ دليلٌ على علو شأن القرآن وتنبيه على وجوب تعظيمه بالإقبال عليه وعدم الغفلة عنه.

وقد فهم الصحابة من الآية أن فيها عتابًا لهم، ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين(١).

ويبدو أنه ظهر على بعض الصحابة فترة، فجاء تنبيه الله لهم بهذه الآية الكريمة، وهي إرشاد لجميع المؤمنين؛ لأن القرآن كتاب الأمة كلها، وخصوص السبب لا ينافي عموم الحكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي: طال على اليهود والنصارى الزمان بينهم وبين أنبيائهم وصالحيهم، فبدَّلوا كتب الله وحرَّفوها، ونبذوها وراء ظهورهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: صارت لا تلين لذكر ولا تنفع فيها موعظة ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: خارجون عن طاعة الله، ففي الآية ذمٌّ لهم ونهيٌ من الله لعباده المؤمنين أن يتشبهوا بهم في هذه الصفات الذميمة.

وعلى هذا فيكون النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ معطوفا على ما تضمنته الجملة السابقة من الأمر؛ فهو تعالى يأمر المؤمنين بالخشوع وينهاهم عن قسوة القلب.

---

(١) مسلم (٣٠٢٧).

قوله سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أي: اعلموا أيها المؤمنون، وابتداء الكلام بهذا الفعل فيه التنبيه على أهمية ما بعده ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ أي: يحييها بالغيث فينبت فيها النبات بعد أن كانت قاحلة يابسة، وهذا مثل ضربه الحق سبحانه لبيان أثر ذكر الله وتلاوة القرآن في القلوب؛ فكما يحيي الله الأرض بعد موتها بالمطر فكذلك تحيا القلوب بالذكر والرجوع إلى الله، وأكَّد الله هذا المعنى بقوله: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الحجج والبراهين الواضحات على كمال قدرتنا ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾ أي: لكي تفهموا ما فيها وتعملوا بموجَبه من الإقبال على ذكر الله وخشوع القلب.

**الفوائد والأحكام:**

١ ـ عتاب الله المؤمنين في تقصيرهم فيما يليق بمقامهم.

٢ ـ أن العلم بما أنزل الله يقتضي العمل.

٣ ـ أن خشوع القلب ـ وهو سكونه لذكر الله ولما أنزل من القرآن ـ من مقتضَى العلم.

٤ ـ أن عدم الخشوع ينشأ من قسوة القلب.

٥ ـ أن خشوع القلب من كمال الإيمان.

٦ ـ الترغيب في الإقبال على ذكر الله.

٧ ـ أن القرآن حقٌّ ودالٌّ على الحق.

٨ ـ النهي عن مشابهة أهل الكتاب في قسوة قلوبهم.

٩ ـ في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤] الآية.

١٠ ـ أن طول الزمان مع الغفلة يورث قسوة في القلب.

١١ ـ أن بعد العهد من عصر النبوة سببٌ لقسوة القلب وقلة العلم.

١٢ ـ فضل الصحابة لقربهم من عهد النبوة.

١٣ ـ أن أكثر الذين قست قلوبهم فاسقون.

١٤ ـ أن من أهل الكتاب مَن هو صالح؛ لقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ١٦﴾، ويشهد له قوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ١١٠﴾ [آل عمران: ١١٠].

١٥ ـ أن الله هو الذي يحيي الأرض بعد موتها بما ينزل من الغيث.

١٦ ـ أنه تعالى كذلك هو الذي يحيي القلوب بما يجعل فيها من العلم والإيمان.

١٧ ـ البشارة بأن الله قد يحيي من قسى قلبه إذا شاء ذلك.

١٨ ـ التناسب بين ذكر حياة القلوب بإنزال القرآن، وحياة الأرض بإنزال الغيث، ويشبه هذا ما جاء من الاقتران بين إنزال الغيث وإنزال الكتاب في سورة الزمر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إلى قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢١ ـ ٢٣].

١٩ ـ إقامة الحجة على العباد ببيان الآيات.

٢٠ ـ ذكر الحكمة في ذلك، وهي العقل عن الله بتدبر آياته والتفكر فيها.

٢١ ـ أن الأمور معتبرة بثمراتها ومنافعها، ومن ذلك العقل؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٧﴾.

* * *

ثم عاد الكلام إلى النفقة في وجوه الخير ترغيبًا فيها وتأكيدًا

عليها، ولأنه لا قوام لمصالح الأمة من إقامة الدين ونشر العدل والجهاد في سبيل الله إلا بالمال؛ فقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان الثناء من الله على المؤمنين والمؤمنات الذين تصدقوا وأقرضوا الله ما تصدقوا به، مؤمنين بوعده، وقد وعدهم الله أن يضاعف لهم نفقاتهم، ويؤتيهم أجرًا كريمًا، كما أثنى تعالى على الذين آمنوا بالله ورسله، ووصفهم بأنهم الصدِّيقون، ثم أثنى على الشهداء وذكر فضلهم وثوابهم. وفي الآية الأخيرة توعد الله الكافرين المكذبين بآيات الله بعذاب الجحيم.

## التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ (أل) في المصدِّقين والمصَّدقات بمعنى الذي، ولذا عطف عليه ﴿وَأَقْرَضُوا۟﴾، كأنه قال: إن الذين تصدقوا وأقرضوا ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ أي: المتصدِّقين والمتصدِّقات، أدغمت التاء في الصاد بعد قلبها صادًا لتقارب مخرجيهما، طلبًا لخفة الإدغام ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: وأنفقوا في سبيل الله إنفاقًا حسنًا، والإنفاق الحسن ما كان عن طيب نفس مقصودًا به وجه الله، ولم يصحبه مَنٌّ ولا أذى، وسمَّاه الله قرضًا لأن أجره وخلَفه مضمون عنده تعالى ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمْ﴾ أي: يضاعف لهم

ثوابهم؛ فالله يجزي على الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١٨﴾ أي: طيِّبٌ حسَن، كما جاء في حديث معاذ لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن قال له: «**إياك وكرائم أموالهم**»[1] أي: أحاسنها.

ولما ذكر الله المتصدقين وما أعدَّ لهم من الثواب أخبر عن عموم المؤمنين بالله ورسله وأنهم هم الصدِّيقون، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: صدَّقوا بالله بربوبيته وإلاهيته وآمنوا برسله كلهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ أي: الكُمَّل في تصديقهم فيفيد كمال إيمانهم، ولا أحد أعظم تصديقًا من أهل التوحيد والإخلاص.

ثم أخبر عن الشهداء وما لهم عند الله فقال سبحانه: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الشهداء مبتدأ ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ خبره، والشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في الجنة، كما أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل[2] ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: لهم ثواب جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

ولما ذكر أصناف السعداء ذكر ما يقابلهم من الأشقياء؛ فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا إلاهية الله وتوحيده ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وهي ما بعث الله به رسله من الآيات الدالة على ربوبيته تعالى وإلاهيته وعلى صدق رسله ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١٩﴾ أي: أصحاب النار

---

(١) البخاري (١٤٩٦) ومسلم (١٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) مسلم (١٨٨٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الملازمون لها، وأصل الجحيم النارُ العظيمة المستحكمة، يقال: جحَمتِ النَّار تجْحَمُ، إذا عظُمت، فهي جاحمة وجحيم.

### الفوائد والأحكام:

١ ـ ثناء الله على المتصدقين من المؤمنين والمؤمنات.

٢ ـ الترغيب في الصدقة.

٣ ـ وعد المتصدقين بمضاعفة صدقتهم وبالأجر الكريم.

٤ ـ تسمية الصدقة إقراضًا لله تعالى.

٥ ـ إشعار لفظ القرض بالخَلَف من الله.

٦ ـ التنبيه على الإخلاص في الصدقة وطيب النفس وموافقة الشرع.

٧ ـ الثناء من الله على المؤمنين بالله ورسله.

٨ ـ أن المؤمنين منهم الصِّدِّيقون والشهداء.

٩ ـ انتظام الآية لطوائف المنعَم عليهم المذكورين في سورة النساء من النبيين والصديقين والشهداء، كما هو ظاهر، والصالحين كما يتضمنه قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾.

١٠ ـ ذكر ثواب الصديقين والشهداء في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

١١ ـ التناسب بين قوله تعالى: ﴿وَنُورُهُمْ﴾ وقوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ وقوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ في هذه السورة.

١٢ ـ إثبات عندية المكان والقرب؛ لقوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

١٣ ـ تسمية الثواب أجرًا.

١٤ ـ الجمع بين الوعد والوعيد في آية واحدة.

١٥ ـ خلود الكافرين في الجحيم، كما يدل عليه لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾.

١٦ ـ أن من أسماء النار الجحيم.

١٧ ـ إثبات الأسباب في الخير والشر.

ولما ذكر الله أصناف المؤمنين أمرهم أن يعلموا حقيقة الدنيا تزهيدًا لهم فيها؛ لئلا يعظم حبُّها في قلوبهم فيؤثروها على الآخرة، فيمنعهم ذلك من البذل في سبيل الله والإقبال على العمل الصالح؛ فقال سبحانه:

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾.

### المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان إعلاما من الله تعالى لجميع الناس بحقيقة هذه الحياة الدنيا، فكلها لهو ولعب، وتفاخر وتكاثر، ثم هي إلى زوال فمتاعها غرور، وأما الآخرة ففيها العذاب الشديد والنعيم المقيم، ثم أمر الله بالسباق إلى ما فيها من النعيم الذي هو جنة عرضها كعرض السماء والأرض، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

### التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أي: اعلموا ـ أيها المؤمنون ـ علم اليقين

﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ الدنيا مؤنث الأدنى، وسميت الحياة الدنيا بذلك لدناءتها بالنسبة إلى الآخرة، كذا قيل، والأجود أن يقال: سمِّيت بذلك لدنوِّها، أي: لقربها، فهي الحاضرة، ولهذا تسمى الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل: ١٣]، وسمَّاها الله العاجلة، قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾ [القيامة: ٢٠]، ﴿لَعِبٌ﴾ أي: الحياة الدنيا لا ثمرة لها ولا جدوى كلعِب الصبيان ﴿وَلَهْوٌ﴾ أي: لهو يشغل عن الآخرة ﴿وَزِينَةٌ﴾ فانية يُتزين بها من الملابس والمراكب والمنازل لا تكسب شرفًا ذاتيًا ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ أي: بالأحساب والأنساب والحظوظ الدنيوية ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي: كلٌّ يقول لصاحبه: أنا أكثر منك مالًا وولدًا، وهذا فعل السفهاء.

فهذه الحياة الدنيا في حقارتها وسرعة تقضيها وتهافت أهلها عليها مثَلُها أي: صفتها ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي: مطر ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي: أعجب الكافرين بالله ﷻ، وخصهم بالذكر لأنهم المفتونون بالدنيا المعجبون بزخرفها، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالكفار الزُّراعُ، قالوا: لأن الزَّارع يكفُر الحب في الأرض، أي: يستره، وهذا التفسير - وإن قال به جمع من المفسرين - غير صحيح، ولم ينقل عن أحد من السلف، ولا شاهد له من القرآن؛ بل لفظ الكفار في جميع مواضعه في القرآن يراد به الكافر بالله ﷻ، ولو أراد الله الزُّرَّاع لسمَّاهم بذلك كما قال: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ ففرَّق تعالى بين الزُّراع والكفار، فتبيَّن بذلك ضعف هذا التفسير، وجعله ابن القيم من جملة التفاسير المستنكرة المستكرهة(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: ييْبَس هذا النبات ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد

---

(١) ينظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٦٩٥).

خُضرته ونضارته، وعطفُه بالفاء لسرعة تغيره ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أي: هشيما تذروه الرياح، فتلك حقيقة الدنيا وهذه حالها، فهي زهرة فانية ونعمة زائلة، أولها عناء وآخرها شقاء وحلالها حساب وحرامها عذاب، فهل يليق بعاقل أن يركَن إليها فضلًا عن أن يطمئن بها؟! أما الآخرة التي أعدها الله للمتقين فهي الدار الباقية الخالدة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥﴾ [الزخرف: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣١﴾ [النحل: ٣٠ ـ ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: لمن آثر الدنيا على الآخرة من الكافرين والعصاة ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: للمؤمنين ﴿وَرِضْوَٰنٌۚ﴾ أي: رضى تام منه سبحانه عنهم، كما قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢﴾ [التوبة: ٧٢]، وقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: ٢١]، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝٢٠﴾ أي: وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور الذي يغُرُّ من يركن إليه، وسرعان ما يفنى هذه المتاع ويزول.

ولما حقَّر الدنيا وصغَّر أمرها وعظَّم الآخرة وفخَّم شأنها أمر بالمسابقة إليها؛ فقال سبحانه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: ليسابق كل واحد منكم غيره إلى أسباب المغفرة من التوبة والطاعة والنفقة في سبيل الله ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وسابقوا إلى جنة فسيحة الأرجاء عرضها مثل عرض السماوات والأرض ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ أي: هُيِّئت للمؤمنين المصدقين بالله ورسله، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وفي ذكر المسابقة والمسارعة إشارة إلى أن هذا الأمر قد يفوت ويذهب على صاحبه إما بموت أو غيره، وكما أمر بالمسابقة والمسارعة أثنى على المسابقين والمسارعين إلى الخيرات فقال تعالى بعد ذكره طائفة من أنبيائه الكرام: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وكقوله تعالى عن عباده الصالحين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦١].

قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الجزاء العظيم وهو الجنة التي عرضها السماوات والأرض ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ أي: هو تفضُّلٌ منه تعالى وإنعام: التوفيق للعمل ودخول الجنة ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ أي: والله ـ وحده ـ ذو العطاء الواسع الذي لا حد له.

### الفوائد والأحكام:

١ ـ تعريف الله عباده بحقيقة الدنيا والآخرة.

٢ ـ فضيلة العلم.

٣ ـ وجوب العلم بحال الدنيا والآخرة.

٤ ـ أن معرفة حقيقة الشيء توجب إنزاله منزلته.

٥ ـ حقارة الدنيا، وإن تزخرفت وازدهرت.

٦ ـ ذمُّ اللهو واللعب؛ لأنه باطل لا يعود بنفع إلا ما خصَّه الدليل.

٧ ـ ذمُّ الزينة التي تقصد لذاتها.

٨ ـ ذمُّ التفاخر في حظوط الدنيا.

٩ ـ ذمُّ التكاثر في الأموال والأولاد.

١٠ ـ أن من طرق البيان ضربَ الأمثال.

١١ ـ ضرب المثل للدنيا في ازدهارها وانهيارها بغيث ازدهر نباته، ثم صار هشيمًا وحطامًا.

١٢ ـ أن مآل الدنيا إلى تغير وزوال.

١٣ ـ أن متاع الدنيا خدَّاع لأهلها، يظنونه شيئًا وليس بشيء.

١٤ ـ أن الدنيا بأسرها متاع قليل.

١٥ ـ عظم شأن الآخرة في الخير والشر، فعذابها أشد وأبقى، ونعيمها خير وأبقى.

١٦ ـ إثبات البعث والجزاء.

١٧ ـ الجمع بين ما يقتضي النجاة من العذاب، وما يقتضي حصول الثواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ﴾.

١٨ ـ أن المكلَّف لا يخلو عن ذنب يحتاج معه إلى مغفرة الله.

١٩ ـ إثبات صفة الرضا لله تعالى.

٢٠ ـ إثبات القياس، وذلك من تمثيل الدنيا بالغيث والنبات.

٢١ ـ الجمع بين الوعد والوعيد في آية واحدة.

٢٢ ـ أن من عرف حقيقة الدنيا والآخرة حُقَّ له أن يسابق إلى مغفرة الله وجنته.

٢٣ ـ المبادرة بالأعمال الصالحة في هذه الحياة قبل الفوات.

٢٤ ـ إثبات الجنة، وأنها في غاية السعة.

٢٥ ـ أنها معدَّة للذين آمنوا بالله ورسله، وهم المتقون.

٢٦ ـ وجوب الإيمان بالرسل كلهم؛ لقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

٢٧ ـ أن الجنة والسببَ الموصل إليها ـ وهو الإيمان بالله ورسله ـ فضل الله يؤتيه من يشاء.

٢٨ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٢٩ ـ أن الله ذو الفضل العظيم.

لما ذكر الله الجهاد في أول السورة، ومعلوم ما يكون فيه من القتل وغيره، وذَكر الدنيا التي هي دار المصائب والآلام وبيَّن أنها متاع الغرور، أخبر سبحانه أن ذلك كلَّه واقع بقضاء الله السابق في الأزل ليكون في ذلك سلوان للمؤمنين؛ فقال سبحانه:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

### المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات الإخبار من الله تعالى بسبق القدر في الكتاب الأول بكل مصيبة تقع في الأرض وفي الأنفس قبل وقوعها، والإخبار بحكمة الله في ذلك، كما تضمنت الذم لكل مختال فخور، وكل بخيل معرض عن الإنفاق فيما أمر الله بالإنفاق فيه.

### التفسير:

قوله سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ﴾ أي: ما أصابكم أيها الناس ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾ أي: أيُّ مصيبة صغيرة أو كبيرة، و﴿مِن﴾ تفيد النص على عموم ما بعدها ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالقحط وآفات الزرع والزلازل وغلاء

الأسعار ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من مرض أو همٍّ أو فقر أو فقد حبيب ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: كل ذلك مكتوب في كتاب، وهو اللوح المحفوظ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: من قبل أن نبرأ المصيبة، أي: نخلقها، وقيل: الضمير يعود على الخليقة، وقيل: يعود على الأرض، وقيل: يعود على الجميع، والظاهر أنه يعود على المصيبة، كما تقدم، وهو ظاهر السياق، وذكر الأرض والأنفس للتعميم.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ﴾ أي: إثباته تعالى للأشياء وإحصاؤها قبل وقوعها ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي: هيِّن مهما كثرت؛ لإحاطة علمه تعالى بكل شيء، ولأنه تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**»[1].

ثم بيَّن تعالى وجه الحكمة في هذا الإثبات فقال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ ﴿لِّكَيْلَا﴾ تركيب من ثلاث كلمات: لام التعليل، وكيْ بمعنى أنْ ـ بفتح فسكون ـ، و(لا) النافية، أي: أعلمناكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: ولا تفرحوا فرحَ بطَرٍ وأشَرٍ بما أعطاكم الله من النعم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ أي: متكبر من الخُيَلاء ﴿فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يفخر على الناس بما عنده.

معنى الآية: أن كلَّ شيء مقدَّرٌ في كتاب فعلامَ الأسى والفرح؟! والمراد الحزنُ الذي ينتهي بصاحبه إلى القنوط وعدم التسليم لأمر الله، والفرحُ الذي يؤدي إلى البطر والأشر والفخر على الناس.

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

ثم بيَّن أوصاف المختالين الفخورين، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ فهؤلاء جمعوا بين فعلين ذميمين؛ بخلوا بما يجب عليهم بذله، ودعوا غيرهم إلى البخل؛ ليكونوا مثلهم، ويكفي في ذمِّ هؤلاء أن الله لا يحبهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله وعن الإنفاق في وجوه الخير ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ وحده ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن جميع خلقه، فلا يضره سبحانه كفرُ الكافرين ولا بخل الباخلين ﴿ٱلۡحَمِيدُ ٢٤﴾ أي: المحمود على أقواله وأفعاله وأوصافه، والمحمود على نعمه سبحانه وتعالى، وقد كثر في القرآن اقتران الاسمين الكريمين الغني والحميد، ولعل في اقترانهما إشارة إلى كمال غناه تعالى عن حمد الحامدين، مع استحقاقه للحمد كله.

### الفوائد والأحكام:

١ ـ وجوب الإيمان بالقدر السابق.

٢ ـ أنه شامل لكل حادث كان خيرًا أو شرًا.

٣ ـ الرد على القدرية النفاة.

٤ ـ كمال قدرة الله وكمال علمه؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾.

٥ ـ الحكمة في إعلام العباد بذلك.

٦ ـ إثبات التعليل في أفعال الله؛ لقوله: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ﴾.

٧ ـ ذمُّ اليأس لحصول المكروه، وذمُّ الفرح غير الطبيعي لحصول المحبوب.

٨ ـ ذمُّ الاختيال والفخر.

٩ ـ إثبات المحبة لله تعالى لأهل طاعته.

١٠ ـ بغضه تعالى لكل متكبِّر فخور.

١١ ـ أن الكبر من دواعي البخل.

١٢ ـ أن التكبُّر على الخلق من كبائر الذنوب.

١٣ ـ ذمُّ البخل فيما يحب الله الإنفاق فيه.

١٤ ـ أن من يبخل فإنما يبخل عن نفسه.

١٥ ـ إثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما الغني والحميد، وما دلَّا عليه من كمال الغنى والحمد.

ولما وصف الله نفسه بأنه الحميد، أي: المستحقُ للحمد على كمال صفاته وعلى ما أنعم به على عباده، ناسب أن يُذكِّر بأجل نعمة، وهي نعمة إرسال الرسل وإنزال الكتب، فقال سبحانه:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

### المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الخبر المؤكَّد من الله أنه أرسل رسله بالحجج الواضحات، وأنزل معهم الكتاب، وهو الكتُب المنزلة عليهم، فجاؤوا بها قومهم، وأنزل عليهم الميزان، وهو العدل، ليقوم الناس به، وأخبر تعالى أنه أنزل الحديد لما فيه من البأس والمنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، ومع ذلك فهو القوي العزيز.

ثم أخبر سبحانه عن إرساله نوحًا وإبراهيم اللَّذين جعل الله في

ذريتهما النبوة والكتاب، فكلُّ نبيٍّ بعد نوح فهو من ذريته إلى إبراهيم، وكلُّ نبيٍّ بعد إبراهيم فهو من ذريته، وأخبر أن من ذريتهما المؤمن والكافر، والمحسن والظالم.

### التفسير:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ افتتحت الآية بمؤكدين، هما لام القسم وحرف التحقيق (قد)، وهذا التأكيد يدل على أهمية مضمون الآية المتقرر في الأذهان والذي يشهد به الواقع، وهو إرسال الرسل ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أرسلنا رسلنا الذين اصطفيناهم إلى أممهم بالمعجزات والحجج الواضحات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ المراد جنس الكتاب، فهو شامل لجميع الكتب المنزلة من الله كالتوراة والإنجيل والزبور، وآخرها وأفضلها القرآن العظيم، وهذه الكتب متضمنة للأحكام والشرائع ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي: العدل ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: ليتعاملوا فيما بينهم بالعدل، ولا تستقيم حياتهم إلا بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ أي: وأنزلنا الحديد من الجبال التي خُلق فيها، وليس المراد إنزالَه من السماء؛ لأن الله تعالى أطلق الإنزال ولم يذكر من أين نزل، ولو كان منزلًا من السماء لقيَّده بـ (مِن)، كما قال في القرآن العظيم: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت: ٢]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال في الغيث: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]، كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

ومثل هذه الآية آيتان أخريان في كتاب الله، هما قوله تعالى:

---

(١) ينظر: بيان تلبيس الجهمية (٦/٨) مجموع الفتاوى (١٢/١١٨) و(١٢/٢٥٥ - ٢٥٧).

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۚ﴾ [الزمر: ٦]، وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ﴾ [الأعراف: ٢٦]، ويقال في هاتين الآيتين ما قيل في آية الحديد من أنه إنزال حقيقيٌّ من علو، أما آية الزمر، فالمراد إنزال أصول الأنعام من ظهور الفحول في أرحام الإناث، ثم إنزال الأجنة من بطون الأمهات إلى الأرض، وأما آية الأعراف فيقال: إن اللباس محصَّلٌ من ظهور الأنعام من أصوافها وأوبارها وأشعارها، فمعنى الإنزال في الآية ـ أي: آية الأعراف ـ متحقق.

وذهب جمع من المفسرين إلى أن معنى الإنزال في هذه الآيات الثلاث هو الخلق والإيجاد، وليس ذلك بصحيح؛ لأن الإنزال في جميع مواضعه في القرآن يراد به الإنزال من علو، وهو كذلك في اللغة، فتفسيره بالخلق والإيجاد لا يستقيم؛ فإنه يلزم منه الإخبار عن كل ما على الأرض من جماد ونبات بأنه منزَلٌ، وهذا لم يقله أحد ولا يصح في الواقع.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: فيه قوة شديدة، كما يظهر ذلك في عدة الحرب قديمًا وحديثًا؛ كالدروع والسيوف والرماح والمدافع والطائرات والبواخر وغيرها ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ هذا من عطف العام على الخاص، أي: وفي الحديد منافع كثيرة للناس في معايشهم فيصنعون منه الفؤوس والسكاكين والمسامير وعدة الحرث وسكك الحديد وآلات شتى، ولهذا خصَّ الله الحديد بالذكر دون سائر المعادن؛ فهو أكثرها استعمالًا وأعمُّها نفعًا، وقد قيل: إن أكثر مصالح العالم لا تقوم إلا بالحديد.

وفي ذكر إنزال الكتاب مع إنزال الحديد إشارة لطيفة، وهي أن هذا الدين لا بد له من قوة تحميه، ولهذا قيل: إن قوام الدين بكتاب يهدي

وسيف ينصر، ولهذا ـ والله أعلم ـ قدم البأس الشديد على منافع الناس.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ هذا معطوف على قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ فهي حكمة أخرى من إرسال الرسل، أي: أرسلنا رسلنا ليقوم الناس بالقسط، وليعلم الله من ينصره، والمراد علم الظهور الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب، أي: علم الله للأشياء بعد ظهورها للوجود بعد العدم، وقد علمها تعالى معدومة وأنها ستوجد ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي: من ينصر دينه منكم، أما هو تعالى فلا يحتاج إلى نصرة أحد؛ لأنه تعالى غنيٌّ عن العالمين، فالمراد من ينصر دينه، ومن فعل ذلك فإنما ينفع نفسه، ويوردها موارد العز والشرف في الدنيا والآخرة ﴿وَرُسُلَهُۥ﴾ أي: وينصر رسله باتِّباعهم والذبِّ عنهم وعن شرائعهم ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: ينصرونه وهم لم يروه تعالى، وهذا دليلٌ على قوة إيمانهم، كما قيل: ينصرونه ولا يبصرونه، ويحتمل أن يكون المعنى: ينصرونه في حال غيبتهم عن الناس، وهو دليل على إخلاصهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ هذا من قبيل الاحتراس؛ لأنه تعالى لما ندب إلى نصرة الله ورسله نبَّه على أنه سبحانه ﴿قَوِيٌّ﴾ أي: كامل القوة والقدرة ﴿عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي: لا يغلب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ هذا من تفصيل ما أجمل من إرسال الرسل وإنزال الكتب في الآية السابقة، أي: أرسلنا نوحًا وإبراهيم إلى قومهما فبلَّغا الرسالة على خير وجه، وتخصيص نوح وإبراهيم بالذكر لشرفهما، ونوحٌ هو أبو البشر الثاني، فجميع من بعده من الناس هم من ذريته، وهو أول الرسل، وإبراهيم هو أبو الأنبياء بعده، وجميع الأنبياء بعده يرجعون إلى ملته الحنيفية، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي: في ذرية نوح وإبراهيم ﴿ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتب

المنزلة من الله، فما من نبي بعدهما ولا صاحب كتاب سماوي إلا من نسلهما ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ أي: من ذرية نوح وإبراهيم أناس مهتدون إلى الحق ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: خارجون عن الصراط المستقيم، والفاسق في القرآن يطلق على العاصي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: ٤]، ويطلق على الكافر، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الذاريات: ٤٦]، وقد يطلق على العاصي والكافر معا كما في آية الحديد هذه.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ الامتنان من الله على العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم.

٢ ـ أن إرسال الرسل من رحمة الله تعالى بعباده.

٣ ـ أن إرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم نعمة على العباد؛ لأنها تنبني عليها سعادتهم في الدنيا والآخرة.

٤ ـ أن محمدًا ﷺ ليس بدعًا من الرسل.

٥ ـ أن الرسل جاؤوا ببراهين تدل على صدقهم.

٦ ـ أن الله أنزل عليهم كتبًا في الجملة.

٧ ـ أن الله أنزل الأحكام المتضمِّنة للعدل في كتبه وفيما بلغته رسله.

٨ ـ الحكمة في إنزال الكتاب والميزان، وهو العدل ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٩ ـ وجوب العدل في كل شيء.

١٠ - أن الحديد يخلق في أماكن عالية، ولذا أخبر عنه تعالى بالإنزال.

١١ - التنبيه على ما في الحديد من المنافع والبأس الشديد.

١٢ - أن الحديد من أعظم آلات القتال.

١٣ - التنبيه على الحكمة في إنزال الحديد، وهي البأس والمنافع.

١٤ - إثبات علم الظهور، وهو علم الله بالشيء موجودًا.

١٥ - أن الفضل في الإيمان بالغيب ونصرِ الله بالغيب.

١٦ - الترغيب في نصر الله ورسله بنصر الدين الحق.

١٧ - إثبات اسمين من أسماء الله، وهما القوي والعزيز، وما تضمناه من صفتي القوة والعزة.

١٨ - أن الأنبياء لا يكونون إلا من ذرية نوح قبل إبراهيم.

١٩ - أن جميع الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، وآخرهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

٢٠ - أن ذرية نوح وإبراهيم منهم الصالح المهتدي والفاسق الضال.

٢١ - أن ﴿وَكَثِيرٌ﴾ تأتي بمعنى أكثر.

٢٢ - أن أكثر ذرية نوح وإبراهيم فاسقون، ويدل عليه مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٧﴾ [الرعد: ١]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٢٤٣﴾ [البقرة: ٢٤٣].

٢٣ - الردُّ على الجبرية؛ لإضافة الاهتداء إلى العبد في قوله: ﴿مُّهْتَدٍ﴾.

٢٤ - أن صلاح الأب لا يستلزم صلاح الابن.

**قال تعالى:** ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآية أن الله بعث رسلًا بعد نوح وإبراهيم ومَن آمن بهما؛ كإسماعيل ولوط وشعيب وموسى وهارون وأنبياء بني إسرائيل، وأخبر أنه بعث بعدهم عيسى ابن مريم عليه و‍ﷺ، وأن الله آتاه الإنجيل، وجعل له أتباعا يؤمنون به، وأخبر أن الذين اتبعوه جعل الله في قلوبهم رأفة ورحمة، وأنهم ابتدعوا رهبانية أوجبوها على أنفسهم، وما أوجبها الله عليهم، وأن مَن أُرسل إليهم المسيح صاروا طائفتين، طائفة آمنوا به، وأخرى كفروا به.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ من التقفية، يقال: قفَّى على أثره بفلان إذا أتبعه إياه ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ أي: على آثار نوح وإبراهيم ومن آمن بهما ﴿بِرُسُلِنَا﴾ أي: أرسلنا بعدهم رسولًا بعد رسول حتى انتهى الأمر إلى عيسى ابن مريم، ولهذا قال: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وخُصَّ بالذكر لأنه آخر أنبياء بني إسرائيل، ولاشتهار شريعته وقت التنزيل، ولكثرة أتباعه في جزيرة العرب ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: وأنزلنا عليه الإنجيل، وهو أحد الكتب الثلاثة المشهورة التي أنزلها الله هدى للناس، كما قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم

بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: اتبعوا عيسى، وهم الذين آمنوا به، وهذا الجعل كونيٌّ قدريٌّ ﴿رَأْفَةً﴾ أي: رحمة شديدة ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: رقَّة، وذكر الرحمة بعد الرأفة من عطف العام على الخاص؛ لأن الرأفة أرق من الرحمة، فالقصد تأكيد اتصافهم بلين القلوب، فهم أرقُّ الناس أفئدة في زمانهم، بدليل قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣].

والآية تدل على وجود التراحم بينهم، كما قال الله عن أصحاب نبينا محمد ﷺ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وينبغي للقارئ أن يقف على قوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي: ابتدعوا رهبانيَّة، وهي الغلو في العبادة، نسبة إلى الرَّهْبان صفة مشبهة كالعطشان، والرَّهْبان أبلغ من الراهب بمعنى الخائف، يقال: رهِب يرهَب رهْبة ورُهْبانًا ورَهَبانًا، فهؤلاء غلوا في عبادتهم، وانقطعوا عن الدنيا باعتزال النساء، ولزوم الصوامع والفلوات ولبس الخشن في أشياء أخرى من ذلك ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ الاستثناء منقطع، أي: لم نفرضها عليهم ولكنهم طلبوا بها رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: فما قاموا بها حقَّ القيام، ولا حافظوا عليها حقَّ المحافظة، ففي الآية ذم لهم من جهتين: الأولى: الابتداع في الدين.

الثانية: عدم التزامهم بما أحدثوا واعتقدوه دينا.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: آمنوا بعيسى

ثم آمنوا بمحمد ﷺ من أدركه منهم، هؤلاء أعطيناهم أجرهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: أكثر المنتسبين إلى المسيح خارجون عن طاعة الله بتبديل دين المسيح ومخالفة أمره بما أحدثوا من بدعة التثليث وغيرها.

**الفوائد والأحكام:**

١ ـ كثرة رسل الله بعد نوح وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ أن عيسى عليه السلام آخر مَنْ أرسل إلى بني إسرائيل وهو أفضلهم بعد موسى؛ لأن الله نوَّه بعيسى به فخصَّه وكتابَه بالذكر.

٣ ـ أن كتاب عيسى ابن مريم هو الإنجيل.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥].

٥ ـ أن الله جعل في قلوب الذين اتبعوا عيسى رأفة ورحمة، ولعل هذا هو السبب في أنهم أقرب مودة للمؤمنين. وفي جعل الله ذلك في قلوبهم فائدة، وهي:

٦ ـ الرد على القدرية النفاة.

٧ ـ أن الرَّهبانية عند النصارى بدعة ابتدعوها؛ فليست من دين المسيح.

٨ ـ أن الله ما كتب عليهم الرَّهبانية، لكنهم طلبوا بها رضوان الله.

٩ ـ إثبات صفة الرضا لله.

١٠ ـ أن ما كتبه الله من العبادات متضمِّنٌ لليسر.

١١ ـ أن ما شرعه الله لعباده فيه الغَناء عن بدع المبتدعين.

١٢ ـ أن من أُرسل إليهم المسيح فريقان: مؤمنون به فآتاهم الله أجرهم، وكافرون وهم الأكثر.

ثم ختمت السورة بوصية من الله وبشارة للمؤمنين من أهل الكتاب الذين أدركوا رسوله محمدًا ﷺ؛ فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

## المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات خطاب الله لعباده المؤمنين من أهل الكتاب بالأمر بتقواه والإيمان برسوله، ويعدهم على ذلك رحمة مضاعفة ونورًا من العلم يمشون به في الدنيا ونورًا يمشون به في الآخرة، ومغفرة، والله غفور رحيم، ثم بيَّن تعالى حكمته من هذا العطاء، وهي أن يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

## التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يا مَن صدَّقوا بالله ورسوله واتبعوه، والمراد أهل الكتاب من اليهود والنصارى، كما ذهب إليه غير واحد من السلف، منهم ابن عباس[1]، ورجَّحه ابن جرير، ويدل عليه السياق، ولا ينافي هذا شمولها لعموم المؤمنين؛ لما هو مقرر في علوم القرآن أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب مناهيه ﴿وَءَامِنُواْ

(١) رواه ابن جرير (٢٢/ ٤٣٤).

بِرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ هذا جواب الطلب، أي: يُعطِكم نصيبين عظيمين من الأجر، نصيبٌ على إيمانكم بموسى وعيسى عليهما السلام، ونصيبٌ على إيمانكم بمحمد ﷺ، ويؤيده قوله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين»، وذكر منهم: «ومؤمن أهل الكتاب الذي كان مؤمنا ثم آمن بالنبي ﷺ، فله أجران»[1].

قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ أي: تهتدون بهذا النور في الدنيا والآخرة، كما أشير إلى ذلك في أول السورة، وهو من التناسب الحسن، في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الحديد: ٩] هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فيشير إليه قوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الحديد: ١٢]، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ أي: يستر ذنوبكم ولا يؤاخذكم عليها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ أي: كثير المغفرة واسع الرحمة.

قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: ليعلموا، و(لا) في مثل هذا التركيب زائدة للتأكيد، المعنى: أعطاكم الله ذلك كلَّه ليعلم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله يخصُّون به أنفسهم أو يمنحونه لغيرهم ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: ويعلموا أن الفضل بيد الله وحده ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ من عباده، وأعظم ذلك النبوة التي حسدوا النبي ﷺ عليها ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ أي: والله ـ وحده ـ ذو الإحسان والعطاء الواسع الذي لا حد له، فنسأله تعالى من فضله العظيم نورا ورحمة في الدنيا والآخرة.

(١) البخاري (٢٨٤٩)، ومسلم (١٥٤) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

## الفوائد والأحكام:

١ ـ تكريم الله للمؤمنين بتخصيصهم بالذكر.

٢ ـ أن من مقتضَيات الإيمان تقوى الله.

٣ ـ وصية الله المؤمنين بالتقوى.

٤ ـ وصية الله المؤمنين بالإيمان برسوله.

٥ ـ وجوب الإيمان بالرسول محمد ﷺ.

٦ ـ وعد الله المؤمنين المتقين بكفلين من رحمته.

٧ ـ أن ما ناله المؤمنون من الأجر هو من رحمة الله بهم.

٨ ـ وعد الله لهم بنور يمشون به في الدنيا والآخرة.

٩ ـ إثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما الغفور والرحيم، وما دلَّا عليه من المغفرة والرحمة.

١٠ ـ أن أهم ما يطلبه العبد النجاة من العقاب، وذلك بمغفرة الله لذنوبه، ولعل هذا هو السر في تقديم الغفور على الرحيم.

١١ ـ أن دخول الجنة برحمة الله تعالى.

١٢ ـ إبطال ما يظنه المشركون من قدرتهم على شيء من فضل الله.

١٣ ـ أن الفضل ـ وهو العلم والعمل الصالح بيد الله ـ لا يقدر عليه غيره تعالى.

١٤ ـ أنه تعالى هو الذي يقسم الفضل بين العباد بمشيئته وحكمته.

١٥ ـ أنه تعالى ذو الفضل العظيم، وهذا من أسمائه تعالى.

١٦ ـ إثبات اليد لله تعالى.

١٧ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

١٨ ـ الرد على القدرية؛ لقوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

١٩ ـ أن فضله تعالى وعطاءه دائم، ونعمه متجددة.

٢٠ ـ إثبات قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى.

تم تفسير جزء الذاريات، ولله الحمد والمنة.



# فهرس الموضوعات